الجاسوس ٣٨

رواية

عبد الله يسرى



. . . . بعد دقائق من مطالعة الرئيس جمال عبد الناصر الملف بالكامل، رفع رأسه وقال: « نسبة نجاح الموضوع ده أد إيه يا صلاح ؟ »

ـ الرائد صلاح: «مائة بالمائة بإذن الله يا ريس »

ـ الرئيس جمال: «دول خمسة آلاف جندى وتسعة لواءات يا صلاح، عارف الدعاية اللى حتكسبها إسرائيل فى مقايضة العدد الكبير ده بعشرة إسرائيليين بس، منهم الجاسوس لوتز، أد إيه ؟ »

ـ الرائد صلاح: « عارف يا فندم . بس عارف زى ما سيادتك عارف إن رجالة مصر حيرجعولها تانى وكمان طعم كبير إحنا محضرينه للعدو خلال السنوات الجاية حيستوى هناك على أرضهم » .

ـ الرئيس جمال: « نجاح الطعم ده حيعتمد على سريته يا صلاح » .

الجاسوس ٢٨٨

نجيب فرج



رواية

الجاسوس ٣٨٨

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ ـ يوليو ٢٠٠٨م



٩ شارع السعادة ـ أبراج عثمان ـ روكسى ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٤٥٠١٢٢٨ ـ ٢٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٢٥٦٥٩٣٩

المكتبة: ٢ شارع البورصة الجديدة ـ قصر النيل ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٣٩٢٨٠٧١ ـ ٢٣٩١٣٠٧٢

Email: <shoroukintl @ hotmail.com >
< shoroukintl @ yahoo.com >

رواية

الجاسوس ٣٨٨

قصة واقعية دارت أحداثها فى ستينيات القرن الماضى
حيث الحرب الصامتة.. الحرب الباردة.. مع شىء من الخيال

عبد الله يسرى



البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

يسرى ، عبد الله .

رواية الجاسوس ٣٨٨ . عبد الله يسرى .

ط١ . ـ القاهرة : مكتبة الشروق الدولية ، ٢٠٠٨م

٢٣٢ص ؛ ١٤ × ٢٠سم .

تدمك 7 - 25 - 6278 -977 - 978

١ – المسرحيات العربية .

٢ ـ المسرحيات التاريخية . ٨١٢

أ . العنوان .

رقم الإيداع ١٤١٩١ / ٢٠٠٨م

I.S.B.N. - 978- 977- 6278 - 25 - 7 الترقيم الدولى

إهداء

إلى سمير ناجى، وكل من ساعدنى فى إتمام هذا العمل،

الذى حرصت على تقصى الحقيقة من مصادرها الموثوقة التى خاضت التجربة وعاشتها.

وإلى روح الكاتب الكبير صالح مرسى .

عبد الله يسرى

الفهـرس

الموضـــــوع	الصفحة

الصفحة **المـــوضـــوع**

المقدمة

تل أبيب ١٩٧٢م

في حديقة الڤيلا التى استقر فيها يوهان ڤولڤجانج لوتز، جلس متمدداً على أريكة وأمامه نسخة من صحيفتي هآرتس و معاريف، و مياه حمام السباحة تلمع بقوة تحت أشعة الشمس، و شريط الذكريات يلوح بقوة فى ذاكرته لسنوات مضت مليئة بالأحداث . .

المذياع يشق الهدوء بصوت دقات بج بن : سيداتى وسادتى السلام عليكم ورحمة الله . . نشرة الأخبار من B.B.C لندن، يقرؤها عليكم ماجد سرحان :ـ

ـ «القوات المصرية تقوم بتحركات أمام خط برليف المواجه للقوات الإسرائيلية فى قناة السويس .

ـ الرئيس السورى حافظ الأسد يستقبل الرئيس المصرى أنور السادات فى زيارة سريعة لدمشق .

وأخبار أخرى، وإلى حضراتكم التفاصيل من B.B.C» .

يتصاعد وقع خطوات صرُّوف الخادم، حتى إذا وصل إلى سيدهِ لوتز ناداه : «سيدى لقد حضر الضيفان» .

لوتز: «اسكت، انتظر لحظة».

وأخذ يركز و يصغى إلى المذياع معلقًا: «أشعر بالقلق من هذه الزيارة الغريبة للسادات لسوريا! لماذا فى هذا الوقت بالذات؟ هذا الرجل يُثير حفيظتى بتصرفاته غير المتوقعة..».

صرُّوف: «هل أجعل الضيفين ينتظران سيدى فى المكتب»؟

لوتز: «هل تأكدت من أنهما أنتونى ماسترز وجيرمى روبنسون»؟

صرُّوف: «نعم هما، وهما ينتظرانك فى البهو».

لوتز: «أدخلهما فى المكتب و سآتى حالاً.. و لا تنس الضيافة، شاى مع إنجلش كيك، هذا ما يفضله الإنجليز فى هذا الوقت..».

صرُّوف: «حسنًا سيدى»

لوتز: «انتظر.. هل مازلت مستمراً فى دروس اللغة العبرية»؟

صرُّوف: «نعم و لكن..»

لوتز: «لا أريد أن أسمع منك هذه اللهجة الركيكة للعبرية مرة أخرى.. فهى لغتك الأم حتى ولو كنت يهوديًا مصريًا».

أشار صرُّوف برأسه متمتمًا بتأفف وانصرف بخطوات واسعة.. وخلفه لوتز بعد أن أشعل سيجارة وأخذ منها عدة أنفاس، استمع خلالها إلى نهاية النشرة الإخبارية.

دخل لوتز وصافح ضيفيه قائلاً: «تفضلا بالجلوس، لقد أتيتما فى الموعد المحدد بالضبط بتوقيتنا وليس توقيت جرينيتش.. ها ها ها..»

روبنسون: «كما وصفتك الجارديان سيد لوتز، ذكى و دائم الابتسامة. .»

لوتز: «شكرًا على هذه المجاملة، لكن ليس كل ما ذكرته الجارديان أو غيرها صحيحًا. . هناك مبالغات وأكاذيب كثيرة لفقتها لى وسائل الإعلام العالمية وحكايات ليس لها أساس من الصحة؛ ولهذا أردت نشر مذكراتى من خلال دار النشر التى تملكانها فى لندن».

روبنسون: «هذا من دواعى سرورنا سيد لوتز، فجميعنا متعطشون لقراءة مذكراتك خاصة عندما قُبض عليك فى مصر كجاسوس، يقولون إنك كنت صديق ناصر وكنتما تتباريان فى ركوب الخيل كصديقين حميمين. .».

لوتز: «آه آه ستعرفون كل شىء فى حينه لكنى لست متأكدًا من أن ناصر كان صديقًا لى فقد كان محاطًا بدائرة يصعب النفاذ إليها. . كنت أقرأ أخباره من خلال الأهرام وهى صحيفة رسمية هناك».

روبنسون: «أوه الأهرام. . التى يكتب فيها مستر هيكل».

و بدت علامة تعجب وانبهار مرسومة على وجه كلا الضيفين. . عندما وقف لوتز وخطا خطوات إلى النافذة وأشعل سيجارة من جديد قائلاً وهو ينظر إلى تلك المساحات الشاسعة من خلال نافذة المكتب:

«لا أحد يستطيع التكهن بالمستقبل هنا فى إسرائيل، الناس مطمئنون، لكننى أشعر بارتياب شديد. . . أوه. . على كل حال أشكركما على تعاونكما وسأذكر ذلك لكما فى مقدمة الكتاب. .».

وقف الرجلان و صافحا لوتز باهتمام شديد وقالا: «نحن فى انتظار

المسودات فى أقرب فرصة».

صرُّوف يعود بعد أن أوصل الضيفين إلى غرفة المكتب ويأخذ فى لملمة بقايا الإنجلش كيك من على الطاولة وهو ينظر فى نفس الوقت إلى السيد لوتز الذى سأله قائلاً: «هل تأكدت من انصراف الضيفين».

صرُّوف: «نعم سيدى لقد ركبا أمامى السيارة».

لوتز: «هل كان فى انتظارهما سائق»؟

صرُّوف متعجبًا من السؤال: «نعم كان السائق داخل السيارة».

لوتز: «ما هى ملامحه؟ هل لاحظت شيئًا غريبًا؟».

صرُّوف: «لا يا سيدى، سوى أنه كان يلبس قبعة سائقى التاكسى».

لوتز بتأفف: «حسنًا انصرف ولا تنس دروس العبرية يا نصف يهودى.. انتظر، أحضر لى المذياع وضع المؤشر على «صوت إسرائيل».

صرُّوف يغادر المكتب متمتمًا بصوت خافت: «نصف يهودى؟! أيها اليهودى الألمانى الحقير. أنت أيها النازى تصفنى بذلك..».

بعد مرور ستة أشهر..

«صباح الخير سيد لوتز لقد أتيتُ فى الوقت المحدد.. أنا بيتر جينجز من شبكة N.B.C الأمريكية».

لوتز: «أهلاً بك تفضل بالجلوس».

جينجز : «بعد إذنك سنأخذ هذا الركن وستكون هذه هى خلفيتنا فى التصوير»

لوتز : «كما تريد يا عزيزى» .

أخذ فريق العمل يحضرُ ويعدُّ المكان الذى سيجلس فيه السيد لوتز ، فيما جلس جينجز مع لوتز يتحدثان عن الوضع السياسى الراهن ، وعن الاستعدادات الإسرائيلية القوية ، والترسانة التى تملكها و غير الموجودة فى منطقة الشرق الأوسط .

المصور ينظر إلى جينجز مشيراً له بوضع الاستعداد للتصوير .

جينجز يشير إلى لوتز بالجلوس هنا ويقول : «ألا يوجد لديك زجاجات شمبانيا»؟

لوتز يضحك قائلاً : «أوه لماذا هل تريد أن نحتسى نخبًا قبل التصوير»؟

جينجز : «هذا سيكون بعد تسجيل كامل الحلقات ، ولكنى أريد وضعها بجانبك على هذه الطاولة . . إنها كما أعتقد التميمة التى صاحبتك خلال سنوات عمرك ، حتى إنك وصفت نفسك فى مذكراتك بجاسوس الشمبانيا» .

لوتز : «هذا صحيح . ليكن ما أردت» .

وأشار إلى صرُوف بإحضار زجاجات الشمبانيا فى فخر وأعاد نظره إلى الكاميرا وإلى جينجز الذى أخذ يراجع الأسئلة التى كتبها فى الأوراق التى فى يده» .

٣ ، ٢ ، ١

جينجز : «أهلا بكم أيها السادة . اليوم نقلب فى ذكريات الرجل الذى

صـدرت لـه منذ أسـابيع مـذكـراته، والـذى ارتبطـت بـه أحـدث قـصص الجـاسـوسـيـة فى بؤرة التـوتـر المسـتـمـرة، «الشـرق الأوسط». «جـاسـوس الشمبانيا» هو عنوان كتاب السيد يوهان ڤولڤجانج لوتز الجاسوس الإسرائيلى الذى عاش فى مصر منذ عام ١٩٦٠ إلى ١٩٦٨ قضى منها زهاء سنتين فى السجن هناك. . أهلاً بك سيد لوتز وها أنت تبدو بصحة جيدة».

لوتز مبتسمًا: «أوه نعم. شكراً لك يا پيتر على هذه الفرصة التى تجعلنى أشعر بالفرح والسعادة؛ لأنى أحكى أحلى ذكرياتى مع الصحفى الشهير بيتر جينجز. لكن أرجوك دعنى أبدأ بطريقتى فى سرد القصة ولتكن هذه هى البداية. .».



الفصـل الأول

مقهى الصيرفى - أمام باب الفتوح - القاهرة ١٩٦٠م

أصوات تتعالى فى نقاش جاد وحماسى مع صوت النراجيل المصحوب بضحكات صادرة من رجال ذى أعمار متقاربة، ، رائحة الهواء نقيّة من ملوثات السعادة وراحة البال، تتناغم بقوة مع الصوت المنبعث من الراديو الخشبى الموجود أعلى مقعد على الدُّهل أحد فتوات منطقة الحسينية. صوت عبد الحليم حافظ يدغدغ المشاعر المهيأة للالتفاف حول مشروع نهضوى تحديثى شامل، مهما بلغ الثمن، بعد سنوات عاشها الجميع تحت نير الاستعمار الأجنبى والإقطاع الظالم وفساد الملكية وعشوائية القرار.. **الأغنية كانت** «بستان الاشتراكية» ثمرة لقاء بين حليم وچاهين، الكلمات قوية، معبرة عما يريد ويحلم به على الدُّهل الذى كان ينظر إلى شاب يجلس على مقعد بجانب المقهى، يمسك فى يده جرنالاً يقرؤه بتمعن، فكّر على الدُّهل قليلاً ثم قام باتجاه ذلك الشاب الحائر ملقيًا عليه السلام وسأله من يكون؟

أجابه الشاب بأنه من سوهاج وأنه خريج آثار، وقد أتى هنا ليتمتع بكوب من الشاى فى هذا المقهى العريق الأصيل، ويُشاهد من خلاله بوابة الفتُوح؛ أحد بوابات القاهرة القديمة حيث إنها تقع أمام المقهى..

قاطعه على الدُّهل : «والأفندى بيشتغل إيه؟»

أجابه الشاب بالنفي؛ وعلل ذلك بأنه حديث التخرج ولم يجد عملاً حتى الآن، فردَّ عليه الدُّهل متعجبًا من ذلك كيف؟ إنه مؤهل عال ولم يعمل بعد، ثم قال للشاب متسائلاً: أمَّال الحكومة بتقول إن البلد فيها ٩٠٠٠ عاطل، وإنها هتشغلهم كلهم ما تروح يا أفندى قدّم ورقك ولاّ اعمل أى حاجة، أحسن من قعدتك على القهوة كده، روح قابل الريس جمال.. صدقنى حيقابلك وحيحل لك المشكلة.. ده الإيد البطالة نجسة».

يقاطعهما صوت كامل أفندى: «مساء الخير يا بهوات».

كامل أفندى موظف فى منتصف الأربعينيات، يعمل فى وزارة الداخلية فى الخفاء بجانب عمله فى مصلحة البريد ـ فرع القبة // العتبة.

ردّ عليه الدُّهل السلام وعلّق قائلاً: «إيه اللى جابك بدرى كده يا كامل أفندى؟ خير! اللهم اجعله خير! هُمّ إخواننا البعدا زقينك على حدّ ولاّ إيه؟».

نظر إليه كامل أفندى نافيًا ومتوعدًا بنظراته التى يملؤها القوة قائلاً: «وبعدين معاك يا جدع إنت، أنا عايز أشرب فنجان قهوة وألحق عمر أفندى قبل ما يقفل، عايز أجيب شوية حاجات للولاد».

سكت الجميع واتجه كلٌّ إلى مكانه فى المقهى، ثم أخذ الشاب أوراقه والجرنال وآخر بُقّ من كوب الشاى وانصرف.

على الدُّهل لم يرفع نظره عن كامل أفندى طوال جلوسه فى المقهى إلا عندما دقت ساعة القاهرة من خلال الراديو مشيرة إلى الثانية والنصف ظهرًا

موعد نشرة الأخبار وكان الخبر الأول فيها الذى قرأه المذيع صالح مهران، أن الرئيس جمال عبد الناصر يقوم اليوم بمنح الفنان عبد الحليم حافظ وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى وذلك تكريمًا له ولفنه الراقى الذى يخدم المجتمع وأهداف الثورة الاشتراكية.

على الدُّهل يعلق قائلاً: «الله عليك يا ريس يا حبيب الملايين، بقولها من قلبى والله مع إن ما يهمنيش حدّ».

كامل أفندى: «ما فيش فايدة فيك يا جدع إنت، مش ناوى تبطل تلقيح الكلام ده».

وأخذ فى الانصراف فأوقفه الدُّهل وسأله عن الحساب فتساءل كامل أفندى متعجبًا: «هوّ إنت بتشتغل هنا ولاّ إيه؟» وقام بدفع الحساب متأففًا وانصرف. وتعمَّد الدُّهل أن يُسْمِعَهُ أثناء انصرافه تلك العبارة: «والله ما أنا عارف مين اللى بيحكم مصر الريس جمال ولاّ انتم؟!».

هدأت الأمور فى المقهى وعادت أصوات النراجيل والنرد والضحكات المدوّية للروّاد.. وعاد كامل أفندى بعد شرائه بعض الأشياء من عمر أفندى إلى منزله الكائن فى حارة الخرنفش شارع خميس العدس.. ثلاث غرف وصالة صغيرة، ، غرفة له ولزوجته وغرفة لابنته وغرفة لوالديه.

دق الباب ثلاث مرات بإيقاع، وهى دقته المعروفة التى يطمئن لها أولاده، فيقومونَ بفتح الباب بسرعة، أما غير ذلك فلا يفتحون الباب إلا بعد التأكد والحذر..

زوجته أخذت أحماله قائلة: «قبضت النهارده يا كامل؟»

رد عليها: «طيب قولى إزيك، عامل إيه الأول. . أيوه ياستى قبضت، خدى حداشر جنيه أهم والخمسة الباقيين دفعتهم قسط فى عمر أفندى على الحاجات اللى جبتها وآدى كيلو مانجة ألفونس جبته بـ ١٨ قرش. . فاضل ربع جنيه معايا لبكرة علشان مصروفى؛ علبة سجاير كليوباترا بأربعة صاغ ونصف وثمن فنجان القهوة وتذكرتين أتوبيس رايح جاى. .

زوجته: «ابقى خبط على عم شحاتة جارنا، لأنه سأل عليك».

كامل أفندى: «حاضر يا ستى. . يا مسهل».

بعد أن استلقى كامل على سريره ليأخذ قسطًا من الراحة بعد عناء يوم كامل، أخذ يتقلب يمينًا ويسارًا لكن رأسه تعمل وتخطط. . هذه الحالة دائمًا ما تعتريه عندما يكون بصدد الإيقاع بأحد أو الوشاية به من خلال تقاريره السرية التى كان يتحصل من خلالها على دخل إضافى، ولكن فى نفس الوقت يتصارع ضميره مع عقله الذى يفكر ويفكر. .

قفز كامل أفندى من سريره بعد ساعة ونصف قضاها جسده فى راحة فقط؛ لأن عقله كان يفكر. . لبس رُوبه الدى شامبر وفتح الباب واتجه إلى جاره عم شحاتة هارون الذى كان يسكن أمامه لا يفصل بينهما إلا حائط.

دق الجرس ووضع يده على حلية الباب التى كانت عبارة عن نجمة داود وانتظر حتى فتح هارون قائلاً: «أهلاً يا سى كامل. اتفضل. .

جلسا فى الصالون. . فنجان القهوة يلامس شفتى كامل أفندى وهو يَهُمّ بالسؤال: «إيه الأخبار؟».

هارون: «الأخبار عندك».

ضحك كامل أفندى وأخذ يُحدث هارون عن الوضع السياسى والأمنى فى البلد، وكانت كلماته لا تخلو من تحذيرات غير مباشرة لشحاتة هارون من البقاء، وأن حياة اليهود جميعهم فى خطر . .

هارون: «أنا عارف، بس أروح فين؟ ما أقدرش أسيب مصر . . أسيب البلد اللى اتربيت فيها وأروح لهلاكى . . أسيب جيرانى وإنت يا عم كامل أفندى والست فضيلة وحكمت هانم، ، صحيح عدد كبير من اليهود هاجروا لإسرائيل وساعدتهم المنظمة اليهودية فى ده، ، بس أنا مش قادر . . يا سيدى إحنا حوالى مائة ألف، بناقص واحد . . الله مش مهاجر يا أخى!! وبعدين ده فى حالة من الحراك السياسى والنشاط الاقتصادى بتقول إن فيه خطة صح وإحنا ما شيين عليها والناس فرحانة لأن بعد سنوات من التهميش وعدم المبالاة وخصوصًا أهل الريف، دلوقت الوضع اتغير. صحيح الرشوة منتشرة وذم الناس بقت أستك . . مع إن فيه حاجة اسمها الرقابة على الأداء والعقوبة الرادعة بس برضه ما فيش فايدة . . تصدق الراجل صاحب البيت عايز ياخد خمسمائة جنيه خلو من ولد عريس جديد للشقة اللى فى آخر دور . . ».

كامل أفندى: «ماتعرفش العريس ده اسمه إيه ورقم تليفون شغله كام؟».

هارون يضحك بصوت عال: «يا أخى سيب الناس فى حالهم . . ربنا يهدينا جميعًا».

واستمر الحديث بينهما عن حال البلد والناس . . الالتزام بالتسعيرة . . تجار الذهب اليهود . . شعار زيادة الإنتاج وزيادة الاستهلاك للحكومة . . واحتمالات قيام حركة تأميم شاملة للشركات الكبيرة مثل الغزل والنسيج وشركات الدباغة .

اقتربت الساعة من التاسعة مساءً واكتست شوارع القاهرة بسحر الليل وصوت سيدة الغناء العربى . . حفلة غنائية فى حديقة الأزبكية . . حضور غفير من المصريين وبعض الجنسيات العربية . . الناس فى المقاهى يستمتعون إلى كلمات وألحان وصوت يحبونه ويتآلفون مع كل أغانيه بسرعة . من يستطيع دفع مبلغ من ٢٠ إلى خمسين يستطيع حضور حفلة الست ، ومن لا يملك إلا ثمن كوب الشاى يستطيع أيضًا الاستمتاع بالغناء ، وخاصة حفلها فى الخميس الأول من كل شهر فى أحد المقاهى الموجودة والمنتشرة فى شوارع وأحياء القاهرة .

مع كل هذا الجمال الذى يعيشه المارة فى شارع عدلى إلا أن حالة من الهدوء المخيف والترقب والحذر تشوب المكان وخاصة بالقرب من المعبد اليهودى ، أمام باب المعبد الرئيسى على الرصيف المقابل بائع جرائد . . بعده بعشرة أمتار ماسح أحذية يقف أمام عمارة فى الدور الثالث منها شقة غير مسكونة . . لكنها تفتح فقط بمعرفة حارس العمارة لدقائق معدودة فى كل شهر . . شق هذا الهدوء المخيف صوت بائع جرائد متجول يقول : «أخبار . . أهرام . . جمهورية . . اقرأ أخبار القبض على الجاسوس توماس» .

كان صوته مدويًا يصل لكل المارة ولكل ساكنى العمارات فى الشارع . . ماعدا مطعما إيطاليًا بجانب المعبد إلى اليمين ؛ لأن أبوابه من زجاج سميك

يعزل الرواد عن كل الضوضاء فى الخارج . . وفى إحدى زوايا المطعم جلسا يتبادلان الحديث الخافت وبعد دقائق انضم إليهما رجل ثالث وبدءوا فى الحديث . كان الأخير يتحدث والآخران ينصتان وكانت الطاولات المجاورة قد وضعت عليها لافتات تفيد بأنها محجوزة . .

تمام يافندم . . التقرير بعتُّه للأهرام وهينزل فى طبعة النهاردة . . صورة چان ليون توماس وقصة القبض عليه زى اللى قبله .

رد الرجل الذى بدا أنه أعلى رتبة من الرجلين الآخرين : «المخابرات المصرية تعمل بدأب لحماية الثورة والبلاد من كثير من مظاهر الاختراق ، وأكيد البوليس السرى شايف شغله برضه لكن عايزين نخفف شوية من المنافسة بينكم ، صحيح كله علشان البلد بس دى تعليمات الرئاسة . المخابرات العامة مستمرة فى تقديم خدماتها لحركات التحرر القومى فى المنطقة العربية . . وعايزين تركيز شوية على الشخصيات اللى بتزور البلد أو تنوى الإقامة فيها خلال الأيام الجاية» .

صحيح يافندم ؛ مصادرنا بتفيد بإن بديل توماس قادم . .

ممثل البوليس السرى : «حنكون أول من يلقى القبض عليه يافندم . . إحنا عنينا على العامة وعلى الكل ، عيونًا منتشرة فى كل مكان ، جرسونات ، باعة جائلين ، شحاذين ، حراس العمارات ، باعة الجرائد ، حتى المثقفين والفنانين» .

ممثل الرئاسة : «يا ريت تغيروا من المصادر دى شوية ؛ لأن ريحتكم وروايات محفوظ والسينما مش سيباكم» .

ممثل البوليس السرى: «إحنا يافندم طورنا من مصادرنا.. ميكروفوناتنا مزروعة فى تليفونات المصلحة فى المكاتب والشقق المفروشة وفى زوايا التماثيل واللوحات الفنية.. صحيح ما بتجبش شغل زى ماسح الأحذية أو الشحاذ بس إحنا بنّوع مصادرنا.. وكله فى خدمة البلد والثورة يافندم».

ممثل الرئاسة: «التعليمات واضحة.. كلٌّ فيما يخصه مع مراعاة الدقة والبعد عن التلفيق».

قاموا بعد ذلك بالانصراف واحدًا تلو الآخر.. كلٌّ اتجه فى طريق معاكس للآخر..

فى مكان لا يبعد كثيرًا عن القصر الجمهورى فى كوبرى القبة جلس الرائد صلاح يلقى نظرة سريعة على الأوراق التى فى حوزته قبل مناقشتها مع رئيسه وبعد لحظات سُمح للرائد بالدخول. رئيسه يدعى منتصر.. بشوش.. أصلع.. رموشه بيضاء وهو ما يلفت النظر إليه..

ردّ التحية وقال: «اتفضل.. إيه أخبار البلد ؟».

الرائد صلاح: «كله تمام يافندم.. ده تقرير الشئون العربية؛ اليمن، ليبيا، السعودية، الأردن، وطبعًا سوريا. وده تقرير المنظمة الصهيونية اللى زاد نشاطها فى الآونة الأخيرة بشكل ملحوظ؛ بتحاول تضغط على اليهود المصريين علشان الهجرة وبتخوفهم بالتأميم لممتلكاتهم وتعرض حالات الطرد اللى حصلت لبعض العناصر الشيوعية منهم. وده تقرير الخبراء الألمان.. شغالين بدأب فى «القاهر والظافر»، وسائل الحماية كاملة وملازماهم حتى وهمَّ فى البارات. وأخيرًا ده التقرير الثقافى.. السينما،

فيه شخصيتين عمر الشريف وليلى مراد وبرلنتى . . » يُقاطعه رئيسه منتصر قائلاً : «إيه أخبار مراتك وبنتك بخير؟» .

الرائد صلاح : «الحمد لله يافندم بخير» .

يعلّق منتصر قائلاً : «عارف يا صلاح يا ابنى أهم حاجة عندنا فى الشغلانة ديه أسرة الواحد ، ما دامت بخير ، كله يهون بعد كده» .

صلاح : «طبعًا . قدرنا إن إحنا نتجاوز كل مشاكلنا علشان أمن البلد دى مسئوليتنا وأكيد أسرة الواحد لما تكون بخير إحنا نشتغل براحة نفسية . . لإنها الجبهة الداخلية يافندم . . آه آه» .

منتصر : «ابقى تابع بنفسك تقارير الحدود والمنافذ البحرية بالذات خلال الأيام الجايَّة يا صلاح» .

«تمام يافندم» .

وختم اللقاء بمداعبات تعالت على إثرها الضحكات وسلَّم التقارير وانصرف بهدوء .

كانت هذه المقابلة كما سيكتشف الرائد صلاح فيما بعد . . تكليف مبدئى بمتابعة تحركات ورصد الجاسوس الجديد الذى كان فى طريقه إلى مصر . الرائد صلاح ضابط مخابرات متمرس . . ذكى ولَمَّاح ، وسيم ، يهوى ركوب الخيل . . حاز العديد من فرق التدريب المختلفة على الأسلحة والعمليات الخاصة خارج وداخل مصر . . ملفه ملىء بالإنجازات ، بعد كل عملية يحصل على إجازة ، يقضيها غالبًا مع أسرته . . زوجته وابنته بثينة التى كانت

تعانى منذ ولادتها ضعفًا شديدًا فى البصر . . كان هذا الأمر يحزنه كثيرًا، خاصة وأن بصرها يزداد ضعفًا مع تقدم العمر بها، وقد حاول عرضها على أبرز المتخصصين فى هذا المجال . . كلها عقاقير لا فائدة تُذكر منها . . لكنه فى نفس الوقت ما إن يتسلم عملية جديدة حتى ينسى كل شيء ولا يفكر إلا فى العمل . . وها هو القدر يُلقى فى طريقه عملية جديدة. ولكن كيف؟ وأين؟ ومتى؟ ومن؟

برلين ـ ديسمبر ١٩٦٠

أصوات وقع خيول كان من الواضح أنها تتسابق بعنف واحتراف فى ناد لركوب الخيل. الساعة الحادية عشرة ظهرًا . . نهاية السباق . . الأصواتُ تتعالى والأيدى تصفق . . رائع يا لوتز .

فى زاوية بعيدة جلس رجل أنفه مدبب وعيناه زرقاوان . . ملامحه حادة تعطى انطباعًا بالحذر والرسمية الشديدة . . كان يحمل حقيبة ونظارة لتقريب المسافات كان يراقب خلالها ذلك الفارس الفائز ذا الجماهيرية الكبيرة بين المشجعين . . ويبدو أنه كان مهتمًا بالقدر الذى يوحى بعلاقة قديمة مع ذلك الفارس . . عيناه ترتفع عن الأرض إثر وقع أقدام رجل فى منتصف الخمسينيات . . وسيم وشعره ذهبى . . يتجه نحو الطاولة التى يجلس عليها ذو الملامح النازية . .

صباح الخير، يا لها من فترة طويلة، سنة كاملة يا لوتز منذ آخر لقاء كان بيننا فى تل أبيب . . تبدو بصحة جيدة» .

لوتز: «أهلاً بك مرة أخرى ولكن هنا فى برلين يا ويهرماشت. . أو آسف. . يا ليفى».

كان هذا هو اللقاء الأول الأكثر حيوية ورسمية لهما. . حيث تبادلا عبارات محددة وأعطى ليفى الحقيبة التى بحوزته للوتز وقال له: «لقد تعبتَ كثيراً ونحن أيضًا حتى وصلنا إلى هذه المرحلة من اللعبة والبداية قريبة جدًا والأيام القادمة عليك أن تكمل ما تبقى من لعبة التخفى هذه وسننتظر اتصالك بعد شهر من الآن من ميونخ قبل سفرك. . تبقى ملحوظة أخيرة، ضع قلبك تحت قدميك ولا ترتبط بأى امرأة أكثر من ليلة واحدة».

لوتز يقهقه ضاحكًا: «أنت تعلم أننى لا أملك قلبًا يحب النساء، بل يحب الشمبانيا . . . آه أه. . ».

صوت محرك الفولكس فاجن يشق الطريق البرى الموصل إلى چنوا فى إيطاليا حيث الميناء الذى ترسو فيه الباخرة التى ستقل هذه السيارة وتتجه بها إلى ميناء الإسكندرية، وفى نفس الوقت يشعر لوتز بالتوتر والانفعال المكتوم وهو يجلس فى أحد مقاعد الدرجة الأولى لطائرة متجهة إلى ميناء القاهرة الجوى، حيث تستغرق الرحلة قرابة الساعات الست. .

«ويلكَم مستر لوتز»، قالها ضابط الجوازات وأعطى جواز السفر للسائح الألمانى الثرى الذى كان يمتهن ـ كما هو مثبت فى جواز سفره ـ مهنة تربية الخيول. تناول لوتز جواز السفر وشكر الضابط بالألمانية واستقل سيارة تاكسى إلى فندق الزهراء وطول الطريق وأيام إقامته فى القاهرة لم تفارقه الوحدة وإحساسها القاتل. . صحيح أن الحياة فى القاهرة كانت كنموذج

حى لما تعلمه ودرسه عن مصر وعن الشخصية المصرية هناك فى بلاده . . كان عليه عبء إقامة صلات اجتماعية وروابط سريعة ومنطقية فى نفس الوقت مع الناس، وبما أنه ثرى ويمتهن تربية الخيول وركوبها فكان من الطبيعى أن يكون ضمن لقائه بمدير الفندق طلب بأن يصطحبه إلى نادى الخيل بالجزيرة حيث صفوة المجتمع المصرى، وعدد كبير من ضباط سلاح الفرسان المشرف على النادى والذين سيصبحون فيما بعد أصدقاء مقربين له . . عَينهُ المدرَّبه لاحظت أثناء سيره فى شوارع القاهرة النظام الاستخباراتى «العين على العامة» بجانب ضجيج المقاهى والثرثرة التى تتبادلها الأفواه كان يرى دائمًا المدينة كلها وكأنها حيوان ناعس لكنه أرقْ .

فى الصباح الباكر كان مدير الفندق متجهًا لنادى الفروسية بالجزيرة بصحبته لوتز حيث أصرَّ على أن يذهب بهْ إلى هناك، ويعرِّفه على رئيس النادى وعدد من الشخصيات هناك، وأن يتجول به فى النادى ليشاهد الخيول والمضمار والإسطبلات . . وهناك لاحظ لوتز رجلاً أسود البشرة . . جيد المظهر يرمقه من على فرسه بالنظر فبادله النظر وابتسم وحيَّاه .

فقام الفارس بالاتجاه للوتز حتى إذا وصل إليه نزل من على الفرس وحيّاه قائلاً: «أنا يوسف العدل، لواء شرطة والرئيس الفخرى للنادى»، صافحه لوتز بحرارة وقدم نفسه وقال: «أنا أحب الخيول العربية الأصيلة وأرجو ألا تمانع فى تجوالى فى النادى حيث إن ذلك يذكرنى بإسطبلاتى وخيولى فى ألمانيا التى وصلت منها منذ عدة أيام». قام اللواء بدعوة لوتز لفنجان قهوة . . انضم خلاله عدد من الضباط الأصدقاء الذين كان يقدمهم واحدًا تلو الآخر للوتز ويقدم لوتز لهم على أنه أكبر مربٍ ومدرب خيول فى ألمانيا . .

كانت السعادة مخفيّة فى عينى لوتز فها هو الترحيب المصرى يُقرِّب الأشياء البعيـدة، وها هى مدام دانى البربرى زوجة أحد أشهر الأطباء المصريين، والتى اعتـادت إقـامة حفلات فى منزلـها من آن لآخر، ها هى تدعـوه الليلة لحفلة كوكتيل . .

دعوات تمطر لوتز كل يوم وأصدقاء جدد يُضافون لأصـدقائه ويصبحون فى فترة قصيرة أصدقاء حميمين . . كان يردُّ عليهم، بطريقته التى دُرِّب عليها، والتى تقوى صلته بهم وفى نفس الوقت تجعله يتخطى كل الحواجز . . الهدايا الكثيرة وزجاجات الشمبانيا غالية الثمن والمتوافرة فى الحفلات التى يقيمها لوتز فى منزله؛ ١٦ شارع إسماعيل محمد بالزمالك، والتى يختتمها بحفلة اليوم قبل سفره وعودته إلى ألمانيا .

مصافحة حارة يقوم بها لوتز لأصدقائه وخاصة اللواء يوسف الذى ربت على كتفيه قائلاً : «رستى، سوف نفتقدك كثيراً» .

لوتز : «أوه . . يا جنرال أنت نعم الصديق . . لا تقلق لن أستطيع الغياب طويلاً فمن يشرب من ماء النيل لا يقاوم البقاء بعيداً . . أرجوك اقبل هذه الهدية منّى، علبة سجائر فاخرة لتتذكرنى دائمًا يا صديقى» .

اللواء يوسف : «شكرًا أنت تخجلنى دائمًا بهداياك يا رستى . .»، قالها يوسف وأخذ جواز سفر لوتز ومضى معه حتى أوصله إلى سلم الطائرة بنفسه واطمأن عليه كما يطمئن الصديق على صديقه الحميم . . وتصاعد صوت أزيز المحركات، فى نفس الوقت الذى كان صوت الآلة الكاتبة ينقر آخر حرف فى رسالة سرية للغاية وعاجلة يتسلمها الرائد صلاح فى مكتبه

بمقر المخابرات العامة فيما بعد، والتى سيضطر بعد قراءتها لإشعال سيجارة وأخذ نفس عميق منها . . بعدها يتجه إلى غرفة الاجتماعات ليبدأ عملاً جديدًا كُلف به رسميًا.

فى ذلك الموقع البارز لمقهى الصيرفى فى الحسينية جلس على الدُّهل على كرسيه الذى لا يجرؤ أحد على الجلوس عليه سواه ومعه رجلان كان يحاول الإصلاح بينهما . .

«بص يا كامل أفندى: «تدِّى للراجل حقه وتبطل بلطجة ولف ودوران أحسن لَك، عيب يا أخي، عَلشان الراجل آمنلك وما أخدش عليك وصل أمانة، تخونه»، قالها الدُّهل ونظر لرد فعل كامل أفندى الذى كان عائدًا من عمله بمصلحة البريد وكان طابعه المرسوم بطابع موظفى الحكومة ظاهرًا، سواء خلال بدلته الصيفية النص كم التى كان يشتريها من عمر أفندى أو جرناله المطوى، والذى ألقى به على الطاولة وصاح بصوت عال:

«الله. ياسى على . . إحنا مش بنّا قانون وورق رسمى، خليه يقدم ورقه اللى يأكد إن له فلوس، غير كده مالوش حاجة عندى».

ردّ عليه الدُّهل: «طيب بص بقه يا جدع إنت لو ما اديتش الراجل فلوسه بالأصول، حيخدها بألف طريقة وطريقة . . واللى على راسه بطحة يحسس عليها».

محمد: «حرام عليك يا خاين . . دول عشرين جنيه».

كامل أفندى ينظر إلى الدُّهل متسائلاً: «إنت مالك يا اخى بتتدخل فى اللى مالكش فيه ليه؟».

الدُّهل : «الله هى الحتة دى مالهاش كبير ولاَّ إيه؟ إدى الراجل فلوسه وبطل افترى . . والا علشان إنت تبع الأمن خلاص . . ده حتى ما يرضيش الباشا مدير الأمن وعلى فكرة أنا ممكن أرُحْلُه بنفسى وأقول لُه، أيوه إحنا معانا الحق ومفيش حد أحسن من حد . . والله أروح مع عم محمد لحدّ الريس جمال وأشهد معاه هناك . . قلت إيه؟».

كامل أفندى بتأفف شديد: «أنا مش عارف البلاوى دى بتتحدف علينا منين يا رب، خُد، زكا عَنِّى وعن عيالى» . . .

وانصرف مسرعًا ومعلنًا سخطه وسبابه . .

الضحكات تتعالى من على الطاولة، سواء من الدُّهل أو عم محمد ويصرخ الدُّهل فجأة: «الحساب عندى يا كامل أفندى خلاص . . ناس تخاف ما تختشيش».

عم محمد: «متشكرين يا سى على، ربنا يخليك للغلابة اللى ما لهمش ضهر».

الدُّهل : «ما تقولش كده يا عم محمد . . البلد دى بلدنا وكل واحد مسئول عن الحق وعن أى حدّ يخون الأمانة . . ده حتى ما يبقاش فينا خير».

وشق صوت حليم الصمت الذى ساد المكان يغنى للفلاح اللى على الجرار والواقف قصاد لهاليب النار . . الجميع يسمع وينصت ويتوحد مع الصوت ومع الحلم.

١

أغسطس ١٩٦١ ـ باريس

أصوات تتعالى مع صدى النداء الآلى الذى يُعلن عن الاستعداد لقيام الرحلة التى يقصدها لوتز . . قطار «أورينت إكسبريس» ، عليه أولاً أن يختار الغرفة التى سيقضى فيها ساعات الرحلة قبل أن يُتمَّ مقابلة مهمة مع رئيسه ضابط الموساد الإسرائيلى على متن القطار أثناء الرحلة التى ستدوم حوالى ٧٧ ساعة ، وقعت عينه على حجرة بها فتاة طويلة القامة ، لديها عينان زرقاوان شديدتا الجمال ، شقراء من ذلك النوع الذى يفضله لوتز . . وضع حقائبه الصغيرة فى الحجرة بعد أن ألقى تحية الصباح على الفتاة وتبادلا الابتسامات ثم خرج لينجز عمله أولاً . . عمله الذى يستغرق تفكيره ليل نهار . . استغرق عمره كله ولم يعط قلبه حقه فى رحلة العناء هذه . .

اتجه لوتز للحجرة التالية وكانت فارغة . . جلس بها دقائق قليلة لوحده ، بعدها انضم إليه رجل ذو ملامح جامدة . . استمر اللقاء بينهما دقائق ظهرت علامات السرور على ملامح الرجل جرّاء ما سمعه من لوتز وما أحرزه من تقدم سواء فى قصة تخفِّيه ومَحْو ماضيه فى أوروبا وألمانيا تحديداً أو ما أحرزه من تقدم على صعيد علاقاته التى بناها فى مصر خلال الأشهر الستة الماضية . .

سلمه لوتز تقريراً مفصّلاً مصحوبًا بالصور والوثائق المهمة . . وقام الآخر بإعطائه توجيهات جديدة ومبلغًا كبيراً من المال وجهاز إرسال صغيراً ودقيقًا وجديداً من نوعه ، يُخبأ بذكاء بالغ وأعطاه أيضًا كتابًا للشفرة ، وُضع مفتاحه داخل كتاب آخر يتحدث عن تربية الخيول . . ورمق الرجل لوتز بعينيه الحادتين وقال له : «تحديد أماكن التحصين المصرية ، تحديد أهم الإنشاءات العسكرية والتحرّى بشكل كامل عن البرنامج النووى لهؤلاء المصريين . .

خاصة تلك المنطقة المسماة بالضبعة، ومعلومات عن الوصول الوشيك للطائرات والصواريخ الألمانية والأسترالية، هذه هى الأهداف المباشرة.. ابدأ عملك الجاد يا لوتز ودافع عن إسرائيل؛ لأننا نشعر بقلق حقيقى من ناصر وبرامجه التسليحية.. صحيح أننا نمتلك ما لا يمتلكه وبرنامجنا النووى يخطو خطوات ناجحة كل يوم إلا أننا نخشى تطور البرنامج المصرى وخاصة مع ناصر».

أومأ لوتز برأسه معلنًا تضامنه مع ما يسمع وقال: «حتى الآن لا توجد أى عقبات لاكتشاف صحة ما تقول.. الطريق ممهد هناك فى مصر، هناك عقبات لكنها تقليدية، أصدقائى الحمقى سيخبروننى بكل شىء.. لقاء بعض الحفلات وزجاجات الشمبانيا والأموال التى يقترضونها منى.. صحيح هى لا تعود لكنها تجعلنى محبوبًا لديهم وأجعلهم يردون الجميل لى على طريقتى».

انتهى اللقاء السرِّى فى الحجرة المجاورة سريعًا وعاد لوتز من حيث أتى؛ إلى حجرة الفتاة الشقراء التى اكتشف فيما بعد أنها من «هيلبرن» فى ألمانيا الجنوبية، وأنها بعد أن تخرَّجت فى مدرسة الفنادق السويسرية حصلت على وظيفة فى ولاية لوس أنجلوس كمساعدة مدير فى فندق كبير، وهى الآن فى إجازة لزيارة أبويها.. وعرفت هى أن لوتز مربِّى خيول وأنه يعيش فى مصر.. أرادت أن تعرف أكثر، خاصة وأن هذا الرجل قد أسرتها ملامحه لكن كان عليها النزول فى المحطة التالية «شتوتجرت» لكنها صافحته قائلة: «تسرنى رؤيتك يا لوتز أنا اسمى ڤالترود»، قبَّلَ لوتز يدها قائلاً: «علىّ أن أراك ثانية وليكن فى ميونخ وسوف أتصل بك».

مـرت عدة أيام بعـد هذا اللقـاء العابر داخل القطار بين «لوتز وڤالتـرود» وبعد وابل من الاتصالات قام بها لوتز، استجابت ڤالترود له وكان اللقاء فى ميونخ التى قضيا فيها أسبوعين معًا سيطر الحب عليهما لكن الصراع كان داخل لوتز بين الواجب والرغبة فى المتعة، بين التعليمات الموجهة له، والتى كان يجب أن يلتزم بها وبين إحساس الوحدة والعزلة التى يجب أن يقضى عليها خاصة عند عودته لمصر . . فلم يجد فرارًا من طلب ڤالترود للزواج.

و فى نزهة قاما بها فى الطرق الجبلية وخلال الحقول المنحدرة فى صعيد باڤاريا وأثناء عناق حميم وساخن بينهما لم يجد لوتز فرارًا من الاعتراف الجزئى ودون الخوض فى التفاصيل لمن ستشاركه حياته . . إذا كانت هناك خطوات متسرعة وطائشة ارتكبها لوتز فى حياته فإن هذه الخطوة هى الأقل خطورة، هكذا شعر لوتز الذى أراد بهذا الاعتراف أن يجعل ڤالترود قريبة من مسرح الجاسوسية الذى سيعيشان فيه السنوات المقبلة وينسجان العلاقات الاجتماعية حولهما، ولكن المرأة لا تحرص على كلامها أو على ملاحظاتها، وهى وإن لم تقصد وبكل براءة تكفى للإيقاع برجل بينه وبين الموت شنقًا أو رميًا بالرصاص فى أى لحظة، خطوة واحدة.

لكن لوتز حسم كل تلك الأفكار فى رأسه وقال بثقة لڤالترود: «إنك ستتزوجين برجل يعمل جاسوسًا وحياته مليئة بالمخاطر، لكنه يُحبك بصدق».

ارتسمت علامات الدهشة على وجهها للحظات . . وهمت بسؤاله . . لكنه حسم الموقف وقال: «عدينى بأن لا تسألى عن أى شىء متعلق بعملى وسأخبرك بما أريد وبطريقة غَير مباشرة،، على الأقل عندما نعود إلى مصر

فالحياة هناك مكشوفة تمامًا لأجهزة الأمن»، ضمها بقوة إلى صدره وطبع قبلة ساخنة على شفتيها . . وبقيا يستمتعان بالطبيعة فى ڤينًا، أحبت ڤالترود الخيول الجميلة لدى المدرسة الإسبانية لركوب الخيل ومن هناك سافرا إلى البحيرات الأسترالية، ومن هناك ذهبا إلى ڤينيس آخر محطات شهر العسل وطوال هذه الفترة كان لوتز يشعر بأن ڤالترود تضع على صدرها حملاً ثقيلاً تودّ الإفصاح عنه، ، حتىٰ جاءت لحظة رومانسية جمعتهما، انفجرت باكية وقالت: «وعدتك بعدم السؤال عن أى شىء متعلق بعملك لكن أسألك شيئًا مهمّا بالنسبة لى وأريد أن تخبرنى به، ما هى الدولة التى تعمل لحسابها، أخبرنى؟ هل هى إحدى بلدان الكتلة الشرقية مثل روسيا أو ألمانيا الشرقية أى من هؤلاء؟».

لوتز: «بالطبع لا لن أعمل لحساب مثل هذه البلدان ولو أعطونى ملء الأرض ذهبًا».

ڤالترود: «أنا أصدقك يا عزيزى، هذا كل ما أريد أن أعرفه».

لوتز يقول بدهاء: «لنفترض أننى أعمل لحساب ألمانيا الشرقية مثلاً ماذا كنت ستفعلين؟».

ڤالترود: «ببساطة سأتركك يا لوتز برغم حبى لك. . أنا عايشت هذه الدول الشيوعية وكم كابدت بها كثيرًا».

لوتز: «على أية حال لا تقلقى فأنا أعمل لحساب إسرائيل».

و ساد الصمت المكان وعَلَّقت ڤالترود قائلة: «أوه، هذا أفضل بكثير. أتعرف عندما كنت فى لوس أنجلوس صادقت فتاة إسرائيلية كانت لا تكف

عن الحديث بفخر عن بلدها إسرائيل . . لا بد وأن بلدها مميز وهذه المناسبة تتطلب زجاجة شمبانيا أخرى ألا تعتقد ذلك؟ لنشرب نخب إسرائيل ونخب نجاح مهمتك، مهمتنا، مهما كان هدفها».

انهمك لوتز فى شراء الهدايا الكثيرة لأصدقائه المصريين لأن وقت العودة لمصر قد حان . . خمس خلاطات كهربائية، تسع ماكينات حلاقة، اثنتى عشرة ساعة أوتوماتيكية سويسرية، ثلاثة مسجلات وقائمة كبيرة ستحتاج إلى سبع عشرة حقيبة على الأقل لحملها . . لكن الأهم البرقية التى سيرسلها لصديقه اللواء يوسف حتى يكون فى استقباله فى جمارك ميناء الإسكندرية وهو خير معين فى تسهيل خروج هذه الأشياء من الجمارك وخروج أشياء أخرى أكثر أهمية لإنجاز العمل الأساسى الموكل إليه وطبعًا دون أن يدرى أحد . . فكلها هدايا لأصدقائه المصريين.

بعد الانتهاء من شراء الهدايا اتجه لوتز لتوديع ڤالترود التى كانت متجهة إلى لوس أنجلوس لإنهاء ارتباطاتها هناك لتلحق بلوتز فى مصر، عاشا ليلة من ليالى الحب الدافئة وفى الصباح اتجه كلٌ إلى وجهته.

سبتمبر ١٩٦١ ـ القاهرة

الأضواء تنعكس على مياه النيل بشكل ساحر . . آلاف المصريين هربوا من حرارة الصيف إلى مصايف الإسكندرية وجمصة ورأس البر . . لكن الآلاف منهم لم يستطع ذلك فكان يخرج للمتنزهات فى القاهرة ليلاً . . وهذا هو النيل الساحر، ينظر إليه على الدهل من نقطة تقع فى منتصفه من

على كـوبرى قـصـر النيل . . يوزع النظر بين مـيـاه النيل المتـدفـقـة وأنوار الإعلانات على ضفافه وأعمدة الإنارة الموجودة على الكوبرى . . وقع أقدام الحنطور يقترب من أذنه ، ، وهو شارد يحتضن سياج الكوبرى كأنما يحتضن حُلمًا يراوده وحنينًا يشعر به لكنه لا يعرف لمن. بعد لحظة انتبه لصوت ينادي : «يا على اركب» .

إنه الحنطور وعلى متنه سائس ورجل ببدلة نصف كم كُحلى لكنها سوداء لمن يشعر بضعف فى بصره ليلاً ، «إنت مين؟ وعايز منى إيه؟» قالها على ونظر إلى عينى الرجل اللتين كانتا تلمعان فى ثقة وهدوء ، لم يمتلك على أمامها الخيار الثانى ، ركب وانطلق صوب مستقبل لم يكن يتوقعه أبداً فى حياته ، صوب الحلم الذى كان بداخله ولا يعرف له ملامح ، صوب الحنين لشيء يتوقعه لكنه مجهول . .

صوت مكعبات الثلج وهى تتحرك فى كأس غير ممتلئ بالماء لينبه الرائد صلاح الذى كان قد استغرق فى جلوسه بعد أسابيع من المتابعات والبحث المضنى . . وبحركة عنيفة من يده بعثر دخان السيجارة فى الهواء وانتفض واقفًا ، لقد حان عرض التقرير الكامل على رئيسه . .

وفى غرفة الاجتماعات جلس صلاح وأخذ فى مناقشة ما توصل إليه من معلومات من خلال رجال المخابرات العامة المصرية وأصدقائها المنتشرين فى العواصم الأوروبية وخاصة الصحفى يوهانس جارد الذى يعمل فى قسم التحقيقات فى مجلة «دير شبيجل» الألمانية ، وكذلك أحد مخبرى صحيفة «لوفيجارو الفرنسية ، وكذلك شلومو حَنَّه ملقِّن مسرح «حابيماه» الإسرائيلى ونصار زائيف أحد الشواذ الذين يعملون فى جمانيزيوم المَوامس ببرلين . .

اعتدل الرائد صلاح على كرسيه فى مواجهة رئيسه وبدأ فى قراءة التقرير .

الرائد صلاح : «ولد فى مدينة مانهايم عام ١٩٢١ لأب اسمه هانز كان يعمل مخرجًا مسرحيا فى مدينة برلين ثم فى مسرح بمدينة هامبورج ، والدته تُدعى هيلين ، ممثلة يهودية بارعة ، وَرِثَ عنها لوتز مهارات التمثيل وعبارات المجاملة وسرد القصص وروح الدعابَة ، عاش فى برلين واعتاد الذهاب إلى جمانيزيوم المَوامس منذ عام ١٩٣١ ، بعد انفصال أبويه بفترة قصيرة تُوفى والده وهاجر لوتز مع أمه إلى فلسطين مع انتشار النازية وتغلغلها فى ألمانيا وتوحشها المستمر بكل ما هو يهودى . عملت أمه فى مسرح «حابيماه» فى فلسطين وكانت حياتهما صعبة كما هو الحال لمهاجرى أوروبا فى تلك الفترة حيث كان الفارق كبيراً ، من بلاد متقدمة ومرفَّهة إلى بلد بدائى وحياة صعبة . التحق فى سن ال ١٢ بالمدرسة الزراعية فى بلدة «بن شيمن» وهناك كان لقاؤه الأول بالخيول . فى عام ١٩٣٧ انضم للهاجاناه(*) وكانت المهمة تأمين حافلات السلاح عند اختراقها للبلدان والقرى العربية التى كانت تطوق بلدة «بن شيمن» وحماية البلدة ليلاً باستخدام الأسلحة والخيول . ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية قام بالتطوع فى الجيش البريطانى فى فرقة الصاعقة ، وكان يجيد العبرية التى لم تكن تعرفها أمه بالإضافة إلى العربية والألمانية والإنجليزية مما أعطاه ميزات فى القوات البريطانية التى نقلته إلى هنا ، إلى مصر وشمال إفريقيا وكانت رتبته رقيب إمدادات وتموين» . هذه صورته مع شاربه الكث الثقيل الأحمر «وكان يُدعى «رَستى» ، بعد الحرب

(*) الهاجاناه : الجيش السرى للجماعات اليهودية فى فلسطين الذى عُنى بالجيل الأول للجيش والعمليات العسكرية الإسرائيلية .

احتل منصبًا إداريًا فى معمل حيفا للبترول وفى عام ١٩٤٨ اشترك فى الحرب الأولى بين العرب وإسرائيل وكانت رتبته ملازم أول فى منطقته «لاترون» وقاد معركة صغيرة مع عدد من المحترفين لتأسيس طريق «بورمارود» جنوب لاترون بهدف فتح طريق يؤدى إلى القدس. فى عام ١٩٥٦ كان قائدًا عسكريًا لسرية فى لواء مشاة برتبة رائد، استطاع من خلال حملة عسكرية أن يُسقط مدينة رفح فى «النيفيف»، وهو محب للشمبانيا بشكل كبير، وهو غير متزوج، وحياته لا تخلو من المغامرات العاطفية القصيرة. ملامحه تخدع الآخرين وتؤكد أنه ألمانى بالفعل فهو أشقر، قوى البنيان، سلوكياته وأخلاقه ألمانية صرف، خضع لبرنامج تدريبى استخباراتى وسياسى فى الفترة ما بعد ١٩٥٦ وقام خلال عدة أشهر غير معلومة على وجه التحديد بالتخفى وبتغيير مسكنه وبالسفر إلى ألمانيا بعد أن ظلت عضويته فى جمانيزيوم المَوامس مستمرة كل تلك السنوات فى برلين معللاً عودته بالظروف الصعبة فى إسرائيل، وهو عضو فى القسم الخامس عشر بعد المائة فى «روमل إفريقيا كوربس»، والذى أمضى فيه فترة الحرب العالمية الثانية كما أسلفت، لكنْ هناك شك فى ذلك بأنه كان مشتركًا فى استجوابات البى. أو. دبليو. والتى تتيح له معرفة كثير من الضباط والرتب فى الجيش البريطانى. وهناك مدة حوالى ١١ عامًا قضاها فى أستراليا تعرف فيها على الخيول وتربيتها وأصبح ثريًا من خلال هذه التجارة والسباقات التى خاضها بالخيل هناك، وكانت هذه المدة قبل العام الذى عاد فيه إلى ألمانيا مباشرة..

أخذ الرائد صلاح رشفة من كوب الماء وتابع قائلاً: «يبقى أن أشير بأن المذكور دخل إلى مصر من خلال ميناء القاهرة الجوى فى ١٤ ديسمبر العام

الماضى . . وهو منذ ذلك الوقت فى التقرير الثانى اللى أمامك يافندم مُتابع بشكل دقيق . . أصدقاؤه . . أماكنه المفضلة . . أوقات خروجه ودخوله . . كل شىء . . وإحنا فى انتظار التعليمات يافندم».

«عظيم يا صلاح . . استمر بهدوئك المعروف، عايزين نعرف الراجل ده عايز إيه بالضبط . . وإنت عارف الباقى طبعًا».

أومأ صلاح برأسه واستأذن وانصرف فى هدوء وكانت محاولة إجابة هذا السؤال الذى طرحه رئيسه هى الشغل الشاغل له بعد كل هذه المعلومات التى جمعها عن لوتز . .

مقهى الصيرفى ـ ليلاً

صوت القهوجى وهو يرحب بعباراته الخاصة بكامل أفندى وشحاتة هارون ويجلسهما على الطاولة التى اعتادا الجلوس عليها وينطلق ليحضر القهوة المضبوطة والينسون لزبائن المقهى الدائمين، صوت الإذاعة المصرية فى كل أرجاء المقهى ورائحة المعسِّل وصوت النراجيل يكاد يخنق المكان.

«والله واحشنى يا كامل أفندى بقالى كتير ما شفتكش»، نطق بها شحاتة هارون اليهودى المصرى الطيب.

كامل أفندى: «الله يخليك . . . إنت عارف بقه الشغل فى البوستة بيخلص الساعة ٤ العصر، بروَّح ساعتين أرتاح وأتغدى ولما يبقى فيه وقت، أهو بنيجى نقعد على القهوة».

شحاتة هارون: «وأخبار الدنيا معاك إيه ومشاكلك اللى ما بتخلصش مع على الدُّهل؟».

كامل أفندى: «ما تجبلناش سيرته لينط زىّ القضا المستعجل، إنما أخبارك إنت إيه؟ لسة مصمم على القعاد فى مصر، مش ناوى تغير رأيك وتهاجر لإسرائيل زى الباقى ما بيعمل».

شحاتة هارون يقول وبتنهيدة عميقة: «إيه.. أغبية ما بيفهموش.. أنا يا سى كامل من البلد دهو وحموت فيها»، ويصمت برهةً ثم يتابع «و بعدين صحيح.. أبا بقالى مدة ما شفتش على الدُّهل»، وأخذ ينادى على القهوجى ليسأله عن الدُّهل فكان الجواب المحيِّر له ولكامل أفندى بأنه لم يأت منذ ٣ أسابيع على غير العادة والناس اللى مستنياه على الترابيزة اللى جنبنا عايزينه علشان مشكلة ليهم عايزيينه يحلّها، وأمام تعجب الجميع، استمرت الأصوات تتعالى، النراجيل النرْد الراديو والصوت الدافئ الأسمر يوحِّد الأحاسيس.. صوت العندليب...

ميناء الإسكندرية ـ نوفمبر ١٩٦١

أدخنة تتصاعد فى السماء مع صوت «الويسل»[1] لتلك الباخرة التى تحاول الرسوّ، لكنَّ لنشًا بحريًا صغيرًا يقترب منها بقوة قبل أن ترسو فى رصيف الميناء ويصعد منه ستة ضباط وعدد من المساعدين على ذلك الحبل الممدود، ليستقبلهم أفراد السفينة مع مسئول النظام العام فيها.. بعد تبادل

---

(١) اسم سرينة الباخرة.

السلام اتجهوا إلى غرفة الطعام الخاصة بالدرجة الثالثة وتبعهم لوتز بشكل تلقائى وفضولى . .

كان الصوت الذى يتردد على متن السفينة يرجو المسافرين سرعة التجمع فى المطعم الرئيسى لاجتياز مرحلة التفتيش وختم الجوازات استعداداً للنزول فى الميناء . . الضباط ؛ كبيرهم مقدم ثم رائد والأربعة الآخرون نقباء . . يرتدون الزى الأبيض والأزرار والنياشين الذهبية الأنيقة الخاصة بشرطة الموانى . . سُمر البشرة ذوو شوارب والباقى من المساعدين لباسهم كاكى مهترئ كما بياداتهم بالضبط ، يقومون بحمل السجلّات التى تحوى القائمات السوداء وهى أسماء الممنوعين من دخول مصر أو المطلوبين سياسيّا أو أمنيًا أو جنائيًا .

الجميع فى غرفة الطعام ينتظر فى ظل التزاحم وحالة شبه اختناق ناتجة عن تجميع الركاب فى مكان صغير . . أحد المجندين يُعطى نموذجًا من نسختين لكل راكب لملئه يتضمن الاسْم والجنسية ورقم الجواز وعنوان المنزل والمهنة والديانة وغرض الزيارة ، وتفاصيل أخرى عن سبب الزيارة وآخر زيارة سابقة لمصر ومن يعرفك داخلها وأشياء أخرى غريبة ، بعد ملء النموذجين تضعهما فى جواز السفر الخاص بك وتقدمهما إلى المنضدة الأولى فى يد النقيب الأول الذى يقوم بفحص الأوراق ببطء وحذر والذى ربما يسألك سؤالاً تأكيديًا أو توضيحيًا ثم يوقع بالأحرف الأولى ويختم ويمررها للنقيب الثانى الذى يقوم بمراجعة المعلومات ومقارنة ما فيها بالجواز ثم يوقع بالأحرف الأولى ليتجه الورق فى المرحلة الثانية للنقيب الثالث والذى يقوم بالنظر إليك مدققًا ثم بقراءة جواز السفر الخاص بك ومطابقة

اسمك بأى اسم من الأسماء الموجودة فى السجلات التى فى حوزته ويسألك عن اسـمك ليرى إجابتك وطريقتك فى الرد، ثم تصل الأوراق إلى يد النقيب الرابع الذى بحوزته سجل خاص، من الواضح أن له أهمية خاصة، مرتب بالأحرف الهجائية كل صفحة بحرف يضم كل الأسماء التى تبدأ بنفس الحرف. . وبعد المراجعة يوقع بالأحرف الأولى ويحتفظ بالنسخة الأولى ويرسل الثانية فى جواز السفر إلى الغرفة الأخرى مع شرطى خاص ليسلم إلى يد الرائد حيث يدمغها دمغتين ويعيدها إليك أخيراً وهكذا مرّت أوراق لوتز بسلام وهدوء.

استغرقت الإجراءات نحو خمسين دقيقة، بعدها وجه مسئول النظام العام الشكر للجميع وعاد الضباط بالزورق وجاءت القاطرة لتقود الباخرة إلى الميناء ببطء فى الرصيف المقابل للجمارك. .

مع ملامسة أول لوح حديدى للباخرة للرصيف بدا الرصيف كمسرح كبير. . عمال شحن . . سائقو تاكسى . . حاملو حقائب . . مندوبو فنادق. . باعة جائلون. . وفى كل صنف من هؤلاء من يعمل على جمع المعلومات وكتابة الملاحظات والتقارير إما بأجر أو بأمر.

فى صالة الدرجة الأولى وفى كل الأرجاء كان النداء بسرعة لتوجه السيد لوتز إلى صالة الدرجة الأولى . . بدا التوتر على وجه لوتز لكنه سرعان ما طرد هذه الملامح مختصراً الطريق إلى الصالة حيث كان قبطان السفينة يحتسى الوسكى هو وضابط شرطة ومقدم ونقيبان من الجوازات، لقد بدا الجميع كمن يستريح بعد عناء دهر. .

قـائلاً: «لقـد تسلمت رسـالة من الـجنرال يوسف العـدل يطلب منى الاهتمام بك وبتسهيل كل العقبات، يبدو أنكما صديقان حميمان. . من فضلك أعطنى جواز سفرك»، واستدار نحو النقيب وبصوتٍ عالٍ: «اختم هذا بسرعة».

وقبل عودة الجواز للوتز كان السؤال الأهم يُوجَّه له «ماذا عن حقائبك هل هى فى كبينتك؟».

لوتز: «الصغير منها هناك أما الباقى ففى المخزن مع السيارة».

«اطمئن يا سيد لوتز سوف نرعاها بأنفسنا لك حتى يأتى الجنرال يوسف ولا داعٍ لإنفاق المال على أحد المخلّصين. . إن هذا سيغضب الجنرال»، بقى لوتز مبتسمًا بعد انصراف تلك الرتبة الكبيرة ومن معه. . وأثناء نزول لوتز من على ظهر السفينة، ومع دواعى الصداقة التى لها مكانتها عند المصريين، كان الأخير متجهًا نحو لوتز الذى كان يعى هذا تمامًا ويعى أيضًا بأن من هم فى منصب الجنرال يوسف الذى قضى خمسة وعشرين عامًا فى خدمة الشرطة، بعضهم قد حشدوا ثروات من خلال الرَّشاوى والمحسوبية، أمّا يوسف فلم يكن لديه وسائل رفاهية، وكان غالبًا فى ضوائق مالية، لكنه كباقى المصريين يعشق جمال عبد الناصر كما كان يعشق الملك فاروق من قبل. .

كان عناقًا حميمًا تبادلا فيه عبارات الترحيب وذلك المثل المصرى الذى قاله لوتز للجنرال «اللى يشرب من النيل لازم يرجعله تانى». .

اتجه الجميع بعد أن قام الجنرال بالتعارف بين لوتز وأصدقائه الضباط المسئولين فى الميناء، اتجهوا لشرب القهوة لحين وصول الأمتعة من على ظهر

السفينة، كان مع لوتز حقيبة صغيرة وكيس به حذاء لركوب الخيل، والذى أشار اللواء يوسف لأحد مرافقيه بحمله بدلاً من لوتز بودّ الأصدقاء وحميمية المصرين. .

بعد دقائق كانت الأمتعة متجهة إلى القاهرة فى سيارة شرطة وكان لوتز بصحبة الچنرال فى سيارته الخاصة، حيث قام أحد الضباط المرافقين بقيادة الفولكس ڤاجن الخاصة بلوتز إلى القاهرة هناك حيث يتم الاستعداد لإقامة حفلة كبيرة ترحيبًا بقدوم لوتز. .

و فى السيارة قال لوتز: «أنا متلهف جدًا للوصول إلى القاهرة اليوم».

الچنرال يوسف: «يمكنك الراحة اليوم وتذهب غدًا قبل الحفلة بعدة ساعات»، وأخرج سيجارة ليعطيها للوتز من علبة سجائره الفضية المعلَّمة بأحرف اسمه الأولى التى هى فى الحقيقة من صناعة الموساد.

لوتز: «شكرًا يا عزيزى لا بد من وصولى القاهرة اليوم . . أريد أن أرتاح قبل الحفلة بوقت كاف، وأكمل باقى الجملة فى رأسه بغير صوت أريد أن أبعث الرسالة فى السادسة وأطمئن الآخرين بأن كل شىء على ما يرام.

عاش لوتز عدة أسابيع بنفس الدأب وروح الدعابة والكرم مع أصدقائه فى القاهرة. . المزيد من الحفلات والهدايا وبحضور ڤالترود زوجته التى حضرت إلى القاهرة بعد وصوله بعدة أيام وأقامت فى الڤيلا رقم ١٦ فى شارع إسماعيل محمد بالزمالك التى يزينها الرخام من الخارج ولها حارس ذو بشرة سمراء يحتار الإنسان فى معرفة جنسيته هل هو سودانى أم مصرى من الجنوب.

استطاعت ڤالترود التأقلم بسرعة مع عالم لوتز الجديد بشخوصه وطقوسه بصخبه ليلاً وممارسة رياضة ركوب الخيل نهاراً . . تعرّفت على الچنرال يوسف العدل وعلى الچنرال عبد السلام سليمان «عبدو» الذى عاش لسنوات فى إنجلترا وأصبح خبيراً عسكريّا له أهمية خاصة عند لوتز، وتعرفت على فرانز كيسو وزوجته ناديا، والذى يعمل كممثل محلى لمانيسمان ويُعد تقارير عنهم فى السوق والاقتصاد وهو مقيم فى مصر هنا لعدة سنوات حيث تزوج بناديا وأصبحا يكونان ثنائيّا رائعاً .

وكان ضمن الألمان الذين عرفتهم «جيرهارد بوتش» أحد الضباط السابقين فى الجيش الألمانى، والذى يمتلك ڤيلا جميلة فى الهرم وحصاناً، وهو هنا بصفته مديراً محليّا لمؤسسة ألمانية كبيرة وكان يقوم بتهريب العملة إلى جانب عمله الرسمى . . وإلا لما أتى بكل هذا المال والبذخ الشديد فى حفلاته . .

وتعرفت أيضًا على اللواء فريد عثمان «رئيس أمن قواعد الصواريخ والمصانع الحربية» والعقيد حسن فكرى من أمن الدولة، وطبعًا دانى البربرى التى كانت تمطر ڤالترود بوابل من القبلات عند رؤيتها فى كل حفلة . ڤالترود تراقب لوتز وتتعلم منه كيف ينسج علاقاته ويقويّها، ، كيف يحصل على المعلومة وكيف يتأكد منها .

وفى إحدى الحفلات راقبت ڤالترود زوجها لوتز وهو يرحب بضيوفه ويقدم الكثير من الطعام الفاخر والوسكى . . واقتربت أكثر لتستمع إلى الحوار الجانبى الذى دار بينه وبين أحد ضيوفه الذى كان يشمله باهتمام زائد فى تقديم الوسكى إليه ويقول له : «آه يا عزيزى الچنرال إن ڤالترود تتوق

لرؤية الآثار المصرية والأنتيكات فأنتم لا تملكون سوى ذلك كما تعتقد ڤالترود».

الچنرال يوسف: «لا يا لوتز لأننى سأريها مصر الحديثة وإنجازات الاشتراكية العربية والتقدم التكنولوچى العالى المستوى الذى ننافس به الدنيا».

لوتز: «تجرد من حديثك هذا يا عزيزى» وببراعة شديدة وجه حديثه إلى اللواء فريد عثمان الذى كان يتحدث مع أحد الچنرالات المصريين بجانبه، وقال له أنت من النوع غير الاجتماعى.. أوه عذراً لقد قاطعت كلامًا رسميًا يدور بينكما آسف».

فريد عثمان: «لا يا رستى على الإطلاق لقد كنت أحدث عبدو عن.. حسنًا، أستطيع أن أخبرك أنت أيضًا لكن احفظ هذا بين طيات نفسك؛ حدث انفجار فى أحد المصانع الحربية ومات خمسة رجال وكل هذا كان حادثًا عرضيًا».

لوتز بسخرية: «أوه وطبعًا تعتقدون أن إسرائيل وراء ذلك».

فريد عثمان: «لا نظن ذلك، فكل المواد قادمة من خارج مصر فى صناديق قطع غيار لكن لا تقل هذا لأحد فنحن نحاول كتمان الأمر».

أومأ لوتز برأسه قائلاً: «دعونا من كل هذا ولنتجه لمزيد من الوسكى». وبدأت المجموعات فى الانقسام أكثر إلى مجموعات ثنائية واتجه لوتز هذه المرة إلى «عبدو» الچنرال.

لوتز: «إيه يا صاحبى ما الذى يجعلك شارد الذهن هكذا؟ تبدوا متعبًا من العمل والرسميات فى الآونة الأخيرة».

عبد السلام: «آه، لقد شغلونى بذهابى إلى السويس ومجيئى منها طوال الأسبوع».

لوتز: «وما الذى يجتذبهم هناك فى السويس؟».

عبد السلام: «لا شىء فكما تعلم هو مكان مهم، لقد كنا ننقل فرقة مدرعة وكنت أنا كالعادة حاضنة أطفال لمجموعة من الضباط الصغار غير الأكْفَاء».

لوتز: «حسنًا يا عبدو لتعلمنى عند بداية الحرب وسأمدك بزجاجات الوسكى لتتحمل العمل مع هؤلاء الأطفال فالحرب تريد الأكْفَاء».

عبد السلام: «إننا نمتلك من المعدات الحربية ما يجعلنا نمتلك الشرق الأوسط بأكمله، لكن ليس هذا كل شىء، فحالة الجيش والضباط مخزية، إنها الحقيقة، جمال عبد الناصر والجنرالات السامين لا يدركون ذلك، لديهم خطط روسية جديدة وأسلحة لكنهم كالأطفال يلهون بكرة.. صحيح أن الكرة جيدة لكن الأهم أن يكون الفريق يتقن اللعب.. والأهم من هذا وذاك، الروح التى هى للأسف فى الحضيض، وحتى ضباطنا المدنيون ليس لهم سلطة فى أن يقوموا بإصدار أوامر ولو بسيطة، ومفهومهم عن تكتيكات الحرب قديم وشائخ، اللعنة أعطنى المزيد من الوسكى..».

لوتز: «لا عليك يا صديقى وقام بالإشارة لأحد الجرسونات الذى كان مارقًا بصينية».

عبـد السلام: «اسـمع يا رستى لقـد خدمت فى جيش فاروق من سنين مضت قبل اختراع هذه الجمهورية الفاتنة، كل ما يسير عليه ذلك النظام هو لعق الأحذية وأمور تافهة أخرى؛ الفروسية والحرس الملكى والاستعراضات العسكرية بسيوف ملوحة كل هذا جميل، لكن كل فرد فى الشعب من الملك وحتى عامل الإسطبل يعلم بأنه ليس لدينا جيش يحارب وإنما مهرجون فى زى عسكرى، أنت يا رستى ضابط نازى ولست فى حاجة لأن أقول لك ما يعنى جيش محارب وكيف تتم إدارته وتربية قياداته من صغرهم».

لوتز: «هوِّن عليك يا صديقى، يبدو أنك متعب، خذ إجازة، ومعها هذه السيجارة».

عبد السلام: «أنا لست متعبًا بل مشمئزًا من مقوماتنا، لقد تقدمت بطلب إحالتى للمعاش للمرة الثالثة؛ لأننى أعانى عرجًا برجلى والآن يرفضون بحجة أنهم فى حاجة إلىّ فى الإدارة».

«لا تتساءل يا صديقى، صحيح أن لدينا مستشارين أجانب، من ألمانيا وروسيا ولدينا أفضل الخبراء فى العالم لتوجيهنا، أريد أن أقول لك بعد خمس دقائق من التدريب نعرف ما فى الأمر كله، إنها العقلية المصرية، انظر إلى الطيارات وصناعة الصواريخ التى يفخر بها الرئيس ويلمح بها فى خطاباته الرسمية.. لكن ماذا سنفعل بها؟».

لوتز: «ليس الكثير.. أعرف ذلك».

عبـد السلام: «الكل يعرف بخبراتنا فى المعارك، والتى يسمونها «نصر ٥٦»، لقد كنت فى سيناء ورأيت ما حدث بعينى، لقد كانت هزيمة

كـاملة وكـارثة، والآن نفكر فى إضـافـة فـرقـتـين أو ثلاث فـرق مـدرعـة وخمسمائة طائرة . . نفكر دائمًا فى الكم، لسوف ندفع الثمن غاليًا» .

لوتز : «ومتى سيكون ذلك؟» .

عبد السلام : «لن يكون الأسبوع المقبل ولا الشهر المقبل أيضًا، لكنها آتية لا محالة»، وأخذ فى الضحك والسير وهو يقول : «أنا متأكد بأنها ستأتى كما أننى متأكد من أننى سكران ولا بد من عودتى للمنزل» .

لوتز بصوت عال : «لا تأخذ الأمر بهذه الجدية وإذا حدث وأن أخرجوك لا تقلق سوف أرتب لك عملا فى أحد المؤسسات الألمانية، هذا إذا استطعت أن تعيش دون تلك النجوم الذهبية» .

عبد السلام يقف ثم يلتفت قائلاً : «ماذا تقصد؟ هل سأحتاجها فى عملى كحارس لفندق هلتون ببرلين أيها اللعين» .

ودَّع الجميع وانطلق بسيارته الچيب وكانت خطواته تظهر بقوة عرجه الذى كان بسبب إصابته بلغم فى سيناء نجا منه بأعجوبة . . وكانت عينا لوتز تتابعه بسعادة مخفية لقاء كل هذه المعلومات، انفض الجميع وعاد كلٌ إلى بيته واتجه لوتز مع ڤالترود إلى غرفة النوم وقبل أن يرد لوتز على سؤال ڤالترود عن كيف وصل إلى هذه البراعة فى استنطاق ضيوفه بهذه الأسرار، انتفض من سريره وقال لها : «عشرون دقيقة فقط وأعود إليك . . لا بد من إنجاز عملى أولاً . . رسالة أولاً ثم شفرة ثانية وأنتظر الساعة الثانية صباحًا . . ولن يستغرق الأمر طويلاً . . » .

* * *

فى قلب النيل

رائحة طمى النيل تفوح فى المكان الرطب، أصوات حشرات الليل تكسر الصمت، لكن الظلام الدامس يسيطر على كل شىء، رغم محاولاته العديدة بأن يتحسس شيئًا أو أن يرى حتى يده، مضى عليه وقت طويل لا يعرف مقداره . . يحاول تحريك رأسه الذى بدا وكأنه لم يحركه دهرًا، أنفه يلتقط خيطًا رفيعًا لرائحة غريبة . . موجودة فى ذاكرته لكنه لا يستطيع التعرف عليها . . لنقل إنها رائحة الموت فذلك المكان يستطيع المرء أن يسمع دقات قلبه الخائف الممزوج بأصوات تلك الحشرات التى هى الدليل الوحيد فى ذلك المكان على الحياة، يحاول مرة أخرى تحريك رأسه لكن الدوار يعاود ليأخذه ويلقى به فى عالم آخر.

خيط رفيع يشق ظلام الليل الذى بدأ يتلاشى شيئًا فشيئًا مع اقتراب زورق خشبى صغير عليه اثنان ملامحهما صعبة، يقترب الزورق من شاطئ تلك الجزيرة الكائنة فى وسط النيل. جزيرة هادئة، غير مسكونة إلا من بعض الزواحف والحشرات . . لكن صوت كلب يُسمع بوضوح مع نزول الرجلين إلى الشاطئ ثم ينقطع مرة أخرى، لكن نباحه كان كفيلاً بإيقاظ على من غيبوبته التى لا يعلم مداها إلا الله، قبل أن يتحسس رأسه بيديه ظهر أمامه الرجلان بوضوح شبه تام مع ضوء الكشاف الذى كان يحمله أحدهما، شعر بوخز إبرة فى وريده الأيمن بعدها بدقائق عاد إلى حالته الطبيعية، اعتدل وجلس وبدأ يسأل، أين؟ وكيف؟ ولماذا؟ ومن أنتم؟ نظر أحد الرجلين الذى بدا وكأنه صديق قديم لعلى: «اطمئن يابو حسن إنت هنا مع إخوتك، ما تقلقش من حاجة، كل حاجة ها تعرفها لكن فى وقتها، ارتاح بس الأول

وكلْ لقمـة، دى هدوم جـديدة لك، حـذاء طويل لركـوب الخـيل بنطلون مـخصص لنفسَ الغرضِ وقـميص. تناول على الطعام المعدّ له بنهم شديد وكأن ثلاثة أيام بلياليها مرّوا عليه دون طعام. . وقد كان بالفعل.

صباح اليوم التالى .. نادى الفروسية .. الجزيرة

مياه النيل تلمع تحت أشعة الشمس وعلى مساحة كبيرة من شبه جزيرة تقع فى قلب النيل، على بعد خمس دقائق بالسيارة من الزمالك كان يقع نادى الفروسية ذو البوابات الحديدية المزركشة، رواد النادى من الضباط والطبقة الأرستقراطية، وعلى غير عادة التقى لوتز وڤالترود فى هذا الصباح باللواء يوسف العدل الذى كان يدرب فرسًا عربيًا رمادى اللون يسمى «بلبل»، الحصان ملك للنادى لكنه مخصص للواء يوسف الذى يعتبر من أفضل مدربى الخيل فى مصر وكان خيّالاً بارعًا، عندما رأى يوسف لوتز نزل عن ظهر فرسه وربت على عنق الفرس ثم مشى نحو ضيفيه وقادهما إلى كراسى الخيزران ليستمتعوا بشرب القهوة هناك. .

لوتز: «أنوى أن أعرّف ڤالترود بأصدقائنا فى النادى ولكن بعد أن تأخذ درسها الأول فى ركوب الخيل. . هيا يا عزيزتى هناك مدرب يقف عند ذلك الحاجز فى انتظارك. . وسأراقب أدائك من هناك أنا ويوسف».

اتجهت ڤالترود إلى حيث ينتظر المدرِّب، وبدا وكأن لوتز حاول أن يختلى بيوسف ليعرض عليه أمرًا ما.

لوتز: «آه يا صديقى سمعت أن فى النادى مالكًا لخيول سباق مشهور يدعى على شارى يريد أن يبيع بعضًا منها وقد عرض علىَّ د. محمود رجب

فهمى الذى يحتل منصبًا كبيرًا فى وزارة الزراعة أن يأخذنى هناك، ما رأيك؟».

يوسف: «كيف ستتعامل هناك فعلى شارى لا يجيد الإنجليزية»؟.

لوتز: «لا تقلق إن الدكتور يجيدها وأنا أثق به».

هزَّ يوسف رأسه معلنًا عن تحفظ مكتوم. وفى الصباح التالى توجه لوتز مع د. محمود رجب فهمى إلى علىّ شارى فى مزرعته وتبادلا التحية باللغة العربية حتى لوتز قالها بلهجة ركيكة مؤكدًا أن هذه الكلمة هى التى يعرفها فقط مع بعض الكلمات الأخرى فى اللغة العربية، مال برأسه د. محمود إلى على شارى وقال: «هناك فحل لديك رآه السيد لوتز وقد قامت قصة حب بينه وبين ذلك الفحل فهو يحب الخيول العربية، بكم تريد بيعه؟».

على شارى: «خمسون ألف جنيه» قالها بالعربية.

د. محمود: «إنه لا يستحق أكثر من عشرين ألف جنيه، لكن بما أنك صديق لى وهذا الأجنبى الملعون الممتلئ بالمال، سأجعله يدفع لك الخمسين ألف جنيه التى طلبتها وأنا كده عامل معاك واجب كبير».

ثم التفت د. محمود إلى لوتز وقال بالإنجليزية: «هذا الرجل يريد الكثير من المال لكن لا تقلق لن أسمح له باستغلالك، اترك الأمر لى يا سيد لوتز، ولن تدفع أكثر من ستين ألفًا من الجنيهات».

لوتز قلَّب الكلام الذى سمعه من د. محمود فى رأسه وما قاله محمود لعلى شارى بالعربية التى كان يتقنها ويتظاهر باحتراف بجهله بها، ولم يكن

لديه الخيار ، قَبل أن يدفع عشرة آلاف زائدة على المبلغ الذى طلبه مالك الفرس حتى لا يَشك ولا يعرف أحد بأنه يعرف اللغة العربية ، وهكذا كانت طريقته الخاصة والمكلفة فى إخفاء ملكاته وإمكاناته غير المتوقعة ، وفى صباح اليوم التالى تقابل لوتز مع يوسف الذى بدا منشغلاً بتقديم أعضاء النادى لڤالترود ، والذين لم تقابلهم من قبل : ـ العقيد كمال حديدى رئيس كلية الشرطة العقيد حسن فكرى ـ وهو واحد من الذين أرسلوا صحبة ورد لڤالترود عند وصولها ـ الدكتور رءوف ميجالى «جرَّاح العيون» ، الشهير الذى كان بصحبته زوجته الأسترالية «وين» والتى اقتنعت بأنها قابلت لوتز هناك فى أستراليا وقامت فيما بعد بإخبار الناس بذلك ونشره .

وكان هناك خمسة فرسان من فريق القفز المصرى الدولى ، يقضون الوقت فى تدريب الخيول لفترة قصيرة وباقى الوقت يجلسون فى النوادى الرياضية دون القيام بشىء ، وفى الليل تتصاعد أدخنة الحشيش الذى يدخنونه بَشراهة بصحبة البنات اللاتى يلتقطونهن من فندق هلتون أو سميراميس . . جلس الجميع على كراسى الخيزران فى شكل دائرى كبير ، وكانت محاور اللقاء العامة حول لوتز وزوجته وبقائهما فى مصر .

العقيد حسن فكرى : «هل تنوى يا لوتز أن تستقر هنا للأبد؟» .

لوتز : إن كلمة للأبد كبيرة ومطاطة ، لكن إذا أحبت زوجتى ذلك ، فربما لبضع سنين وأيضًا إذا وافقت السلطات على ذلك أولاً » .

العقيد محسن : «ولم لا يوافقون ، إننا نحبك يا لوتز حتى إن حسين الشافعى نائب الرئيس ، جاءت سيرتك على لسانه بخير» .

لوتز: «أوه، حسين بك أرجو أن تبلغه رغبتى الشديدة لمقابلته فهذا شرف كبير لى». .

تحرك الرائد علوى غازى وهو يقول للوتز: «لقد رأيت تشكيل السباق الذى سيتم بعد الظهر، وحصانك يا رستى سوف يشترك فى السباق الخامس، هل تريدنى أن أراهن عليه؟».

لوتز: «من الممكن أن يكون أداؤه سيئًا يا علوى وأنا لا أضمن فوزه مع أن مدربه موريس وهو الأفضل».

الرائد علوى: «طبعًا إن لديه إسطبلات فى مصر الجديدة بالقرب من مضمار التدريب التابع لهيئة المدرعات، إنه مدرب مميز».

أشار لوتز برأسه موافقًا ودارت رأسه بأفكار كثيرة منها أن اختياره لذلك المدرب لم يكن مصادفة، فبعيدًا عن بعض الوحدات العسكرية فى منطقة القناة كان الجيش المصرى يركز كل أسلحته فى قاعدة ضخمة فى الصحراء بالقرب من مصر الجديدة، وأى تحرك يمكن أن تقوم به العربات المدرعة سينبع حتمًا من هذه القاعدة والمضمار الذى يدرب موريس فيه الخيل كل صباح يقع بجانب القاعدة، إضافة للبرج الخشبى المخصص للمراقبة فى المضمار البيضاوى الشكل، والذى وُضع ليشاهد ملاَّك ومدربو الخيل خيولهم وهى تتمرن.

اعتاد لوتز أن يصعد ذلك البرج ومعه منظار قوى ويشاهد الخيول وهى تتدرب ثم يلتفت قليلاً نحو اليمين ليكتشف كل شىء تقريبًا يدور فى تلك القاعدة المسلحة، وإذا كانت هناك دبابات أو مدرعات خارجة من القاعدة،

كان باستطاعته أن يرى الاتجاه الذى تسلكه وما يترتب على ذلك من استنتاجات تفى بالغرض من وجوده . . ولوتز لا ينسى كل خبراته السابقة ، خاصة من أنه كان ضابطًا نظاميًا وقائدًا لوحدات قتالية لعدة سنوات وبتدقيق بسيط يستطيع أن يحدد طبيعة المواكب وطبيعة العمليات فى القاعدة هل هى حركة عملياتية تعنى بأن وحدة من الوحدات القتالية تقوم بمناورة فعلية أم أنه مجرد تمرين ، أو بأن العربات فى الصيانة أو ما شابه ذلك .

كان لوتز قد اعتاد الذهاب مع ڤالترود إلى النادى كل يومين من الصباح الباكر إلى بعد الظهيرة ، يقابل أصدقاءه الضباط ويُوقع كل من يشاء بأساليبه السخية فى حبائله ، خاصة العقيد عمر الهادارى قائد الفرسان فى العباسية ورئيس فريق القفز الذى طلب منه لوتز بعد أن أعلمه برغبته فى شراء بعض الخيول فى القريب العاجل ، طلب منه أن يساعده فى تسهيل دخوله لمزرعة حمزة باشا للخيول والموجودة فى العباسية ؛ لأنه ليس هناك زريبة واحدة فارغة وهو حتى الآن لم يمتلك مزرعة يضع فيها هذه الخيول .

فأجابه العقيد عمر الهادارى ، بعد أن مسح على شاربه ، بالموافقة وأنه سوف يخصص لكل فرس جنديًا سايسا .

لوتز : «أشكرك ، يا صديقى لكن منطقة العباسية تعتبر منطقة عسكرية وسوف أتعرض لمضايقات عند زيارتى لخيولى فى المزرعة وسوف أطلب منك فى كل مرة اصطحابى إلى هناك وأنا آسف مقدمًا على ذلك» .

فردَّ العقيد عمر الهادى ضاحكًا : «كم أنت ألمانى الطباع يا لوتز ، أليس لديك صور جواز سفرك أنت وزوجتك ، أعطنيها وسوف يكون لك تصريح بالدخول متى شئت» .

«والآن يا لوتز عليَّ الانصراف فلدى فتاة شقراء فاتنة تنتظرنى، إلى اللقاء»، تابعته عينا لوتز التى علقت قائلة: «ما هو إلا شخص عابث متكبر».

وعلَّق لوتز قائلاً: «أوه إنه هدية هذا الصباح يا ڤالترود.. إنه صيد ثمين وأخذ يضحك بصوت عال بعد أن تأكد من عدم وجود أحد معه هو وڤالترود وقال: «زوِّدى الخطاف بالطعم وارمى الصنارة وانتظرى الصيد، وإذا كنت محظوظة فستصطادين سمكة كبيرة، فالحظ العظيم أكثر أهمية من اللواءات الجيدين».

ثم شخصا ببصريهما تجاه الأفق البعيد وإلى مستقبل يخبئ الكثير والكثير من المفاجآت.

مقهى الصيرفى- يناير ١٩٦٢

رذاذ الماء يتطاير فى الهواء أمام المقهى بأمتار قليلة بحركة منتظمة وسريعة من يد القهوجى وهو يتمتم بكلمات: «حابس حابس وعليك لابس يا بيومى الكلب، وخلى الشبشبة اللى بتعملها لينا تنفعك».

الحسد والعين أشياء موجودة والخوف منها موجود داخل كل مصرى.. صحيح إنها بتزيد كلما كان الإنسان يُغلِّب الخرافة والغيبيات على المنطق والعقل وعلى التفكير العلمى.. لكن حتى أعلى الناس درجات فى العلم يجد للحسد والعين تفسيرات علمية كمبرر للخوف منها. والمثل السائد «رزق الهبل على المجانين» بيفسر حاجات كتير منها المَيَّة اللى بتترش كل

يوم أمام المحلات أو البيوت أو البخور اللى ريحته بتفوح من المحلات أو العيادات أو البيوت وما استبعدش بعض البنوك كمان. . ويا سلام لو كان البخور جاوى وفيه حبه سوده وسط اللون الأحمر.

وكل ده كان بيحصل كل يوم فى مقهى الصيرفى فى الصباح وقبيل العصارى. . وكانت الطاولة هى تسلية كامل أفندى وشحاتة هارون اللذين اعتادا الجلوس على غير ميعاد على المقهى وتبادل الأحاديث العامة والخاصة أيضًا. . وها هو اللقاء يتكرر، المصافحة، الجلوس، طلب المشاريب والطاولة ثم يبدأ الكلام.

كامل أفندى: «والله يا شحاتة قعدتك ما تتعوضش، معرفش لو إنت هاجرت زى باقى اليهود لإسرائيل أنا هاعمل إيه؟!».

شحاتة هارون: «ما تلقحش بالكلام يا سى كامل وقول عايز تقول إيه؟!».

كامل أفندى: «ولا حاجة بس أنا خايف على شقتك لتروح فى حركة التأميم اللى بتحصل لأملاك اليهود اليومين دول. . ولاّ المنظمة الصهيونية تبعتلك حدّ يؤذيك علشان موقفك من الهجرة».

شحاتة هارون: «عمرك أطول من عمرى. . لسة إمبارح حدّ خبط عليًا الساعة ٢ بالليل وجيت أفتح لقيته سايبلى ظرف، بافتحه لقيت فيه تحذير وتنبيه بيقول: «هاجر يا شحاتة مع الفوج اللى رايح اليونان. . الاجتماع الساعة ١١ بالليل فى شيزا ـش عدلى ـ جنب المعبد يوم ١ فبراير».

كامل أفندى: «طب وحا تعمل إيه؟!».

شحاتة هارون: «ده كلام فاضي أسيب مصر وأروح لحتفى.. ما الناس شايفة إيه اللى بيحصل لليهود فى أوروبا أو حتى فى إسرائيل، أروح أبتدى حياة من أول وجديد مع واحد من إثيوبيا وواحد من روسيا وواحد من العراق.. هاتفاهم معاهم ازاى وأروح أبقى مواطن من الدرجة الثانية.. طب وعلى إيه..».

كامل أفندى: «ضربوا الأعور على عينه، قال خربانة خربانة...».

و تعالت الضحكات مع صوت النرد والنراجيل وصوت أم كلثوم الذى سما بالمكان وقاده فوق السحاب.. «أهل الهوا يا ليل».



فى قلب الليل

وقع أقدام حصان أسود جامح يتصاعد عند نقطة النهاية.. ليقف ويقفز من فوقه الفارس فى حركة تعبر عن مرونة جسديه عالية.. ويخلع القبعة متجهًا بخطى واثقة نحو اثنين من الرجال طوال القامة ذوى ملامح جادة ونظارات سوداء وشوارب كثة، تصافحوا وربت أحدهم على كتف الفارس قائلاً: «الآن حان وقت العمل فى المرحلة الثانية يا على، جاهز طبعًا بعد ثلاثة أشهر من التدريب المتواصل ولاّ إيه؟!».

رد الفارس قائلاً: «طبعًا يافندم.. إمتى حانرجع لمصر بقى، الناس وحشتنى والحته وصوت الست أم كلثوم».

رد أحدهما عليه: «قريبًا جداً بس إنت يا على يا دهلّ خلاص مُت من تلات شهور، حترجع باسم سمير حنًّا تادرس، طبعًا ديانتك مسيحى

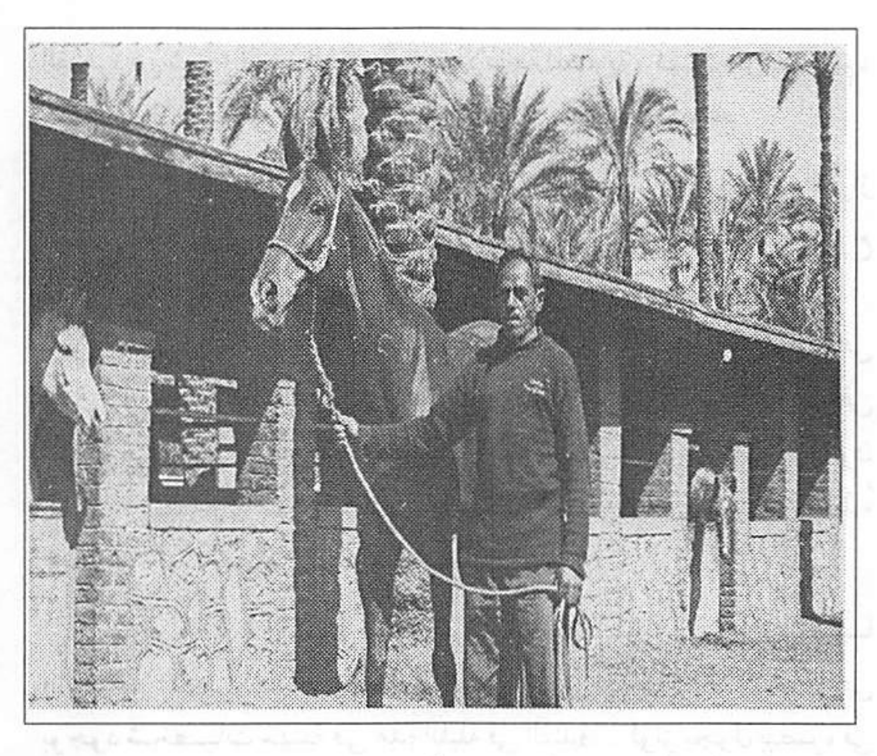
وشغلتك مدرب خيل، حتشتغل مع واحد اسمه موريس. . عنده إصطبلات خيل. . ».

رد الآخر: «برّاحة على الراجل. . واحدة واحدة حيعرف كل حاجة، ثم التفت لعلى قائلاً: «المهم إنك دلوقت يا سمير تحضر نفسك للعودة بس طبعًا. . عالم جديد، شخصية جديدة، ومجتمع جديد، يا سمير، يا سمير رحت فين؟!».

على الذُّهل: «آه، بس معلش أنا لسه ما أختش على الاسم الجديد، وكمان مش فاهم حاجة. . المهم إن إحنا قربنا نسيب الجزيرة الغريبة دى».

وراحت عيناه فى الفضاء اللامحدود أمامه المتمثل فى السماء والشمس التى تلمع أشعتها على صفحة النيل. . قضى فيها ثلاثة أشهر، تغيرت فيها ملامحه، شعره وبشرته، اعتاد فيها على ملابس مختلفة، وأصبح فارسًا يجيد التعامل مع الخيول ويعرف أنواعها وسلالاتها، وكذلك تعلم فيها إلى قدر كبير أساسيات اللغة الإنجليزية والألمانية وكذلك تعرف على بعض أجهزة التنصت والتسجيل وأجهزة الشفرة والتعامل مع أجهزة الإرسال والاستقبال اللاسلكى. . كان البرنامج التدريبى مكثفا، لكن سرعة بديهته وذاكرته ساعدتاه على الإلمام بكل ذلك فى وقت قياسى جدًا، كما أصبح راميًا ماهرًا بالمسدس وأيضًا بالآلى مع معرفته بأنواع الأسلحة الخفيفة الأخرى.

«شخصية محيِّرة. . ما بيتعبش من الشغل، مدرب ممتاز، الخيل بتتآلف معاه كأنها أولاده، تصور إنه هو اللى ولِّد الفرس اللى جت من عند الطحاوية وراح مخصوص هناك فى الشرقية لما طلبوه وجابها معاه وولِّدها



هنا فى الإسطبل بكل سهولة ، بس الحاجة الغريبة إنه بعد ثلاث سنوات متواصلة من العمل يأخذ إجازة أسبوع بس ويرجع ، على كل حال صحته رادّه ونفسه مفتوحة للشغل » ، نطق بهذه الكلمات وانصرف الحارس الخاص بمزرعة موريس الذى استدعى على الفور سمير ، ليُعلمه باختياره له مدربًا خاصًا لخيول مستر لوتز ويوصيه بأن يكون أكثر من مَجرد مدرب . . يطيع لوتز قدر استطاعته لأنه رجل سخى شديد الكرم .

بعد كل هذه الكلمات هزّ سمير رأسه موافقًا وانصرف بهدوء ليقوم بخلع ثيابه واستبدل بها ثيابا مناسبة للسهر فى ذلك الفندق الموجود فى وسط

القاهرة فى شارع قصر النيل بجانب الإذاعة المصرية، فهناك موعد مهم، وهو يحاول أن يخفى ملامحه المتوترة شيئًا ما، بسبب هذا الموعد.

ليل القاهرة الساحر.. شوارع جميلة وعمارات أجمل على الطراز الفرنسي والإيطالى، العشاق يتسامرون فى «جروبّى» ورائحة الحب تفوح منه.. إعلانات الأفلام السينمائية والأفيشات تُزين واجهات دور السينما.. نافورة كبيرة رائعة أمامها مقر الإذاعة المصرية والبورصة والجو هادئ فى فندق كوزموپوليتان الذى كان يلتقى فيه الأثرياء والخواجات العاملون فى السفارات القريبة كالسفارة الأمريكية مثلاً، يشربون الشمبانيا ويلتقون بـ... الهوى، ضباط ألمان سابقون فى الجيش النازى يحملون غطاءً اجتماعيًا جديدًا ليضمن لهم العيش بأمان فى مصر.

وعند بوابة الفندق كان هناك حرس، بعضهم يلبس زيًا رسميًا والبعض الآخر مدنيًا، يحملون تحت بزّاتهم رشاشات آلية، مما يوحى بوجود شخصيات مهمة فى هذه الليلة فى الفندق. لوتز يجول ببصره فى بهو الفندق إلى اليمين بعد اجتيازه البوابة الرئيسية حيث المدفأة التى يعلوها نسر من الرخام وعلى جانبيها كرسيان على الطراز الفرنسى، يُقال إن أحدهما كان يجلس عليه الملك فاروق فى نفس المكان، لكن هذه المرة كان يجلس عليه «ڤون ليرز» الرجل العجوز ذو الشعر الأبيض المصحوب بزرقة شاحبة مائية متناثر الخصلات، والتى تشير إلى عمره الذى بلغ عقده السابع، وسرعان ما شاهد لوتز صديقه الألمانى ڤون ليرز واتجه نحوه لكن الأخير بادره بـ: «تفضل عزيزى لوتز، وقال فى صوت مهزوز «الموت لهتلر».

ردّ لوتز: «هل سأقابل عدداً كبيراً من الأصدقاء القدامى الليلة كما وعدتني يا ڤون؟».

ڤون ليرز: «نعم، وسيزداد حنينك إلى الوطن فالليلة شبيهة بليالينا هناك فى ألمانيا».

يعلّق لوتز بخبث: «أوه وما الذى يمنعك من العودة».

ڤون: «اليهود، أجل اليهود، بدون شك سيلقون بى وبك فى السجن، وأنا أتعجب على شجاعتك يا لوتز كيف تسافر إلى هناك عدة مرات دون أن تخاف».

لوتز: «لا علينا لكن أرجوك ألا تخبر أحداً اليوم بحقيقتى يا ڤون، فكلانا كان فى نفس الجهاز لكنك معروف عنى، لقد أقسمت لى على ذلك ولذلك أجبت دعوتك الليلة».

ڤون: «لا عليك.. والآن هذا هو د. «إيسلى» سيئ السمعة، كما تعلم أو ربما لا تعلم، فهو مطلوب فى بلاد كثيرة خاصة تلك الحكومات التى تريد أن تمتلك أسلحة جرثومية».

لوتز يمدّ يده ليصافح د. إيسلى بحرارة ويتمتم بكلماته الخافتة.. فهو يعرف هذا الرجل جيداً. لقد كان طبيبًا فى معسكرات الاعتقال النازية وساهم فى إجراء تجارب علمية قاتلة على سجناء يهود وقتل منهم الآلاف.

لوتز يعود لوعيه مرة أخرى وهو يصافح باقى المدعوين ويفكر ماذا يفعل شخص كـ: «إيسلى» هنا فى مصر خاصة وأنه سمع بأنه حصل على حق اللجوء السياسى ويحظى باحترام ودعم مادى من الحكومة.

مرة أخرى يعود لوتز لوعيه وجوّ الحفلة الخاصة فى فندق كوزموپوليتان ويقوم لڤون ليرز ليدعوه إلى الجلوس بهدوء فى مكان ناء فى القاعة وبالفعل جلسا معًا فى ركن هادئ فى القاعة وسرعان ما طلبا زجاجة معتقة من الخمر وتجاذبا أطراف الحديث حتى اندمجا وأخذ يغنيان تلك الأغنية التى جعلت جميع من بالحفل ينضم إليهما فى حرارة .

عندما تطرق وتفرقع

عندها تدرك بأن ما طرقع وفرقع

كان صوت قائد الطيارة وكأنه خنزير

نريد أن نواصل الزحف

فى المقدمة يرفرف علمنا

ووسط هذا الكورال الواحد الذى ردد هذه الأغنية النازية العتيقة . . انسحب لوتز وڤون إلى ركن آخر ومعهما زجاجة الخمر المعتقة وبدأ الحديث مرة أخرى :

لوتز : «يا لها من خمر لذيذة ، تستطيع أن تجد فيها مذاق شمس جنوب ألمانيا» .

ڤون : «أجل إنها ممتازة وسط هذا الجو المليء بالذكريات ، لقد ذكرتنى هذه الأغنيــة بتلك الأيام وهذا يجعلنى أسألك يا لوتز لماذا بدا عليك الاستغراب وأنت تصافح د . إيسلى؟ ألم تقابله من قبل؟» .

لوتز : «لا ، يبدو أنه لا يُكثر تلاحمه مع الدوائر الاجتماعية فى القاهرة» .

ڤون : «أقصد فى ألمانيا، هل قابلته فى أى وقت أثناء الحرب؟».

لوتز: «لا ، فألمانيا كبيرة كما تعلم يا ڤون».

ڤون : «تمامًا وستكون أكبر من ذلك فى هذه الأيام العظام، لكن فى أى سلاح خدمت يا لوتز بالضبط؟».

لوتز: «لقد قلت لك من قبل؛ فى «إفريقيا كوربس ـ الفرقة الحادية عشرة».

ڤون : «نعم، وأحترم هذه القصة التى تقولها لكل واحد تقابله، هل تظننى رجلاً أبله، صحيح أننى بلغت من العمر أرذله لكن ذاكرتى حديدية».

لوتز: «لماذا تقول ذلك؟».

ڤون: «أوه لوتز أنت ذكى، لست فى حاجة لأن تلعب علىّ هذه اللعبة فأنا ممن تثق فيهم؟ «فوهرير» وَثِقَ فىّ، جوبلز وثق بى، لذلك لم أخُنْهم أبدًا».

لوتز: «أنا فى الحقيقة لا أعرف عما تتحدث؟»

ڤون: «أوه يا «أوبر ستور مبانفوهرير»، لن أكون الشخص الذى يفضحك يا لوتز».

لوتز: «هل قال «أوبر ستور» عنى شيئًا؟ ها هل قال شيئًا؟»

ڤون: «لا أريدك أن تعاملنى كالآخرين على أنى رجل عجوز. . أنا أتذكر وجهك جيدًا لقد تقابلنا فى مؤتمر فى «وانسى» لكننى لا أتذكر تلك البزة الرسمية السوداء التابعة لـ: «أوبر ستور» «مقدم فى ال «S.S»[٢]».

---

(٢) «S.S» هو البوليس الخاص التابع للحزب النازى.

لوتز، يُظهر علامات التعجب لكن ڤون يباغته بعباراته التى يعبر بها عن سعادته بوجوده معه فى القاهرة، فكلاهما فى موقف واحد، وكلاهما يحاول أن يخفى ماضيه حتى يعيش بأمان. . . وساد الصمت عدا صوت الكورال الذى ما زال يردد تلك الأغنية القديمة مع رائحة الخمر المعتَّق التى عمَّت المكان، ونظرات لوتز غير العادية للحضور ومزاجه الذى يحاول أن يخفيه، فقد تعكَّر بعد مشاهدته لاثنين من السفَّاحين الذين تلوثت أيديهما بدماء كثير من اليهود فى ألمانيا لكنه كان يحاول التظاهر بعكس ذلك.

لقد كانت الحفلة عبارة عن لقاء مع مجموعة من العلماء الألمان وأبرزهم «برينر» و«سكوغمان» اللذان كانا يجلسان إلى جانب البيانو وبجانبهما زجاجات البراندى والڤودكا وستينهاجر. . كان برينر بوجه منتفخ يصيح فى سكوغمان قائلاً: «وأنا أؤكد لك أن آخر تجربة كانت ناجحة»، يرفع سكوغمان يده بالكأس مرة واحدة إلى فيه، ويقول: «نعم، لكن السلطات هنا تجبرنا على الإجراءات السلحفائية وهذا غير الفنيين الذين يدَّعون أنهم مهندسون».

كان هذا الحوار قد تسلل إلى أذنى لوتز الذى استمع إليه بحرفية شديدة وتوجه على إثره لهما وقال: «هل أنتم فى شجار عائلى يا سادة؟!»، وكالعادة اخترق لوتز الحوار وأوقع بكثير من المعلومات بطريقته المعتادة فالمزيد من الخمر مع الأسئلة الذكية يجعل الرأس يفضى بما يريد.

ووسط كل ذلك كان «سمير حنًا تادرس» يجلس مع فتاة جميلة فى ركن بعيد يتبادل معها الحب بعين ويراقب بالعين الأخرى ويرصد تحركات لوتز ويتعرف وجهه وأسلوبه فى الحديث وكميات الشمبانيا التى يشربها فى مقابل

من يجلس معه ويحدثه وكذلك فى التنقل من مجموعة إلى مجموعة أخرى أثناء الحفلة، كل هذا وهو يختزل أفكاراً ومعلومات كثيرة ليبدأ لعبته الحقيقية فى غضون أيام قليلة .

* * *

فى ساعة متأخرة من الليل دخل لوتز إلى مكتبه . . وأخذ يُدوِّن تلك المعلومات التى استقاها من العلماء الألمان ومن الضباط القدامى فى الجيش النازى، ووضعها فى ظرف صغير على المنضدة فى غرفة المعيشة . . وغاب عنها لدقائق إثر نداء ڤالترود له لتناول الدواء، وعند عودته وجد خادمه يقوم بترتيب الأشياء حول المنضدة، ، فأثاره الشك وأخذ يصرخ فى خادمه ما لذى يجعلك مستيقظًا إلى هذا الوقت المتأخر من الليل . . وبحركة هستيرية انتزع الظرف من على الطاولة وأخذه إلى المكتب، هو الآن يشك فى هذا الخادم لكن ماذا يفعل هل يطرده أم يبقيه كوسيلة من وسائل التضليل التى يستعملها دائمًا، فكَّر قليلاً ثم قام بوضع الظرف فى درج المكتب وأقفله بمفتاح ونظر بهدوء نحو الباب ليتأكد من عدم وجود أحد وأخذ بإصبعيه شعرةً من رأسه ولصقها على الدرج من طرف والمكتب من طرف آخر ببراعة شديدة . . ليعود بعدها بيومين ليكتشف أن خصلة شعره ليست موجودة وبعدها أصبح على يقين بأن المخابرات العامة على علم بحقيقة وجوده، لتبدأ مرحلة أخرى من الصراع . . .

* * *

الفصل الثانى

الهرم ـ أغسطس ١٩٦٢

حى هادئ . . معظم بناياته، ڤيلات رشيقة التصميم . . غالبًا ما يكون فى مقدمتها بعد المدخل الرئيسى حديقة . . يسكن هذا الحى الفئة المحظوظة من الطبقة الوسطى . . مع أن الصمت فى بعض الأحيان يخيف، إلا أن طبيعة ساكنى هذا الحى قد ألفته كما ألف الحى الملاهى والكازينوهات الموجودة فى الشارع الممتد طولاً حتى هضبة الهرم، حديقة رادوبيس على يسار القادم من ميدان الجيزة إلى الهرم . . فيها دار عرض سينمائية وعادة ما يحب الأطفال أو الشباب الذهاب إلى هذه الحديقة تحت أشعة الشمس فى الشتاء للتزلج «بالباتيناچ» وعادة ما يكونون من شباب الجامعات الذين يأتون فى رحلات شبه منتظمة . . الفتيات يلبسن القمصان الكت والمينى چيب بحرية دون مضايقات، شعرهن مصفف بطريقة الدِّجراديه أو الاجارسون . . وبعضهن يفضلن لبس البنطلون الشارلستون القماش مع البلوزة الزاهية الألوان . . أما الفتيان فطبعًا القمصان ذات الياقة العريضة والأزرار المفتوحة من أعلى . . والشعر الكثيف ذو السوالف العريضة والبنطلون الشارلستون أيضًا . . كان التبارى بينهم فى رقص الروك أند رول ثم التزلج بالباتيناچ وعند المساء،

السينما وخاصة الأفلام الرومانسية للفتى الأسمر عبد الحليم حافظ مع إحدى نجمات السينما . . فاتن حمامة . . زبيدة ثروت . . . . نادية لطفى . . مريم فخر الدين وطبعًا . . كان أحمد رمزى وحسن يوسف نموذجًا للشباب الملىء بالحيوية والمرح .

كان للمرح ساعاته وللعمل ساعاته وللدراسة ساعاتها أيضًا ، فالجامعة المصرية كانت أشبه بالنيل الذى يفيض كل عام . . ويروى كل الأراضى حوله . . الطلبة فى كل التخصصات لديهم محاضراتهم وأساتذتهم المصريون الذين تعلموا فى الخارج فى جامعات «السوربون» و« هارفارد» و«أكسفورد» و«أخن الألمانية» وعادوا ليقدموا علومهم وخبراتهم للطلبة ، بجانب الحياة العلمية فى الجامعة هناك العمل العام . . انتخابات اتحادات الطلبة ـ التيارات السياسية ـ المتابعة الدقيقة للأخبار العالمية والقومية العربية . والبوليس السياسى إذا أراد أن يعرف ردّ فعل الرأى العام أول ما يبدأ بتقييم رد فعل الطلبة داخل الجامعات . . بجانب تلك الحياة المفعمة بالنشاط والبناء والعمل ـ كانت هناك التقارير التى تصل إلى مكاتب البوليس عن طريق مكاتب حرس الجامعات ، يقوم بكتابتها بعض الطلبة الذين تم اختيارهم بعناية فائقة مثلاً :

فى الساعة العاشرة مساء أمس اجتمع كلٌّ من فلان وفلان ومعهم فلان وفلان فى منزل فلان ، ودار الحديث حول النقاط التالية ، إضراب عمال شركة الغزل والنسيج لتأخر رواتبهم ، بعض الشائعات حول لقاءات سرية بين مسئولين مصريين وإسرائيليين ، مقال هيكل الأخير الذى يشرح قرار رئيس

الجمهورية الأخير، المنظمة اليهودية التى تقوم بعمليات الجذب لليهود المصريين للهجرة، القبض على شبكة تجسس يهودية كانت تخطط لأعمال تخريبية.

وقد لوحظ تعاطف فلان وفلان مع الاتجاه المخالف للدولة.

الإمضاء/

هذا التقرير يصل للسيِّد الضابط المسئول عن قسم الجامعات فى البوليس السياسى ليتم تكليف عدد من المخبرين بمراقبة وإحضار تلك الأسماء الموجودة فى ذلك التقرير فى الساعة الرابعة فجراً إلى المقر الرئيسى. . ولكل طرف مبرراته ذلك الضابط مبرراته؛ تنفيذ الأوامر وحماية الثورة والنظام من أعداء الداخل والخارج أيضًا. . فلكل ثورة ولكل نجاح وتقدم ثمنه ووقوده الذى لا يهمه أحد فى سبيل المصلحة العامة، أما الطلبة فالحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية والمشاركة فى الحياة العامة والعمل العام وشعارات أخرى كانوا يقرءونها فى صحف العربى والأهرام والجمهورية ويسمعونها من أساتذتهم فى الجامعات «لكن لا صوت يعلو على صوت المعركة». .

العقل لا يُحلل أو يُمحص فى النهاية، لكنه فقط يتلقى ويُنفذ. . وسائل الاتصال بالعالم الخارجى كانت الإذاعة والتليفزيون وبعض الصحف الأجنبية التى يُسمح لها بالدخول. . والويل كل الويل لمن يُضبط فى زيارة لإحدى السفارات الأجنبية حتى لو كانت طبيعة عمله تقتضى ذلك. .

لكن على أرض الواقع كان هناك تركيز على المصانع والشركات العامة والصناعات الثقيلة وكانت السينما والغناء والرواية والشعر وحتى الفن التشكيلى يعمل ويصب فى خدمة هذا الاتجاه وذلك الهدف. .

هذه الرؤية العامة كان يرقبها ويحللها عدة دوائر ـ السفارات الأجنبية الموجودة فى القاهرة ـ أجهزة المخابرات المختلفة الخارجية من خلال تحليل الصحف المصرية وتصريحات ناصر ومن خلال أيضًا العيون المزروعة داخل مصر، والتى تعيش كباقى الناس، الهموم والأحداث اليومية . . وأمام ذلك النشاط الاستخباراتى .

كان مبدأ «العين على العامة» لكل من البوليس السياسى، وكذلك المخابرات العامة المصرية، والتى كانت عينًا مغلقة باتساع . . تعمل وتتواجد فى كل الأمكنة دون أن يشعر بها أحد حتى مخبرى البوليس السياسى، والذين كانوا فى منافسة شديدة مع رجال المخابرات العامة فى الساحة الداخلية المصرية .

بعض الوسائل والآليات كالميكروفونات المزروعة فى التليفونات والأبچورات ـ حراس العمارات الكبيرة فى وسط البلد والبوابين لعمارات وڤيلات الزمالك وجاردن سيتى، وماسحو الأحذية فى الميادين والشوارع العامة، بعضها كان معروفًا لدى الجواسيس والعملاء فى الداخل . . لكنها كانت لعبة مسلية لكلا الطرفين . . لكن حىّ الهرم كان حيًا هادئًا نسبيًا لذلك اتجه لوتز وڤالترود للبحث عن سكن هادئ ومناسب يستوعب الحفلات الكثيرة لأصدقاء لوتز ويكون بعيدًا عن مسرح الصراع الخفى الذى يراه جيدًا ويشعر به فى وسط القاهرة أو الزمالك وكانت ڤيلا غالب فى بداية الهرم هى السكن المناسب للوتز وزوجته .

فى منزل لوتز وقف الخادم على باب الغرفة ليُخبر لوتز بأن سيارة اللواء يوسف العدل قد حضرت وأن يوسف بيه أتى ليودعه قبل سفره . . أومأ لوتز برأسه وطلب من الخادم إنزال الحقائب إلى الأسفل، واتجه لوتز للطابق الأسفل حيث ينتظره صديقه اللواء يوسف العدل ومعه ڤالترود التى قامت بالترحيب بضيف زوجها ريثما يأتى لوتز .

لوتز : «يا عزيزى يوسف أنت مصرٌ إذن على اصطحابنا للمطار؟» .

اللواء يوسف : «بالتأكيد يا صديقى . . عيب أن تكون ضيفًا على مصر ولا يصطحبك صديقك الأول فيها إلى المطار» .

لوتز : «أوه طبعًا يا صديقى . . المهم أن تدعو لنا بالتوفيق فى هذه الرحلة التى ستطول بعض الشىء لعلاج زوجتى العزيزة ڤالترود» .

يوسف : «من ماذا يا ترى؟ آه لذلك كانت تتعرض للشمس لفترات طويلة عند الهرم» .

لوتز : «بالضبط يا يوسف . . إنها تعانى ورمًا حميمًا فى المخ وهو السبب فى سفراتى المتكررة فى فصل الربيع من كل عام . . لكنى لم أشأ أن أزعجك بذلك منذ فترة» .

يوسف : «تمنياتى لڤالترود بالشفاء . . وأرجو ألا تنسى طلبى هذه المرة يا لوتز فهو الأهم فى حياتى وسبب حزنى الذى يعترينى من وقت لآخر» .

لوتز : «طبيب تجميل لابنتك . . لا تقلق يا صديقى لم أنس ذلك مطلقًا» .

* * *

مرض ڤالترود كان عذراً مناسبًا لسفر ڤالترود المتكرر إلى أووپا . . فلم يكن من السهل على الأوروپيين أن يدخلوا ويخرجوا من مصر حيث شاءوا حيث كانت الڤيزا السياحية تصدر لمدة ثلاثة أشهر وإذا انتهت صلاحيتها وأراد الأجنبى أن يمدد هذه الفترة فإن عليه أن يتقدم للحصول على ڤيزا أخرى لخارج مصر . . هو عمل روتينى لكنه مهم من الناحية الأمنية للمصريين لكن يوسف، صديق لوتز بالطبع، لم يكن ليترك صديقه يُعانى هذه المشكلة حيث استطاع من خلال علاقاته كضابط كبير فى وزارة الداخلية من استصدار إقامة دائمة للوتز وزوجته عن طريق ختم جواز سفر لوتز وڤالترود كل ثلاثة شهور وإعادته مرة أخرى . .

كان لوتز قد باع حصانين عربيين أصيلين لمليونير إيطالى مغرم بالخيول العربية أثناء زيارة هذا الأخير لمصر وبعد شرائه للخيول وتلبيته لدعوة لوتز لحفل عشاء خاص بهذه المناسبة فى ڤيلا غالب بالهرم قام بدوره بدعوة لوتز وزوجته لزيارته فى روما فى قصر البارون «بارنو أنريكو دى بورتانو ڤا» حيث أرسل طائرة خاصة لتقلّ الفرَسَان ومعهما لوتز وڤالترود . .

لوتز قبل سفره هذه المرة كان مصراً على تأجير مزرعة كان يُشاهدها على طريق رملىّ تمثل منطقة مليئة بالزراعات الكثيفة ويحوطها النخيل من كل جانب . . كان موقعها إستراتيجى بالنسبة للوتز . . فهى فى منطقة معزولة من دلتا النيل على بعد حوالى عشرة أميال من القاهرة . . مليئة بالإسطبلات وبها حلقات تدريب للخيل ومضمار . . لكن أهميتها الحقيقية للوتز أكبر بكثير من ذلك . . فذات مرة فى إحدى النزهات التى كان يقوم بها لوتز وڤالترود فى تلك المنطقة قبل استئجار المزرعة، قاما بإرخاء سروج الخيل لتمشى بمحاذاة

بعضها البعض حيث إن الخيل تعرف طريقها جيداً ولا ضرر فى أن «يركب فحلاً» وبجانبه فرس، على غير الطبيعى فى بلاد الدنيا إلا هنا، فالفحل العربى يكون حسن السلوك فى صحبة الإناث من الخيل. . وفجأة دَوَّى صوت رهيب فى المكان أشبه بصوت طائرة نفاثة وهى تقلع حتى كاد لوتز يسقط من على فرسه هو وڤالترود. . عرف بعدها لوتز بأن هذا المكان يقع بالقرب من قاعدة تجريبية لإطلاق الصواريخ الواقعة بالقرب من لافتة الكيلو ٣٣ خارج طريق مصر إسكندرية الصحراوى. . لذلك صمم لوتز على استئجار هذه المزرعة بهدف معرفة مواعيد الإطلاق وكثافتها وتسجيلها بشكل دقيق.

الحظ يحالف دائمًا لوتز وڤالترود. . مع قليل من طيبة ووفاء المصريين وكثير من التخطيط والقراءة الناجحة للوتز لمجريات الأحداث ولما يحدث حوله.

* * *

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فى القاهرة. . هدوء شديد فى مبنى المخابرات العامة فى كوبرى القبة، الجميع موجود ويعمل وكأنها الواحدة ظهرًا. . ملامح جادة. . رشيقة. . بعضها ملفت للانتباه والبعض الآخر لا يلفت أدنى انتباهك لو مرّ من أمامك. . كانت خطواته ثابتة ومستقيمة وهو متجه إلى مكتبه ومعه أوراق جديدة خاصة بالملف الموضوع على مكتبه منذ عدة أشهر، والذى يحمل اسم «لوتز».

جلس الرائد صلاح على مكتبه وأشعل سيجارته المعتادة بعد أن احتضنت أصابعه فنجان القهوة التركى وأخذ الرشفة الأولى. . نفث الدخان فى اتجاه

النافذة وألف فكرة تدور فى رأسه، هل يترك لوتز يعمل على مرأى ومسمع من المخابرات، يحصل على معلومات ويوقع فى شباكه كل من يتعرف عليه من ضباط ومسئولين أم هل يُلقى القبض عليه الآن وهو متجه إلى المطار قبل أن يُفلت من يديه؟ لكن الأدلة التى معه تحتاج لمزيد من الإيضاح والتفسير بالإضافة إلى أنه من الممكن الاستفادة من هذا الجاسوس لتضليل العدو، فمصر فى حالة حرب وهناك إمكانية بمدِّه من خلال أصدقائه بمعلومات مضللة تساعد مصر حتى فى إنجاح خططها خارجيًا فى اليمن والسعودية، لكن لوتز أصبح يشكل خطرًا على العلماء الألمان الذين يعملون فى برنامج الصواريخ و الطائرات، بل على البرنامج النووى ككل.

أسئلة كثيرة دارت فى رأس الرائد صلاح لكنه حسمها بعد أن كان متأكدًا من عودة لوتز مرة أخرى لمصر.. فطبيعة الجواسيس تجعلهم يخاطرون ولا يقعون أسرى للشكوك..

وفى حركة سريعة رفع سماعة التليفون قائلاً: «وصِّلنى بمكتبنا فى المطار بسرعة»، وما هى إلا ثوان وكان الطرف الثانى فى المكتب يردّ عليه قائلاً: «حاضر يافندم».

استعاد الرائد صلاح هدوءه بعد أن أعطى تعليماته بتسهيل خروج لوتز وسفره حيث كان على علم بأن اللواء يوسف العدل بصحبة لوتز لإيصاله وتقديم التسهيلات له كالمعتاد فى المطار..

أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته ثم ضغط على زر أحمر على طرف مكتبه ليظهر بعده شخص وجَّه له الرائد صلاح تعليماته قائلاً: «إدِّى إشارة لروما

بأن الضيف فى طريقه على متن طائرة خاصة لمطار روما، ويوافونا بالتقارير أولاً بأول».

«حاضر يافندم»، قالها الرجل وانصرف تاركًا الغرفة وصلاح فى صمتهما الدائم. .

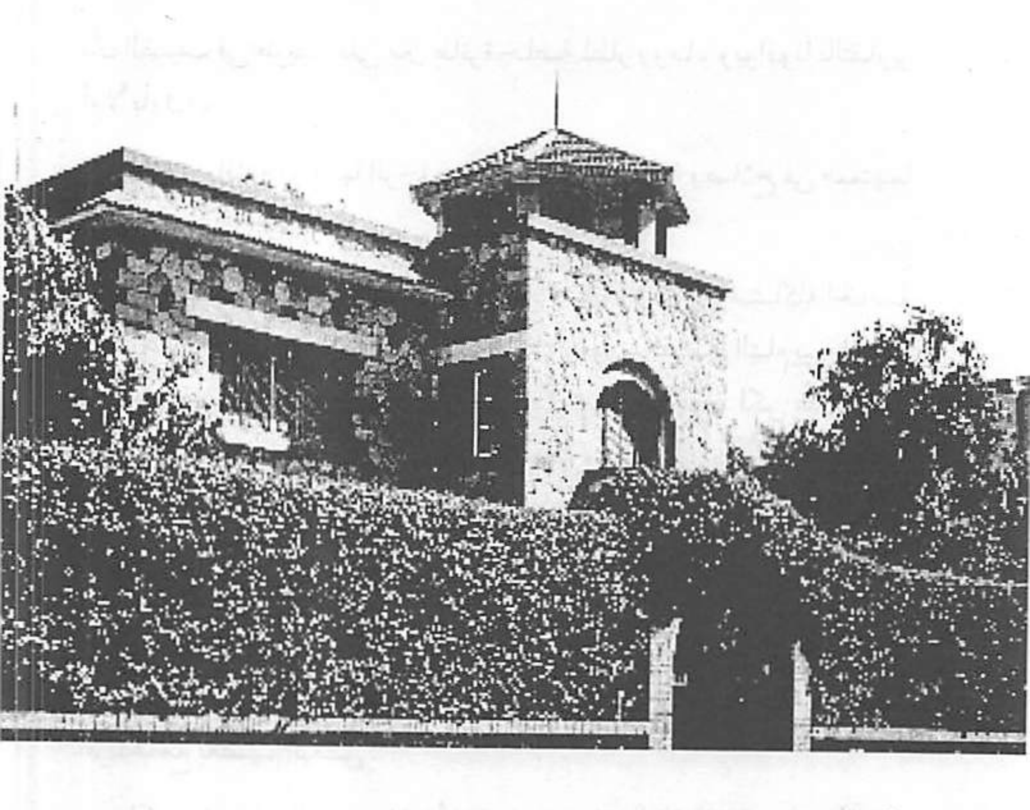
من الصعب على الإنسان أن ينفك عن حياته الأسرية ومشاكله الخاصة وقت عمله، لكن هناك نوعًا من الوظائف يتطلب الفصل التام بين الحياة الشخصية ومجرد دخول باب المكتب حيث يعمل الرجل، لكن هناك أمر لا يستطيع الرائد صلاح أن ينساه ولو للحظة وهو مرض ابنته، لذلك فهو يتعاطف كثيراً مع اللواء يوسف العدل .

* فيما عرف بمشروع «القاهر والظافر».

فى عمل المخابرات قاعدة أساسية لا تساهل ولا تراخ حتى مع أقرب الناس، لكن العسكرية المصرية تمتاز بالبعد الإنسانى خاصة عندما يتعامل أفرادها مع بعضهم البعض.

ولكن ماذا على الرائد صلاح أن يفعله . . وفى لحظة لمعت عيناه وتغيرت ملامح وجهه فجأة فى إشارة لفكرة جديدة لكنها تتطلب موافقة رئيسه هذه المرة فانتفض من على كرسيه واتجه إلى حيث تحقيق هذه الفكرة.

* * *



ڤيلا غالب ـ الهرم

جرس الباب يدق فى تتابع دون توقف، ليفتح الباب ويظهر الخادم الذى يُفاجأ بالسؤال قبل أن يوجه توبيخه لسمير حنًا تادرس، والذى باغته بـ: «إنت مين يا شوكولاته؟ أمال فين الخواجة؟»، أجابه الخادم بتذمر: «إنت مين الأول وعايز إيه من الخواجة؟».

أصدر ضحكة عالية وأزاح يد الخادم واتجه إلى المدخل وجلس ووضع

كيسًا كبيرًا فى يده على الأرض ثم قال: «واضح إنك جديد هنا، أنا مدرب الخيل فى مزرعة مستر لوتز».

الخادم: «عايز إيه ياسى المدرب إنت؟ مستر لوتز سافر وما نعرفش لفين، يالا اتكل على الله!؟».

سمير: «الله هو أنا باشحت منك يا شوكولاته، دا حته عيب عندكم تقابلوا الضيف كده فى أسوان، مش إنت برضه من هناك والا من هنا؟ إه إه إه».

الخادم: «ده تعليمات مستر لوتز إنه غير مسموح لحدّ يدخل الڤيلا إلا أصحاب الخواجة بس».

سمير: «و همًّا مين دول؟».

الخادم: «وانت مالك؟».

سمير: «على كل حال أنا جاى علشان أدى مستر لوتز الورد ده».

وأخرج من الكيس بوكيه ورد، والذى سرعان ما انتشرت رائحته فى أرجاء المكان فى نفس الوقت الذى وضع سمير قطعة قماش أخرجها من جيبه على أنفه، وما هى إلا ثوان ليقع الخادم مغشيًا عليه . .

ليبدأ سمير بالعمل الذى تدرَّب عليه وأُعدّ من أجله . .

قام بتفتيش الڤيلا بحرص ودون أن يترك أدنى أثر، وكان معه جهاز صغير زوده به رجال المخابرات . . .

كل الدلائل تشير أنه لاشىء غير طبيعى هنا فى الطابق الأول، ثم بدأ بالطابق الثانى غرفة النوم، سرير، دولاب به ملابس ومناشف وصابون

لاڤندر. كل شيء حتى الآن طبيعي، أوه هذا هو حذاء ركوب الخيل، أمسكه سمير في يده وقال: «يا ابن الكلب، دي حاجة محترمة خسارة فيك ثم أعاده مرة أخرى إلى حيث كان وفجأة ارتفع صوت الأزيز.. وهنا بدت علامة التعجب على وجهه قائلاً: «طب تيجي إزاي؟».

أخرج من جيبه جهازًا صغيراً لاسلكيّا: «من الظاهر إلى ٩ حولّ».

كان الصوت الصادر من جهاز اللاسلكي واضحًا، بإكمال البحث والمسح الكامل للغرفة وتصوير الحذاء عدة صور مختلفة الزوايا بالكاميرا الصغيرة جدًا والموجودة مع سمير حيث زوده رجال المخابرات بها أيضًا ثم إعادة كل شيء كما كان.

أنجز سمير عمله بسرعة وفي دقائق كان كل شيء كما كان وها هو باب الڤيلا يُفتح ليخرج منه سمير في هدوء، بعد أن وضع قليلاً من مادة معينة على أنف الخادم الذي أفاق بعد عدة دقائق ولم يدر ما حدث له سوى أنه أغلق الباب في وجه ذلك الضيف السخيف سمير.

* * *

«براڤو يا سمير، زي ما توقعنا جهاز الإرسال كان في كعب البوت وده في حد ذاته كفاية، بس الشفرة للأسف معرفتش توصل لها.. بقية الصور بتقول إن كل حاجة طبيعية، والا إيه؟» نطق بهذا الرائد صلاح وهو ينظر لسمير، والذي ردّ عليه قائلاً: «إنت أدرى يا بيه بس الراجل ده باين عليه عنده جلخ وموسوس، أنا أول مرة أشوف كمية صابون عند حد كده وكمان في الدولاب».

الرائد صلاح: «بتقول إيه! أد إيه؟ وريني الصور».

سكت بعض الشيء وأشار برأسه لسمير في علامة رضا واضحة وهو يقول: «يبدو أنك حتكرر زيارتك تاني ياسمير، بس استنى شوية لحد ما أديك الإشارة، يبدو إن صاحبنا بيسهل علينا الموضوع ويقصر الطريق».

انصرف سمير إلى حيث يبيت في المزرعة بعد أن شعر بالرضا لما صنع وبالشوق والحنين لأصدقائه ولقهوة الصيرفي.. لكن لا حيلة سوى الانتظار..

كان الطقس مائلاً للبرودة عندما أخذ لوتز معطفه وغادر الفندق تاركًا ڤالترود خلفه ونزل إلى الشارع وسار، حتى وجد ضالته، كابينة تليفون طبقًا للتعليمات التي تدرب عليها في الموساد، وضع أولاً العملات النقدية اللازمة وطلب رقمًا معينًا، وأجاب الهاتف وبعد أن ذكر شفرة معينة قيل له أن يقابل صديقا في الساعة الثالثة في مقهى «واى». كان حذرًا فهو لا يعلم ما إذا كان هناك من يتنصت عليه أو حتى يسجل له المكالمة لكن ما يعرفه بعض القواعد التي يتصرف بعدها بحرية.. فهو يأخذ حذره في كل الأوقات. التعليمات التالية هي أن يصل للمكان المحدد في الوقت المتفق عليه وينتظر ثلاث دقائق بالضبط وإذا فشل أحد الطرفين خلال الدقائق الثلاث فإن المقابلة ستتم في مكان آخر محدد مسبقًا، أما إذا راوده الشك في أن هناك من يتعقب الخطى فلا بد من الاختفاء تمامًا.

وصل لوتز للمكان المحدد وبعد أن تناول كأس «برنوده» إذا بشخص يقف أمامه، ردّ التحية وجلسا لمدة قليلة ثم اتجها لمقابلة رئيسهما، «جلعاد» ـ

رجل الموساد وبعد أيام مكثفة من استخلاص المعلومات والتقارير كان سرور الموساد بعمل لوتز وحجم وكيف المعلومات التى ذكرها بالتفصيل عن القواعد الخاصة بالصواريخ وبدأت الأسئلة تُطرح من الطرفين :

جلعاد : «لقد التقطنا صورة هوائية لذلك المطار الوهمى بالقرب من طريق مصر إسكندرية الصحراوى» .

لوتز : «وهمى؟ إنه ليس وهميّا ، إن لديهم طائرات حقيقية فعلاً وأنا أسمع أزيز المحركات وأحيانًا أراها من مزرعتى التى أخبرتك بشأنها» .

جلعاد : «هذا محال! لماذا يستعرض المصريون بطائراتهم هناك فى خطين مستقيمين إلا إذا كان السبب هو أن نلاحظهم ، لا بد أنهم أغبياء» .

بدأ الحوار يأخذ طابع الحدة فى رد لوتز : «أؤكد لك بأنهم ليسوا كما تظن ، لدى صديق فى سلاح الطيران دعانى وكنت على مقربة من هناك ، صدّقنى إنها ليست وهمية» .

جلعاد : «يبدو أنك مقتنع برأيك ، لكن قل لى هذه الصورة التى لا أحبها لك يا لوتز ، هل فقدت صوابك؟» .

وألقى على الطاولة نسخة من مجلة ألمانية مختصة بالخيل اسمها «ريتر ريڤيو» بها صورة للوتز وهو على ظهر حصان بعد فوزه بسباق ، كان جلعاد يخاف من أن يتعرف أحد صورة لوتز فى إسرائيل ومن ثم تنتهى اللعبة ، حاول لوتز شرح الموقف وبعد مساجلة كلامية بينهما هدأت حدّة الحوار وطلب لوتز إجازة يقضيها مع زوجته قبل عودته التى أصبحت وشيكة إلى مصر وطلب أيضًا المزيد من المال الكافى لشراء هدايا أصدقائه الضباط . .

وكانت التعليمات النهائية تقضى بأن يحصل لوتز على تفاصيل عن المساعدين والذين سيذهبون للعمل مع كارل كنابفر الرئيس الجديد لبرنامج توجيه الصواريخ فأشار لوتز برأسه وقبل أن ينصرف طلب جلعاد منه قائلاً: «إن الجواسيس يستقلون الطائرات، والناس المحترمون يركبون السفن».

لوتز بتمهل: «يا جلعاد ليس من الطبيعى أن أسافر بالطائرة وأعود بالسفينة، اتركلى مساحة تحرك».

جلعاد: «أتعرف، هناك قصة أريد أن أحكيها لك، عندما كان هناك نقاش بينى وبين أحد العملاء على غطاء جديد غير تقليدى لأحد الجواسيس اقترح قائلاً: «لماذا لا نفعل مثل لوتز النازى الحقير ونشترى مزرعة خيول فكل الضباط المصريين من ذوى الرتب العالية والمسئولين يجتمعون فى مزرعته تلك اللعينة وكلهم مغرمون به، فأجبته بهدوء: «أوه لا لا، من يريد أن ينخرط فى عالم الخيل؟! لدينا ما يشغلنا من المشاكل مع المصريين».

وهنا تعالت الضحكات بينهما، وألقى لوتز السلام على جلعاد وانصرف وغادر باريس مع ڤالترود إلى مدينة تريست فى أوسونيا ثم إلى ميناء ڤينيس ذلك المكان الذى ارتبطا به قبل زواجهما.. ثم عادا بعد ذلك إلى مطار روما ليستقلا طائرتهما إلى القاهرة وهناك عند بوابات صالة السفر شاهد لوتز سيارتين مرسيدس بهما شخصان ملامحهما ألمانية، أحدهما معه زوجته وطفلان، أما الآخر فبمفرده. شاءت الأقدار أن يلتقى لوتز بأحدهما أثناء انتظار الطائرة ودار بينهما حوار عرف لوتز أنه مهندس كهربائى، يدعى إيريك تروم وأنه ذاهب للعمل مع الحكومة المصرية وبعد نظرات شك حسمها لوتز بإعطاء إيريك «كارته»، قام الآخر بإعطاء لوتز «كارته» الشخصى وعليه

رقم تليفونه الجديد فى مكان إقامته . . وبعد الوصول بعدة أيام ذهب لوتز إلى كنابفر لاحتساء الشاى وتوطيد علاقته بهذا الرجل الذى أصبح المسئول الأول عن برنامج الصواريخ المصرى، وحدث أن لاحظت زوجة كنابفر أزرار قميص لوتز مكتوب عليها الحروف الأولى للوتز فأعجبت بذلك وكان هذا سببًا فى اصطحاب لوتز لها إلى الموسكى لشراء أزرار مماثلة للسيد كنابفر وبدأت العلاقة تتوطد يومًا بعد يوم وذات يوم سألها لوتز : «أتدرين لقد تقابلت فى طريق الرجعة فى المطار بأحد أصدقاء زوجك» .

فأجابته : «أوه أتقصد تروم وإيبهارد؟ إنهما يسكنان فى آخر الشارع الذى نسكن فيه فى مدينة نصر وسيكونان كبيرى مساعدى كارل» . واسترسلت فى حديثها عنهما للوتز وهو يبتسم ويستمع لكل شىء فى هدوء .

* * *

فبراير ١٩٦٣ ـ القاهرة

ستة أشهر كاملة قضاها لوتز وڤالترود فى أوروبا، لكن كأنه فى القاهرة فهو تحت عين المخابرات المصرية العامة . من السهل أن تخدع شخصًا لكن من الصعب أن تبقى للأبد فى هذه الخديعة، هذه الحكمة كان لوتز يرددها فى نفسه، ومنذ أن وطأت قدماه مطار القاهرة وهو يشعر بداخله بخيط رفيع من التوجس والقلق، لكنها حياة الجواسيس؛ يؤدى عمله المطلوب بحذر دون أن يدع للشكوك مجالاً إلى عقله، لكنها الحاسة السادسة لدى الجواسيس ولدى رجال المخابرات أيضًا .

* * *

لوتز هذه المرة يضع فى رأسه موضوعات أوسع من الخبراء الألمان وقواعد الصواريخ المتضمنة لوحدات التجارب ومشروع محركات الطائرات فى المصنعين وكذلك السفن الحربية فى البحر الأحمر والقوات الأساسية هناك وتحركات العربات المدرعة إلى سيناء .

هذه المرة الأوامر أوسع ، بعضها بالتصفية الجسدية لبعض الخبراء الألمان وبعضها بحرب اليمن ومدى قدرات الجيش المصرى هناك .

لوتز على قناعة بانعدام أى فرصة للنصر للجيش المصرى فى اليمن بالرغم من القذف المتواصل واستخدام الغاز السام فى الجبال هناك ضد القبائل اليمنية ، لكن المهم لإسرائيل معرفة نوع القوات المستخدمة هناك والروح المعنوية لدى القوات المصرية وكل ذلك ، بالطبع ، من خلال أصدقائه الضباط ، وهذا سيتطلب منه الكثير من الشمبانيا والحفلات لأصدقائه . .

أضيف للوتز أمر جديد فى هذه الرحلة وهو تجنيد من يراه مناسبًا للتجسس ومتابعة الجواسيس الموجودين فى مصر فى نفس الدوائر وتقييم أدائهم لدى الموساد .

مهام جديدة تشير إلى مرحلة حاسمة فى مهمة لوتز فى القاهرة .

عليه أن يبدأ أولاً فى استعمال جهاز إرسال جديد وأيضًا التخلص بحذر من الجهاز القديم بعد فكه من حذاء الخيل حيث تطلب منه القيام برحلة نيلية هو وڤالترود وسحقه ووضع بقاياه داخل ورق الطعام وإلقاؤه فى وسط النيل ليلاً وبحذر شديد .

الهرم ـ الثانية بعد منتصف الليل ـ أغسطس

جلس لوتز فى غرفة مكتبه منهمكًا فى تدوين رسالة استقبلها من إسرائيل عقب إرساله تقريرًا جديدًا يذكر فيه حالة الرأى العام المصرى وأهم الشائعات وبعض المعلومات عن الخبراء الألمان الجدد، لاحظ لوتز حركة صامتة وراء الباب فتجمدت الدماء فى عروقه ثم ابتسم بعد أن رأى ڤالترود وهى تدخل عليه قائلة: «يبدو أن الاستقبال جيد هذا الصباح»، أجابها لوتز: «عودى إلى نومك وسوف أنتهى من فك شفرة هذه الرسالة بعد خمسين دقيقة».

وأمسك بالنوت بوك وبمفتاح الشفرة والقلم الرصاص وشرع فى العمل، وما إن انتهى قام بتحضير الصنانير الخاصة بصيد الأسماك ثم عاد إلى غرفة النوم وطبع قبلة على جبين ڤالترود قائلاً: «يبدو أن لدينا عملاً ممتعًا غدًا يا عزيزتى».

بعد دقيقة واحدة هبَّ لوتز من فراشه بشكل مريب متجهًا إلى مكتبه.. لقد نسى أن يتخلص من الورقة التى دوَّن عليها مضمون الرسالة الجديدة.

وهكذا هى حياة الجواسيس خليط بين الهدوء الذى يشبه الرماد الذى يغطى النار والشك حتى فى من يشاركه دقائق الحياة، بعضهم يقدم ذلك عن قناعة بأداء واجب وطنى والبعض يقدمه من أجل المال والبعض الآخر مضطرًا مجبرًا من أجل حالة الابتزاز التى وقع فى فخِّها.. وغالبًا ما تكون هذه الحالة قصيرة، وهى عبارة عن مقايضة معلومات بسيطة لقاء السكوت عن وثائق اختلاس أو صور فاضحة أو شرائط مسجلة.. طريقٌ عسير، القليل من يتعامل معه باستمتاع مثل لوتز.

* * *

صوت دقات الساعة يخرج من مذياع سيارة لوتز الفولكس فاجن . . تمام الثامنة على موجات البرنامج الأوروبى . . لوتز يتفحص بعض الخرائط لتلك المنطقة الواقعة على طريق السويس الإسماعيلية محاولاً تحديد نقطة البداية وانطلقت السيارة، وحتى يضمن مبرراً منطقيًا إذا ما حدثت الكارثة، ترك لفالترود القيادة وجلس هو بجانبها وبدأ فى الحديث . . حتى وصلا إلى نقطة على الطريق غير ممهدة لكنهما انحرفا بالسيارة بقوة فى اتجاهه وبعد خمسين متراً توقفت السيارة .

نظرت فالترود للوتز قائلة : «لقد قمنا بمسح الطريق أكثر من مرة دون فائدة هل أنت متأكد من صحة هذه المعلومات؟» .

لوتز : «عليك أن تتحلى بالصبر يا شريكتى»، قالها ثم تناول خريطة جديدة لمنطقة القناة الواقعة جنوب السويس، طواها ووضعها على ركبتيه قائلاً : «لنجرب هذه الخريطة . . هذا هو الطريق الذى كنا نسير فيه ثم انحرفنا هنا يمينًا، إذا تقدمنا بعض الشىء سيقابلنا شريط القطار الذى يوازى هذا الطريق، وفى مناطق معينة يتقارب شريط القطار مع الطريق ويفترقان فى مناطق أخرى، حسنًا لنجرب هذا المسار، هيًا» .

انطلقا وبعد عشر دقائق شاهدا على مرمى البصر كوخًا صغيراً، على إثره هدأت فالترود من سرعتها وقالت : «ما هذا؟ هل أتوقف؟»، صرخ فيها لوتز قائلاً : «بل زيدى من السرعة وابقى فى نفس المسار هيًا . . هيًا . . هيًا» .

هناك لحظات لا يستطيع المرء إلا أن يستجيب لنداء الطبيعة حتى ولو شاهد عزرائيل متجهًا نحوه . . كان هذا بالضبط هو شعور الجندى الواقف

على حراسة ذلك الطريق وفى هذا الكوخ الذى لا يتعدى المتر فى متر مربع، تجاوزت السيارة الكوخ والجندى الذى كان على بعد أمتار يجلس القرفصاء، وقد علّق بعض أدواته على مسمار على باب الكوخ. . شاهد الجندى السيارة التى تنطلق بسرعة جنونية فى الصحراء قام بالصراخ وهو أقصى ما يستطيعه فى هذا الوضع. . وبعد لحظات استطاع الجندى أن ينهض أخيراً ويتجه إلى الكوخ ليمسك بالتحويلة ويلف ذراعها بقوة ويقوم بإبلاغ ما حدث . .

لقد اقتحم لوتز مع ڤالترود منطقة سرية جداً فى وضح النهار . . لكن هذا المكان لا يتناسب مع ملابسه الزاهية الألوان والفضفاضة، والتى توحى بالسباحة والاستمتاع بالشمس على الشواطئ.

بعد عدة دقائق ظهرت سيارة چيب مليئة بالجنود خلف تبّة عالية وهى تتجه إلى حيث تنطلق السيارة بلوتز، وصاحت ڤالترود متسائلة: «هل أسرع أكثر؟»، صاح لوتز بعد أن نظر فى المرآة: «بل اتجهى نحو الرمال هناك واجعلى السيارة تغرز. . وحاولى أن تجعلى هذا المشهد مقنعًا. . هيًا يا شريكتى».

اصطدمت السيارة بالكثبان الرملية ومع اقتراب الچيب العسكرى منهما تعالت الصيحات التى يوجهها الزوج الغاضب لزوجته: «ماذا حدث، قلت لك أن تتنبهى للطريق».

ثم أردف قائلاً بصوت خافت: «لا بأس إنهم قادمون».

قفز خمسة جنود مسلحين بالرشاشات وأحاطوا بالسيارة واتجه أحدهم للوتز متسائلاً بحذر: «إيه اللى جابكم هنا؟ إزاى دخلتم؟».

لم يكن يعلم أحد أن لوتز يُجيد العربية ولا حتى زوجته ڤالترود . . لذلك أجاب بالإنجليزية : «أوه شكراً على مساعدتك ، كما ترى السيارة غرزت فى الرمال» .

الجندى : «مش فاهم ، بتعملوا هنا إيه؟» .

لوتز : «هل تتحدث الإنجليزية أو الألمانية؟» .

الجندى يهز رأسه : «مش فاهم» .

لوتز اتجه إلى شنطة السيارة وأخرج مجرافًا صغيراً وقال له مشيراً بأن يساعده .

الجندى : «ما تتحركش ، إنت مقبوض عليك إنت وهيّه ، يلاَّ اركبوا الچيب» ، ثم أشار بعنف بماسورة الرشاش وهو يصرخ : «يلاَّ . . چيب» .

لم يستطع لوتز إلا أن يمتثل بخبث وسعادة حاولت عيناه وملامحه ببراعة إخفاءها ، وركبا فى الچيب ، وقبل أن تنطلق السيارة صرخ أحد الجنود فى قائدهم : «يا أمباشا معاهم كاميرا وسجاير أمريكى ، وشوية خرايط نصادرها؟» .

ردّ الأمباشا عليه بالنفى والتعنيف : «فقط الكاميرا والخرائط يا غبى» ، واتجه الأمباشا بالچيب إلى مكتب الضابط المسئول و هو فرحٌ بما أقدم عليه ، فهذا الأمر فى نظره يستحق مكافأة ، خمسة أيام إجازة على الأقل ، فهو لم ير الإسفلت منذ خمسين يومًا .

فى الطريق إلى حيث سيتم التحقيق مع لوتز وڤالترود شاهد لوتز كل ما جاء من أجله ، وها هى الچيب تتوقف أمام بوابة القاعدة السرية للحظات دار

فيها حوار بين الجندى والضابط المسئول آخر كلمة وجهها الضابط للجندى: «محاكمة عسكرية يا ابن الكلب. . اجرى هاتهم، يلاً، يلاً».

جلس لوتز داخل مكتب صغير وجلست ڤالترود بجانبه وهما يرسمان علامات التعجب والغضب مما حدث، حتى جاء الضابط وكان برتبة نقيب، مرتديًا بذلة كاكى واضعًا مسدسًا على خاصرته وبدأ فى الدوران حولهما للحظات وتفحص الخرائط والكاميرا الخاصة بهما ثم جلس على كرسى مكتبه وبدأ الحديث: «هل أنت أمريكى؟».

لوتز: «لا نحن ألمان ولم نعتد المعاملة بهذه الطريقة الفظّة».

الضابط: «كيف أتيتم إلى هنا. ؟ ألم تريا كوخ الحراسة على الطريق ولافتة «ممنوع الاقتراب أو التصوير؟»».

لوتز: «أية حراسة وأية علامة! لقد كنت نائمًا عندما انحرفت زوجتى عن الطريق ظنًا منها أن هناك طريقًا أقصر إلى البحيرات المرّة، كما ترى نحن مُهيَّئون للذهاب هناك، لكن الرمال اللعينة حالت دون ذلك».

الضابط: «أرنى جواز سفركما»، نظر إليه الضابط بسرعة ووضعهما فى جيبه.

قال لوتز بنبرة حادة: «أعدهما لى إنهما وثائق السفر الوحيدة التى معنا».

الضابط: «سيعادا لكما فى الوقت المناسب، ثم ماذا تفعل بهذه الخرائط وهذه الكاميرا».

لوتز: «ما هذه الأسئلة الغبية! من الطبيعى لأى سائح أن يكون معه خرائط تدلُّه على وجهته وكاميرا يلتقط بها صوره التذكارية».

الضـابط : «عليكمـا الانتظار حـتى أعـود»، وطلب من الجندى المرافق أن يقوم على حراستهما، لم يبتعد كثيراً، لقد كان صوته مسموعًا إلى حد ما من الغرفة المجاورة التى بدا أنها غرفة قائد هذه المنطقة . .

شاهد لوتز منصات إطلاق الصواريخ مرتَّبة بشكل دائرى، وكذلك شاهد غرف التخزين المحصنة تحت الأرض وحتى المبانى الإدارية التى هو موجود فى أحـدها الآن . . كل ذلك فى ثوان عندمـا دخل من بوابة القـاعـدة حـتى المكتب الذى هو فيه الآن .

لقد صنع ذلك الجندى بفكره السـاذج فرصة عمر لوتز وجعله يحقق هدفه بسهولة، ، ظنّا منه بأنه يقوم بعـمله، طمعًا فى رضا الضـابط وفى رؤية أمه الضريرة التى تعيش فى الصعيد مع شقيقته الصغيرة حيث لم يرهما منذ عشرات الأيام . . لكنها ظروف الحرب، والتى دائمًا ما يرددها على أسماعه هو وزمـلائه ذلك الضـابط . . المرح الوحيـد فى مـثل هذه المناطق للجنود هو راديو صغير ترانزيستور لسماع أم كلثوم . . لكنه يدخل فى السرِّ؛ لأنه ممنوع فهو قد يشغل الجندى أثناء الخدمـة . . تبقى الأحلام وخاصة مـا يكون فى اليقظة هى السلوى الوحيدة لهذا النوع من البشر ، الذين يشكلون الأغلبية .

أخـذ لوتز فى التنصُّت على مـا يدور من نقـاش فى الغـرفـة المجـاورة بين الضـابط وقائد المنطقـة، وفجأة سـمع صوتًا يرتفع فى غضب شـديد : «هل تعنى بأنك قد جلبتهم إلى هنا!!! يا غبى!! هل جننت» .

ثم تلاشى الصوت هنيهة ثم عاد : «كان عليك أن تُعصب أعينهم على الأقل، أنتم والله جاموس» .

الضابط ردّ عليه بتردد: «يا فندم داه العسكرى الغبى هو اللى فاجأنى».

القائد: «برضه كان لازم ما يشوفوش المنصات.. وسكت للحظات ثم طلب من الضابط إحضارهما، وما هى إلا ثوان ولوتز يقف أمام القائد هو وڤالترود»، بنظرة واحدة كان لوتز قد قرأ الغرفة جيداً، إنها فسيحة مفروشة بالأثاث الجلدى المريح وسجادة غليظة أمام مكتب كبير عليه وُضعت أربعة تليفونات فى صف واحد: أبيضان وأسود وأحمر، القائد كان برتبة عقيد فى العقد الرابع من عمره، نحيل القوام وشعره أسود وله شارب كث وقد بدا عليه الانهماك فى تفحص جوازات السفر والخرائط والكاميرا ثم بدأ بتفحص لوتز وڤالترود من أخمص قدميهما إلى أعلى رأسيهما، وبهدوء وجَّه كلامه: «تفضل بالجلوس».

ثم أردف قائلاً: «أنت السيد لوتز وأنت السيدة ڤالترود؟».

أجابه لوتز برأسه وقال: «نحن نعيش هنا فى القاهرة كما يتَّضح لك فى جوازات السفر.

القائد: «وما هى مهنتك بالضبط؟».

لوتز: «أنا أربى الخيول العربية»، وقام بإخراج بطاقة عُضويته فى نادى الفروسية بالجزيرة وكذلك هيئة الفرسان ووضعهما على المكتب.

القائد: «إذن ماذا تفعلان فى منطقة كهذه هنا؟».

لوتز: «أنا مضطر لأن أعيد ما ذكرته للضابط مرة أخرى.. لقد كنت وزوجتى فى طريقنا إلى نزهة فى البحيرات المرَّة وسلكنا طريق السويس إسماعيلية وكانت ڤالترود تقود السيارة».

القائد: «و لماذا هى التى تقود، أليس من الطبيعى أن تتولى أنت القيادة؟!».

لوتز: «نعم. لكنى قد آذيت ركبتى الأسبوع الماضى وأنا أترجل عن فرسى لذلك أرادت هى أن تريحنى قليلاً».

القائد: «وما الداعى لرحلة كهذه قبل أن تتعافى؟».

لوتز: «وماذا يهم فى ذلك؟».

القائد بابتسامة صغيرة: «أنا أحاول رسم الموقف فحسب!».

لوتز: «لا بأس لقد وعدت زوجتى بهذه النزهة وفى الطريق غفوت قليلاً ولم أستيقظ إلا على سيارتنا وعجلاتها غارقة فى الرمال ورجالك يحيطون بنا بأسلحتهم كأننا لصوص».

القائد: «لماذا لم تتوقف عند العلامة التى تمنع الدخول عند كوخ الحراسة، ألم تشاهد الحارس؟ ألم يعترض طريقك؟».

لوتز: «لم نر الحارس إلا بعد أن تجاوزناه؛ لأنه كان يتغوَّط، ثم إنه أشار لنا بإصبعه الأوسط، تُرى ماذا تعنى هذه الإشارة؟ أنا لا أعرف».

القائد: «حسنًا أنتما رهن التحقيق الذى ستجريه معكما السلطات المناسبة».

لوتز: «لكن هذا سخف، ماذا سنفعل فى هذه المنطقة الصحراوية غير الجذابة ورجالكم الذين أحضرونا إلى هنا؟!، أنا شخصية معروفة فى هذا البلد وإذا أردت التأكد من ذلك فعليك استخدام أحد هذه التليفونات وتسأل بنفسك اللواء يوسف العدل، فهو صديقى».

انتبه قائد المنطقة فجأة وابتسم: «أنا أعرف صديقك لكن ليس لديه سلطة على هذه المنطقة».

لوتز: «إذن أرجوك اسمح لى باستعمال التليفون، سأتصل باللواء فريد عثمان».

القائد: «هل تعرفه؟».

لوتز: «نعم وأعرف غيره.. أرجوك ها هو رقمه، اتصل به ودعنى أحادثه».

تناول القائد جوازات السفر مرة أخرى وبدا عليه علامات التعجب، ثم تناول علبة سجائره وأشعل سيجارة وأردف قائلاً للضابط الذى يقف بانتباه على يسار المكتب: «إنه أمر محيِّر، هل تصدق هذا؟».

الضابط: «لا أعرف، من الأفضل الانتظار حتى تأتى التحريات أو مندوبو المخابرات الحربية فربما يكونان جاسوسين».

القائد: «لو ما كانش العسكرى الغبى دخَّلهم هنا، كنا حلينا الموضوع، مش عاوزين وجع دماغ».

الضابط: «لكن كيف له أن يعرف أناسًا مثل اللواء عثمان والعدل؟! ممكن يكون أحد الخبراء الألمان؟».

القائد قام بإلقاء نظرة سريعة حاسمة على لوتز وسأله: «هل أنت متأكد من أنك مربى خيل؟».

لوتز: «بالطبع أنا لا..».

قاطعه القائد بحركة عنيفة تجاه التليفون الأبيض الذى على يمينه ورفعه وطلب أن يتحدث مع مكتب اللواء عثمان» .

كانت محادثة هادئة مع رئيس مكتبه الذى أكد بعدم وجود اللواء عثمان الآن . . وانتهت المكالمة وأخرج لوتز مرة ثانية مفكرته وقال برجاء : «اسمح لى بآخر طلب أريد أن أتحدث مع العقيد حسن فكرى فى أمن الدولة، هل تعرفه؟» .

القائد : «هاه، لقد بدأ صبرى ينفد أيها اللوتز . . قلت لك لا علاقة لهؤلاء بنا . . ليكن، فهذا فقط حتى أرضى ضميرى، وصلّنى يا ابنى بمكتب أمن الدولة . . خد الرقم ده» .

بعد عدة لحظات جاء صوت يؤكد قائلاً : «نعم أنا العقيد حسن فكرى» .

القائد : «لا تؤاخذنى فى هذا السؤال، أى فرع خدمة ينتمى إليه مكتبكم . . أهلاً وسهلاً يا فندم، فى الحقيقة فيه موضوع غريب شوية . . لكن سيادتك الأول تعرف واحد ألمانى اسمه لوتز وزوجته ڤالترود؟ . . فى الحقيقة همّ عندى فى القاعدة . . صحيح فى حارس حيتعاقب بس . . أهوه مع سيادتك» .

وبوجه شاحب أعطى السمّاعة للوتز الذى علّق قائلاً قبل كل شىء : «أعتذر عن هذا الإزعاج، صباح الخير أولاً» .

العقيد حسن فكرى : «صباح الخير يا لوتز، ماذا تفعل فى منطقة عسكرية سرية للقوات المسلحة؟» .

كان سؤاله يتّسم بسخرية مخيفة للوتز، هل هذه نبرة صديق أم مرتاب من الموقف؟» .

قام لوتز بسرد ما حدث مؤكداً أنه وزوجته ضحية لمعاملة سيئة وأنه عند عودته سيخبر الأصدقاء بما حدث وأنه حاول الاتصال بعثمان لكن دون جدوى وهو يأسف على إزعاجه كصديق».

العقيد حسن فكرى: «لا تقل ذلك يا لوتز فأنا سعيد أنك لجأت إلىّ، أنا واثق بأن ما حدث سوء فهم، لكنك دخلت منطقة عسكرية محظورة وأنت تعلم الظروف التى تمر بها البلاد، ولا سبيل لوقوع أى خطأ من أى نوع، سأتحدث فيما بعد مع عثمان والآن أعط السماعة للقائد من فضلك وأرسل اعتذارى لزوجتك لحين لقائنا فى القاهرة».

القائد: «نعم.. حاضر يا فندم.. أكيد.. ما تقلقش.. مع السلامة يا فندم».

موقف محيِّر، الضابطان لهما نفس الرتبة، أحدهما عقيد وقائد لوحدة قاعدة صواريخ سرية ومهمة، يردّ بخضوع واستكانة وطاعة كاملة لضابط برتبة عقيد أيضًا، ليس له سلطة فى أن يعطيه الأوامر لكنه يعمل فى مكان أمنى شديد السرية، يستطيع من خلاله أن يحول حياة هذا العقيد إلى جحيم إذا شاء، وها هو لوتز يكتشف مرة أخرى درجة قوة وتغلغل الأجهزة الأمنية المسيطرة على الحياة فى مصر حتى داخل الوحدات العسكرية.

بصوت هادئ قال القائد: «أعتذر يا سيد لوتز ولك يا سيدة فالترود عما بدر من رجالى.. العقيد صبرى شرح لى الموقف، ولقد تأكدنا أنه ليس بقصدكما ما حدث وأنكما لا تشكلان أى خطر.. إنكما ضحية للطريق الخطأ الذى سلكته زوجتك دون قصد».

أما ذلك الجندى الأحمق فهو المسئول كل المسئولية ، ، وسوف ينال عقابه الأليم منى» .

لوتز : «أوه لا داعى للأسف ، لقد كنت تقوم بواجبك ، لكننى أقترح عليك عمل حاجز واضح عند مفترق الطرق» .

القائد : «نعم ، لقد ذكر ذلك العقيد حسن فكرى . . أرجوك أن تقبل اعتذارى مرة أخرى وأن تقبل دعوتى على الغداء فى قاعدتنا المتواضعة هذه» .

وقبل أن يغادروا الغرفة رنَّ جرس التليفون مرة أخرى فعاد القائد بخطوات قليلة وقام بالرد على التليفون ولم تكن المكالمة كلها إلا بكلمة «حاضر يا فندم . . طبعًا يا فندم . . تحت أمرك يا فندم . . أهوه معاك يا فندم ، تناول لوتز السماعة وإذا بصوت صديقه اللواء عثمان يقول بسخريته المعهودة : «أوه يا رستى . . أيها الشيطان العجوز ، ماذا تفعل بحق الجحيم عندك؟ لقد كلمنى صبرى للتو ، وقال إنك كنت تتجسس على القاعدة العسكرية ، هل ستدفع لى ثمن ذلك زجاجات شمبانيا أم أودعك السجن؟» ، وضحك بصوت هستيرى .

لوتز : «نعم شمبانيا محلية الصنع» .

اللواء عثمان : «أخبرنى هل يعاملونك بشكل جيد؟ ، لا تتردد فى قول الحقيقة» .

لوتز : «إنهم كرماء معى وأنا متجه لتناول الغداء معهم أنا وفالترود» .

اللواء عثمان: «لا تنس حضور حفلة يوم الخميس القادم، ستكون مثيرة».

لوتز: «شكرًا لك، هذا يحتاج بعض الترتيبات . . إلى اللقاء».

انطلق الجميع فى الممر والقائد ينظر بطرف عينه إلى لوتز ويقول له: «إن اللواء عثمان مغرم بك كثيرًا، إنه لشرف لنا أن نستضيفك يا سيادة العقيد لوتز».

لوتز توقف عن السير فجأة وقال فى تباه مصطنع: «هل ناديتنى بالعقيد، لقد كنت قائد فرقة ردّ الهجوم فى الحرب العَالمية الثانية».

القائد: «أوه، طبعًا . . لقد قرأت عن فرقة الدفاع فى الرايخ الألمانى الكثير . . وسوف يكون لنا أيضًا رايخ عربى، فقاعدة الصواريخ هذه كفيلة بتدمير إسرائيل قريبًا . . وهذا سبب كاف لوجود كل هذه الاحتياطات الأمنية . . وأرجوك اسمح لى أن أريك مفاجأة مهمة، ، تعال معى أرجوك . . هيا هيا».

* * *

أكتوبر ١٩٦٤ - وسط البلد

اليوم هو السبت . . شارع عدلى من أجمل شوارع القاهرة، عمارات على الطراز الفرنسى والإيطالى وبعضها على التصميم الحديث وبها مكاتب تابعة لشركات خاصة ملاحية وتجارية، ، محلات الأزياء والجلود التى

لا يرتادها إلا الطبقة الأرستقراطية والفئة الغنية من الطبقة الوسطى. . مراكز البنوك الكبيرة فى الشوارع المجاورة. . بنك مصر. . البنك المركزى. . بنك الإسكندرية. . بنك القاهرة، أجمل هذه العمارات هى عمارة بنك الإسكندرية بألوانه ومقرنصاته التى تعلو المدخل الرئيسى وتلك اللوحة الخشبية المنقوشة فوق مدخله. .

لمسات الجمال تحيط بالسائر على قدميه فى هذا الشارع أو بالراكب. . غير أنه فى مكان ما فى هذا الشارع. . هناك اختلاط واضح فى الأصوات، أمام المعبد اليهودى الذى يستقبل اليوم الحاضرين من أبناء مصر اليهود الذين حضروا لأداء المناسك والطقوس. . صوت سيارة الإسعاف وهى تعبر أمام المعبد بسرعة مع صوت صافرة العسكرى الواقف خدمة أمام سلالم المعبد مع صوت بائع الجرائد الذى يعلن عن منشيتّات جديرة بالقراءة فى الأهرام والجمهورية متعلقة بالقبض على شبكة يهودية إرهابية جديدة. .

الأصوات المهمة التى تدخل المعبد بعضها يعلن عن سخطه والبعض الآخر عن خوفه من الأيام القادمة. . لكن الملاحظ أن العدد يتقلص فى كل سبت، وفى السبت التالى يتساءل البعض عن فلان وفلان، فيعلم أنهم هاجروا إلى إسرائيل عن طريق اليونان بعد أن قام ببيع محلّه ومصنعه وشقته بثمن بخس لكنهم جميعًا فى النهاية يصرٌون على حمل الوثائق والفواتير والأوراق وشهادات الميلاد وقصاصات الجرائد المتضمنة لإعلاناتهم التجارية أو التعازى أو المجاملات، والتى يُطلقون عليها «الجنيزة» ويرون أنها نوع من الحفاظ على الذكريات والبعض الآخر يرى فيها كنزًا لا يقدَّر بثمن يتركه لأحفاد الأحفاد.

جلس الرائد صلاح مع بعض معاونيه فى الغرفة المغلقة النوافذ من عدة سنوات والموجودة فى إحدى العمارات الواقعة أمام المعبد فى شارع عدلى، وتحت ضوء علوى مركَّز على طاولة الاجتماعات، استمع إلى التقرير الشفهى المقتضب لكل واحد منهم. . تناول سماعة التليفون الأسود. . وكان صوت الطرف الآخر أحد معاونيه فى مستشفى الجلاء يقول: «تمام يافندم سيارة الإسعاف دى مش تبع المستشفى بس نمرها مسروقة من عربية متكهنة تابعة للمستشفى موجودة فى الجراج، حاضر يافندم، مع السلامة».

الرائد صلاح: «زىّ ما توقعت المنظمة اليهودية هىّ اللى ورا عربية الإسعاف لمجرد إن صوتها بيضاعف حالة التوتر لليهود المصريين اللى جايين لصلاتهم فى المعبد».

أحد المعاونين يرد: «إحنا حاطين عنينا عليهم كلهم تقريبًا. . ومنتظرين تعليماتك يا فندم».

الرائد صلاح: «الرَّد السياسى جاء بأن كل حاجة تعملها المنظمة تكون بس تحت عينينا، نرصدها لكن ما نقفش ضدّها. . حتى تصدر تعليمات جديدة. . أما عن فرق الإرهاب، فلا بد من القبض عليهم متلبسين بعد تتبعهم. . . اتفضلواَ دلوقتى وسيبونى مع المعاون مجاهد».

انصرف الجميع بهدوء من باب الخدم الموجود فى المطبخ والمؤدّى إلى السلم الخلفى للعمارة قام الرائد صلاح بتحضير القهوة فى ركن الغرفة وعاد إلى الطاولة ووضع فنجان أمام المعاون فى نفس الوقت الذى أظهر المعاون احترامه وامتنانه للرائد قائلاً: «العفو يا باشا. . بنفسك».

الرائد: «اقعد يا مجاهد. . خذ السيجارة دية وقول لى آخر أخبار سمير إيه؟».

المعاون مجاهد: «عمل المطلوب منه بنجاح لحد دلوقتى، اكتشف جهاز إرسال فى كعب بوت الخيل بتاع لوتز. . وكانت شكوكه فى محلها بالنسبة لصابون اللاڤندر فى دولاب غرفة النوم بتاعة لوتز، بعد الكشف عليه لقيناه من نوعية متطورة جداً من المتفجرات T.N.T وكمان المواسير الصغيرة اللى بحجم قلم الرصاص الموجودة فى ميزان الوزن فى حمام لوتز. .

الرائد صلاح: «عربية اللاسلكى بتاعتنا تقريرها بيقول إيه؟».

المعاون مجاهد: «آخر تقرير بيتكلم عن آخر رسالة بعتها لوتز الساعة اتنين وخمسة بالليل بتوقيت القاهرة، طبعًا مستنيين تنفيذ المهمة الجاية لسمير علشان يصور لنا دفتر فك الشفرات، علشان نفك ونحلل كل الرسائل دية. . . كلها مُسجلة بالكامل. . والعربية قُريِّبة من ڤيلته فى الهرم».

شكر الرائد صلاح معاونه الذى انصرف بنفس الطريقة، تاركًا الهدوء والتفكير والقرار لصلاح الذى أخذ يتحاور مع الصمت المحيط به ودخان السيجارة التى أشعلها. . ملف لوتز أصبح مكتملاً بين يديه. . تقارير المخابرات أمامه كلها. . تقرير المخابرات الحربية عن اقتحام لوتز قاعدة الصواريخ هو وڤالترود والمسرحية الهزلية التى قام بها وشاركه فيها ضبَّاط ذوو رتب عالية وأماكن حساسة فى الجيش والبوليس السياسى. . تقرير مكتب المخابرات المصرية فى روما. . وباريس الذى يؤكد قرب وقوع عمليات تخريبية بواسطة طرود بريدية، تستهدف بعض الشخصيات الأجنبية فى القاهرة منهم بعض الخبراء الألمان المتعاونين مع وزارة الحربية. .

الملف الآن معدّ بالتفصيل ليعرضه على رئيس المخابرات العامة . . وينتظر الاثنان ردّ رئيس الدولة . . جمال عبد الناصر .

* * *

حارة خميس العدس ـ حى الخرنفش

الشماتة عند المصريين عيب ، بس طعمها مغرى ، خاصة لو كانت فى حدّ بيئذى الناس ، مرشد أو مخبر ، بيبقو معروفين ومش معروفين فى نفس الوقت . . لو حصلت مصيبة لواحد منهم ، الناس اللى حواليه بتعزيه ، بتواسيه بس نظراتها بتقول غير كده ، بتقول «أحسن . . كان مفترى . . ربنا خلّص منّه» وغالبًا العبارات دية لها ما يؤيدها من النصوص الدينية سواء عند المصريين المسيحيين أو المصريين المسلمين اللى كلهم بيقولوا أمثال برضه بتؤكد الموقف من السلوك ده ، «يا فاحت فى البير ، مسيرك تقع فيه» .

بس فى حالة كامل أفندى ده ، الموضوع يصعب على الكافر ، الراجل يده اليمنى نُصها طار ، وعينه الشمال اتقلعت ، ووشُّه أصبح شبه مشوّه أو يغطيه الشاش الأبيض . . المنظر كان صعب لكل اللى شافه وهوّ متسنّد وداخل العمارة اللى ساكن فيها ، جيرانه كل واحد فاتح باب شقته وواقف هو ومراته وابنه على باب الشقة بيبصوا على كامل أفندى وهو معدّى من قدامهم طالع السلم ، عينه السليمة فى الأرض ومراته مسنّداه من إيده الشمال اللى حيكمّل مشوار حياته بيها .

كان الطريق لشقته في الدور الثالث أطول وأصعب من صعود جبل «عتاقة» في السويس، أخيراً وصل الشقة وطلب من مراته قفل الباب ورفض أي زيارة قائلاً: «مش عايز أشوف حدّ ولا حدّ يشوفنى».

لكن جرس الباب أعلن رفضه لهذه العبارة بصوت عالٍ.. كان الطارق جاره وصديقه شحاتة هارون.

نظر كامل أفندى لأولاده وقال: «ما حدش يفتح مش عايز أشوف حد».

زوجته تخبر شحاتة أفندى بموقفه النفسى المتأزم وتعتذر عن عدم إدخاله مؤقتًا مع امتنانها.

شحاتة أفندى: «على كل حال أنا كنت عايز أطمّن عليه.. لو عُزت حاجة خَبَّطى علينا، الناس لبعضيها، إوعى تتكسفى».

قالها شحاتة هارون وانصرف، قالها بصدق لأن كامل أفندى كان صديقه الذى طالما شكا له وضعه والضغوط التى كان يتعرض لها من الناس ومن النظام ومن المنظمة اليهودية التى كانت تحاول بشتى الطرق إخافته والضغط عليه ليترك مصر ويهاجر إلى إسرائيل، لكنه كان رافضًا تمامًا للفكرة وتحمَّل مع من اعتنقوا نفس الموقف مشاكل وصلت إلى حد القتل والاغتيال فى مساكنهم أو فى الأماكن العامة، لم يكن يعلم شحاتة هارون أن كامل أفندى صديقه اللدود طالما كتب تقارير عنه، فقد كان يعمل مخبراً مع عمله الأصلى فى مكتب البوسطة الموجود فى العتبة، والذى حدث فيه الحادث الأليم الذى نجا منه كامل أفندى بأعجوبة.

الصحف حاولت أن تعرف السبب لكنها عبثًا حاولت ولم تصل إلى شيء، سوى أن أنبوبة بوتاجاز صغيرة انفجرت أثناء تحضير كامل أفندى الشاى، التعليمات كانت واضحة وسريعة لرئيس المصلحة ولمدير المكتب حيث خضعا لتحقيق سريع وسرِّى مع مندوبى المخابرات العامة ومباحث أمن الدولة.

لم يعرف كامل أفندى حتى اللحظة ما حدث له، كل ما يتذكره أنه استلم مجموعة طرود فى مكتبه وأخذ يقسمها على البوسطجية، لكنه استوقفه طرد صغير إلى حد ما لأحد الخواجات الألمان الساكنين فى شارع الجيش، أخذه كامل أفندى بنفسه كى يوصله ويحصل على بقشيش من الخواجة

لكن هاجسًا جاء له بأن هذا الطرد فيه شيء ما، فحاول بالبخار فتح الظرف وبعد ثوان من وضع الظرف فوق البخار المتصاعد من إبريق الشاى حدث ذلك الشيء الذى لا يعرفه كامل أفندى، الرجل يكاد يُجن مما حدث، لقد فقد يده اليمنى وعينه اليسرى وشُوِّه وأصبح شبه مقعد لا يستطيع حتى أن يصرخ.. لقد التقى به فى المستشفى أحد الضباط ومعه مجموعة من المخبرين وأمروه بعد أن حققوا معه، بعدم ذكر أى شيء عما حدث بعد عودته إلى المنزل.

إنه يُسقى من نفس الكأس التى سقاها لكثيرين ممن ذُكروا فى تقاريره الخفية.

❊ ❊ ❊

الخميس الأول ـ ديسمبر ١٩٦٤ ـ القاهرة

غذاء الروح لا يقل فى أهميته عن غذاء الجسد . . المصريون بارعون فى خلق جو المتعة وسط الضغوط المادية والنفسية ، بعضهم كان يعانق السماء بروحه فى الخميس الأول من كل شهر حيث اعتادت أم كلثوم فى هذا الميعاد تقديم حفلها الغنائى عبر الإذاعة المصرية من العاشرة مساء وحتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى . . التذكرة باهظة الثمن ، الحاضرون فى المسرح كبار الشخصيات فى الدولة وعدد من الشخصيات العربية رفيعة المستوى من السودان وليبيا والكويت والأمير السعودى الشاعر عبد الله الفيصل وسيدات الطبقة الأرستقراطية بفساتينهن الزاهية ، فى الصفوف الأخيرة كان الحضور يبذل جهداً فى أخذ مقاعدهم قبل رفع الستار وبداية الحفل . .

هناك جلس سمير حنا تادرس على كرسيه واحتشد للسماع بكامل حواسه وقبل لحظات من البدء عاش بعض المشاهد فى شريط ذكرياته ، فها هى السنة الرابعة تمر منذ اختفائه عن أصدقائه وحيِّه وعالمه الخاص الذى لم يبق منه إلا هذا الصوت الذى جاء لسماعه الليلة .

هو وحيد فى هذا العالم ليس له أقارب لكن له أصدقاء وله مكانته بين أبناء حيه ، وفى مقهى الصيرفى الذى اعتاد الجلوس فيه وفض المنازعات العابرة كأحد فتوَّات حارة الحسينية ، على الدُّهل هو الأشهر لكنه الآن نفسه لا يكاد يَذكر هذا الاسم الذىَ تحول فى دراما حقيقية إلى سمير حنا تادرس .

صوت حار يقطع شريط الذكريات ويعيد سمير إلى المسرح قائلاً: «هيَّه الست حتغنى إيه النهاردة. . . نظر سمير إلى يمينه حيث يجلس رجل فى الخمسينيات من عمره، ملامحه شديدة التشابه بفريد الأطرش، لكن شعره المكسو بلون الثلج يكسر هذا التشابه بدرجة ما. .

هزّ سمير رأسه قائلاً: «ومن يعلم منا؟! كالعادة بتكون مفاجأة الست محضَّراها». . . ردّ الرجل: «والله أنا بعت اللى ورايا واللى قدَّامى، حتى سريرى اللى بنام عليه علشان أحقق الأمَنية ديه قبل ما أموت».

سمير بتعجب: «وبتفوّل على نفسك ليه؟».

الرجل: «أنا مريض والدكتور صارحنى بالحقيقة، وما ليش لا عيِّل ولا تيِّل بس أنا دلوقت مرتاح علشان الأمنية بتاعتى ربنا حققها لى».

هزَّ سمير رأسه مع دقات المسرح وصمت الجميع وبدت أم كلثوم مع فرقتها فى أحلى صورة . . جُمل موسيقية ساحرة تمهد الحضور لسماع صوت أم كلثوم وتدمجهم فى عالم الشرق الساحر، ، رأس سمير تتمايل فى هدوء مع الموسيقى وتقف بعنف فجأة عند ذلك الصوت الخافت الهامس فى أذنه «تعال يا سمير. . عايزينك بعد دقيقتين بالضبط عند الباب الخلفى للمسرح»، التفت سمير نحو مصدر الصوت فلم يجد شيئًا، وكان الجميع منسجمًا مع الموسيقى. .

بعد لحظة تفكير اضطر سمير للقيام وهمّ بإلقاء مداعبة خفيفة على الرجل العاشق لأم كلثوم على يمينه قبل الرحيل. . وإذا بالرجل شاخصًا بصره إلى سماء المسرح ورأسه ثابتة دون حِراك.

اقترب منه سمير وقال: «مندمج قوى يا خويا . . عن إذنك أنا رايح الحمام».

قالها سمير وهو ينظر للرجل . . وبعد لحظة واحدة أيقن سمير أن الرجل قد فارق الحياة.

انسحب سمير بهدوء وبملامح ثابتة وبعد مراوغة أمن المسرح استطاع الخروج ووقف أمام سور المسرح الخلفى حيث الهدوء والأسئلة الملحَّة على ذهنه وسرعان ما انعطفت سيارة سوداء من الشارع الجانبى واتجهت نحوه وتوقفت عند قدميه ليطل رجل أصلع برأسه منها قائلاً: «اركب يا سمير . . يلاً».

امتثل سمير وركب السيارة التى انطلقت بكامل سرعتها . . وبدأ الحوار فى داخلها بأسئلة سمير التى وجهها إلى الرجل الوحيد الذى يعرفه فى السيارة، «احنا رايحين فين يا مجاهد؟».

مجاهد: «مأمورية صغيرة لبيت الخواجة لوتز».

سمير: «يا دى النيلة، ما كنش ممكن تتأجل لبعد الحفلة، أنا دافع دم قلبى علشان أحضرها».

مجاهد: «حنعوضك بتذكرة للحفلة الجاية يا سيدى».

سمير يخاطب نفسه بصوت عالٍ: «أنا عينى بترف من أول الليلة السوده ديه، حاسس إن فى حاجة».

«و المطلوب إيه؟».

مجاهد: «دفتر فك الشفرات الموجود عند لوتز.. تقريبًا حتلاقيه يا فى درج المكتب يا فى الدولاب واحتمال تلاقيه فى المكتب؛ وسط الكتب والمجلات.. استخدم حاستك يابو سمرة».

سمير: «الرجل ده أنا زهقت منه، أنا مش فاهم إنتم سايبينه ليه بعد كل البلاوى السودة اللى شايلها عنده؟».

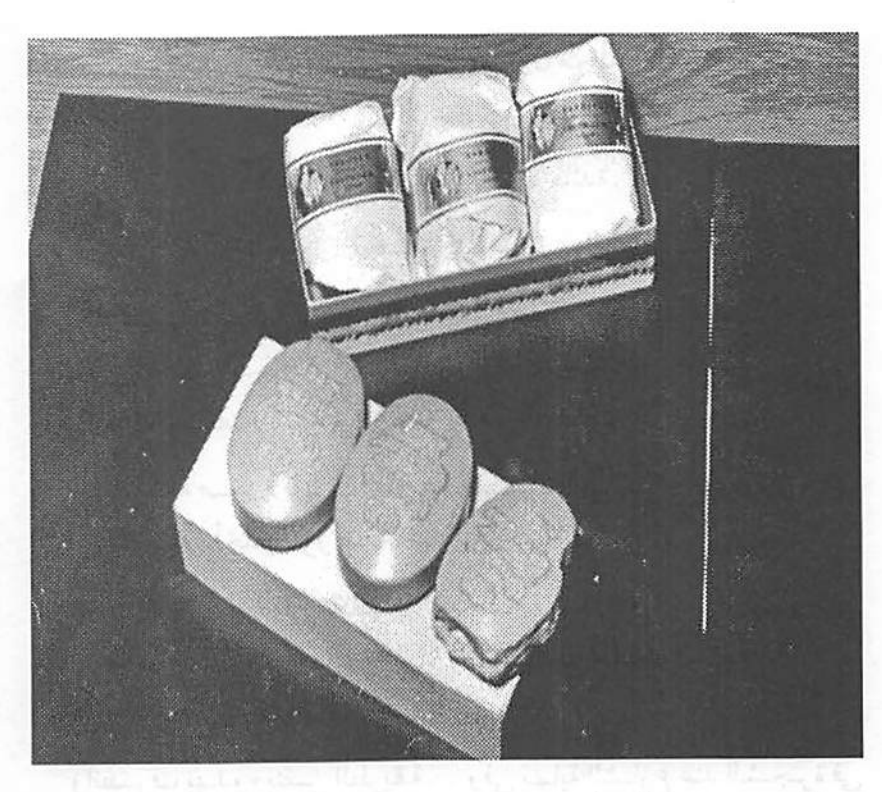
مجاهد: «وبعدين؟! قلت لك قبل كده، ينفع تقطف العنب قبل ما يستوى؟!».

سمير: «وحاعمل إيه فى المصيبة اللى عنده، سى شوكولاته ده؟».

مجاهد: «بنفس الطريقة الأولانية ولوتز دلوقت فى سهره ممتدة لنص الليل ومراته مع صديقاتها فى الزمالك.. آدى الورد إللى فيه المخدِّر.. بعد دخولك على طول من الباب تضغط على الورده إللى فى النص ديه.. بعد عشرين ثانية تفتح خلالها أى موضوع مع الخادم حيكون غاب عن الوعى. خد بالك، المنديل ده لو حسيت بدوخه علطول شمه، حذاءك إمسحه كويس قبل ما تدخل الڤيلا.. إحنا وصلنا.. يلا انزل هنا.. ولما تخلّص امشى واستنانا عند الشجرة اللى فى آخر الشارع، حنجيلك.. ربنا معاك».

السيناريو يتكرر مرة أخرى، ينجح سمير فى دخول الڤيلا وتخدير الخادم وصعود الطابق العلوى...

القاعدة الأولى فى عمل سمير: قراءة المكان بدقة، ثم إرجاع كل شىء بعد تفتيشه فى مكانه بالضبط والأهم عدم تضييع الوقت بالبحث أولاً فى الأماكن غير المتوقعة..



لاحظ سمير هذه المرة عدم وجود حذاء ركوب الخيل . . لاحظ وجود ميـزان آخـر فى الدولاب غـير الميـزان الموجـود فى الحمـام . . لاحظ قطع الصـابون اللاڤندر الكثيـرة فى الدولاب عن السـابق، لكـن لا أثر لضـالتـه، سيذهب إلى المكتبة لربما وجد بها دفتر الشفرات . . ينظر فى ساعته، أمامه خمس دقائق لإنهاء المهمة وهو حتى الآن لم يجد ما يبحث عنه . . لقد فتَّش المكتبة، كتابًا كتابًا . . لم يبق سوى مجموعة كتب كبيرة وعريضة موجودة فى الرف الأعلى لكن أى منها يحتوى على الدفتر فحجم هذه النوعية لا بد أن

يكون صغيراً كالروايات؟ فضوله قاده إلى أول مجلّد . . إنه ثقيل . . أوه لا يوجد شيء .

الثاني . . نفس الثقل . . لا فائدة .

الأخير . . أوه ماله كده مش زى الباقى

أخذ سمير يقلبه بين يديه ثم قام بتقليب صفحاته ليجد أنه عند الصفحة الخمسين تتجمد الصفحات حتى المائة . . أخذ يجرب مرة أخرى . . بهدوء وجد الصفحات تُفتح بالعكس، يبدو وأنه وجد ضالته

بعد ابتسامة صغيرة ظهرت على وجه سمير بدأ فى انتزاع دفتر رقيق، إنها الشفرة المطلوبة وأخذ يصوّر صفحاتها بدقة حتى الصفحة الأخيرة . . .

عادت كل الأشياء إلى مكانها . . مع مسحة صغيرة من منديل سمير على مكان بصماته . . وقبل مغادرة الفيلا وضع المنديل بمسحة سريعة على أنف الخادم قائلاً: «كفاية كده يا شوكولاته» .

وانصرف بهدوء بنفس الطريقة . . وفى نهاية الشارع عند الشجرة فى مكان الاتفاق كان وصول السيارة متزامنًا مع وصوله هناك . . ثم انطلاقها بعد ركوبها . .

كلمة واحدة نطق بها سمير فى السيارة للمعاون مجاهد «كله تمام» أعطى بعدها الكاميرا الدقيقة الحجم له . . وبقى صامتًا يستمع لصوت أم كلثوم الصادر من راديو السيارة، حيث الوصلة الثانية من الحفل، وقد وصلت إلى ذلك المقطع «هات عينيك تسرح فى دنيتهم عينيًا . . . هات إيديك ترتاح للمستهم إيديًا» .

لقاء السحاب بين كلمات أحمد شفيق كامل وألحان عبد الوهاب، حيث ظلت أم كلثوم تغنى «إنت عمرى» فى كل حفلاتها هذا العام.

* * *

فى قلب القاهرة وفى إحدى العمارات المتاخمة لفندق الكوزموپوليتان فى الطابق الثالث، شقة عبده، العميد الذى لا يتجاوز راتبه المائة جنيه، جلس الجميع بصحبة لوتز صديقهم، المصدر الأول للشمبانيا والهدايا الثمينة، فى جوّ أسطورى، رائحة المبخرة الموجودة فى ركن القاعة تفوح بالحشيش الجيد القادم من الصحراء.. ثريا تضىء عبر مصباحين اثنين فيها، القاعة ذات إضاءة هادئة تنعكس من خلال الكريستالات الرائعة المدلاة منها، سجادة سميكة تغطى تقريبًا كل القاعة.. وعلى تلك الطاولة الرخامية تجمَّعت زجاجات الوسكى والشمبانيا والثلج.. وذلك الصوت الذى تسمعه القاهرة كلها ينبعث من الراديو الموجود فى ركن القاعة.. صوت أم كلثوم، لكن هذه المرة، صوتها يعانق أسماع مجموعة من ضباط الجيش.. فى حفلتهم الشهرية التى أطلق عليها «حفلة العزَّاب».. يبدو أنها حفلة واعدة بالفسق، ، على تلك السفرة الموجودة بالقرب منهم، انتهى السفرجية من وضع آخر طبق رئيسى للعشاء.. إنه مكسو بالحمام المحشى.. وبجانبه طبق عليه ديك رومى محشو بالمكسرات.. أكثر من ثلاثين صنفًا على المائدة.. «مستحيل.. إن مرتب كتيبة كاملة يكاد يكفى لإقامة مثل هذه المائدة».. هذه المعانى دارت بسرعة فى رأس لوتز

لكن سرعان ما عاد إلى صمته وابتسامته وتركيزه فيما يدور من حوار، فمثل هذا النوع من الحفلات ملىء بالمعلومات المحببة إلى لوتز.

مع صوت الترحيب بدخول ضيف جديد، نظر الجميع إلى القادم.. وإذا به اللواء فريد عثمان، والذى ما إن رأى «لوتز» حتى صاح قائلاً: «أهلاً بك أيها الجاسوس، ألَمَ تُعلن التوبة بعدُ... ها ها ها».

نظر لوتز وحرّك رأسه في استسلام وقال: «حسنًا هذه محاولة ابتزاز قمت بالاستعداد لها.. هناك صندوق شمبانيا فى السيارة أحضرته حتى أعْربَ عن امتنانى لك يا فريد ويا محسن على ما قمتما به.. لقد كدت أن أهلَك أنا وڤالترود»،... وأخذت الضحكات تتعالى.. لكن صوتًا هامسًا لرجل هادئ الملامح يبدو من زيّه أنه ضابط بحرى ذو أربع شارات كان يناول ضابطًا آخر فى رتبة عقيد كأس وسكى ويقول له: «معقول تهريب الحشيش بيجيب كل الغنى ده.. أنا حطلب نقلى للسويس، يمكن ينوبنى من الحب جانب.. بدل شوية الجنيهات اللى ما بتقضينيش لآخر الشهر دية».

انتبه لوتز لما قيل وللرد الذى كان بنفس الصوت الخافت «الضباط أصبحوا أثرياء عن طريق تهريب الحشيش من قطاع غزة إلى القاهرة.. على رأيك الواحد يعمل إيه بالمرتب اللى أقل من مائة جنيه يكفى أولاده وبيته.. أكل وشرب وهدوم وفُسَح واشتراكات فى النادى.. حنعمل إيه بس؟».

أخذ لوتز يفكر فيما سمعه.. آلاف المعانى تدور فى رأسه، فاحتمالية الرشوة فى هؤلاء الضباط ليست بعيدة، فمرتب الضابط لا يكفى ليضع كل هذا الثراء حوله.. البلد يعانى ارتفاع الأسعار ونقصًا فى بعض السلع، والتى هى متوفرة على تلك المائدة المعدّة لهؤلاء الضباط.. لا بد أن يستفيد من هؤلاء الفاسدين فى بعض المعلومات المفيدة.. وفى حركة هادئة أخرج

لوتز علبة سجائره وهمَّ بإشعال سيجارة ينفث دخانها ليرى حظَّه من هذه السهرة وإذا بيد عثمان تمسك بيده ويقول: «تمهَّل . . » وأخرج علبة خشبية من أسفل المقعد الذى كان يجلس عليه وفتحها وإذا برائحة فوّاحة وأخذ يلف بعض محتوياتها فى ورق سجائر ويقول وهو يضع عليها بعض التبغ: «هناك شىء أفضل لضيوفى هذه الليلة»، وناول السيجارة للوتز الذى قام بشمِّها وصرخ ضاحكًا: «أوه حشيش، إننى أخالف القانون بهذا العمل»، وتطايرت الضحكات . . .

هناك نوع من الرجال يُفكر فى زيادة دخله وفاعليته فى عمله وتحسين مستوى حياته وأسرته، لكنه يهرب من الواقع بالحشيش الذى يسيطر على عقله بشكل دائم، آلاف المصريين فى هذه الأوقات يتركون أسرهم يتضورون جوعًا ليدَّخروا بضعة جنيهات لمتعة الحشيش الذى أصبح عادة شبه يومية

قاطع صوت عبده تلك الحالة من الهدوء والتمايل مع صوت أم كلثوم ورائحة الحشيش قائلاً: «كيف تحلو السهرة بدون نساء، أين فتياتك يا باشا؟».

ردَّ عثمان: «المصدر قريب . . اذهب أنت وهذا الوسيم الأشقر إلى فندق الكوزموپوليتان واحصلا على المدد من الحسناوات هناك فى نادى الشمبانيا».

نادى الشمبانيا فى ذلك الفندق من الأماكن الليلية الباهظة الثمن، اكتسب شهرته منذ أيام الحكم الملكى، عارضات أزياء روما وباريس يعتبرونه محطة رسمية لهن ويتبارين بسحرهن فى الرقص فيه وطبقة الباشاوات والبهوات من

زوَّار هذا الفندق الساحر، لقد تغيّر الحال قليلاً منذ الثورة، فقد أصبح هذا الفندق الآن حانة رديئة السمعة من الدرجة الثالثة، زبائنه أغلبهم من السيّاح.

وصل عبده ولوتز إلى الفندق واتفقا على أن يشربا أولاً فى ذلك البار الخشبى الرائع الموجود على يسار الداخل إلى بهو الفندق.. فجلب الفتيات يتطلب ذلك أولاً.

جلسا على البار، ونادى عبده بيده لرجل البار الذى كان يقوم بتنظيف أظافره بآلة غريبة قائلاً: «سعيد.. كاسين وسكى دوبل، ما تدينيش من القزايز المضروبه دية، قزازة جونى وولكر من فضلك وخلينى أشوفها قبل ما تفتحها.. يا حرامى».

توجهت إحدى الفتيات على البار إلى عبده ـ فتاة سمراء ممشوقة القوام لكن نظرتها وملامحها تبدو مرهقة جداً مع مكياچها الردىء..، وقالت له: «لو لوحدك.. أونّسك».

ضحك عبده وقال: «عايزين ثلاثة وانت طبعًا.. البيت مش بعيد..».

نظرت له بإعجاب وللوتز وذهبت لإحضار صديقاتها.. ونظر لوتز لعبدو بإعجاب وقال: «يبدو أنك ذو خبرة فى هذا المكان!».

فردّ عليه عبده بسخرية: «إن خبرتى تتضاءل أمامك يا لوتز فأنت وأصدقاؤك الألمان زبائن دائمين هنا فى البار».

شربا وأخذا الفتيات واتجها إلى باب الفندق وإذا بمشاجرة بين نادلين ورجل ضخم المنكبين ذى ملامح أمريكية، استطاع أن يتخلص من أيديهما

وصرخ بصوت عال: «دع يدك عنى . . يا ابن الكلب إنت وهوّ، أين هى؟ أين هذه الساقطة المتعفنة؟».

إنه أحد الضباط العاملين فى السفارة الأمريكية التى لا تبتعد كثيراً عن هذا المكان . . وتابع هذا الشخص فى صراخه: «لقد أنفقت سبعة جنيهات على هذه الساقطة اللعينة وقد وعدتنى بأن تأتى معى إلى خارج حيث كنا معًا فى البار . . أين هى؟».

حاول لوتز تهدئته حيث كان يعرفه . . إنه «بيل» صديقه الدائم فى البار . . لكن محاولاته باءت بالفشل، فتركه وتحرك مع عبده والفتيات . . وبعد خطوات شاهده وهو يرفع مديًّه فى الهواء ويقول: «أنصتوا لى يا أولاد الزناة، إذا لم تأت معى هذه الساقطة وتعطينى الجنيهات السبعة فسوف أقطع ردفها بثمن هذه الجَنيهات . . أفهمتم؟!».

مرّ الوقت سريعًا فى تلك الليلة مع الأصدقاء وفتيات الهوى وصوت أم كلثوم ودخان الحشيش . . ومع الراقصة التى جلبها أحد الضباط حيث كانت تبدو بلباسها الشرقى كقطعة كريستال، تلبس صدرية مزخرفة وسروالا تحتيًا ببطانة وهو ما يدعى بـ «ستارة ناصر» وهو غطاء قاتم يوضع على بطن وظهر الراقصات، حيث فُرض بالقانون لبضعة أشهر .

أخذ كل واحد فتاته إلى ركن أو غرفة من غرف المنزل . . ما عدا لوتز الذى أعلن لأصدقائه: أنه يفضل أن تكون ڤالترود زوجته هى من تحصل عليه.

فى حقيقة الأمر كان لوتز يتمنى تلك الفتاة السمراء، يشتهيها كما لو كانت معلومة سرية مهمة يودّ الحصول عليها من عدوّه . . لكن القاعدة التى

تعلمها واعتاد أن يطبقها . . هى أن يبتعد عن النساء وأن يتحكم فى غريزته، لربما استطاع فى مرة أخرى أن يقابلها فى فندق الكوزموپوليتان الذى يرتاده من آن لآخر . .

وسرعان ما انصرف وعاد إلى منزله ولم ينس بالطبع أن يمرَّ على ڤالترود ويأخذها من عند صديقاتها حيث كانت تسهر معهن فى حفلة من حفلات الطبقة الأرستقراطية .

وطوال الطريق كان لوتز يُفكر فى تلك العبارة الأخيرة التى سمعها من فريد حيث طلب منه هذا الأخير أن يتجسس على بعض الخبراء الألمان الذين سيصلون خلال الأيام القادمة، ليتأكد ما إذا كانوا جديرين بالثقة أم لا للعمل فى هذا المشروع العسكرى المهم .

لكنه سرعان ما نفض عنه هذه الحالة وأخذ يعمل طقوسه الاعتيادية قبل أن ينام ويترك الأمر كله للدراسة والتمحيص .

الخميس الثانى من ديسمبر ١٩٦٤
المعبد اليهودى ـ شارع عدلى

السادسة مساءً موعد الاجتماع الطارئ لمجموعة من اليهود المصريين الذين أخذوا يحضرون فى قاعة سرية أسفل المعبد أعدت خصيصًا لاجتماعات المنظمة اليهودية العالمية من آن لآخر . . حالة من الترقب والخوف على وجوه عدد من الحاضرين بملابسهم العادية وكلٌ ينظر فى ساعته التى يضعها فى جيب الصدرية، وتتدلى منها سلسلة ذهبية مربوطة بزرّ صغير

فى نفس الصدرية . . أصوات هامسة بعضها مستنكر وبعضها يتساءل بخوف عن المستقبل والبعض الآخر يقرأ المنشورات التى وزعت عليهم عند دخولهم المعبد، والتى تحتوى على شعارات خاصة بالهجرة وبالتبرع وبالأرقام التى وصلت للهستدروت أو لهيئة بناء المستوطنات فى إسرائيل . .

طرقات على الطاولة الأمامية وصوت أحدهم يقول: «هدوء . . بنرحب بضيوفنا من منظمة الكيرن هايسود والكيرن كيميت ، بنقول لهم حمد لله على السلامة ومستنيين منهم يطمنونا على وضع اليهود فى العالم وعلى بلدنا إسرائيل اللى مستنيانا كلنا نهاجر إليها ويتلمّ شمل اليهود كلهم فى العالم بعد سنوات وسنوات من العذاب والشتات والقرف . . .

أحد الحاضرين يقف ويُعلن عن رأيه قائلاً: «القرف والعذاب مش شايفينه هنا، يمكن ده موجود فى البلاد التانية، يبقى نهاجر ليه؟».

أحد الحاضرين فى أقصى اليمين يقف ويردّ بقوة: «إنت مش شايف كل يوم حدّ يتخطف وحدّ يقتله البوليس وحدّ تتصادر فلوسه وممتلكاته إنت مستنى إيه . . ».

عادت الطرقات مرة أخرى تطلب الهدوء وبدأ الحديث من على المنصّة، رجل فى الخمسينيات من عمره ملامحه روسية، يتحدث بلغته ويترجم له أحد الجالسين على نفس المنصّة . . «برحب بيكم وباتمنى تسمعونى كويس، بلدنا وأهلنا محتاجين فلوس زيادة على إللى وصلّهم . . أمريكا بعتت لحدّ دلوقتى مائتى مليون دولار فى السنوات الخمس الأخيرة، كلهم راحو لبناء المستوطنات والوحدات السكنية اللى حتسكنوا فيها لما توصلوا

بالسلامة للوطن . . أما ألمانيا فبحسب اتفاقية لوكسمبورج(*) اللى كانت بينا وبينهم علشان اللى عملوه فينا فبعتت لحدّ دلوقتى ٥٠٠ مليون دولار .

و النمسا بعتت ٥٠ مليون بعد آخر مفاوضات مع الحكومة هناك . .

أنا بطمنكم كل حاجة محسوبة ومتأيدة ، إنتم بتساعدوا نفسكم قبل أى حد تانى » .

أحد الحاضرين يقف ويُعلن فى سخط قائلاً : «أمال الفضايح اللى بتكتب عنها الصحافة هناك فى إسرائيل تبقى إيه . . سى عاموس بن جوريون اللى اختلس من أموال الجبايات والتعويضات هوّ والمقاول صحبه ده «يشعيا بركونى» اللى اغتنى فجأة بـ ٣٦ ألف ليرة إسرائيلية ولولا «جماعة المتطوعين»(**) ما كانش حد عرف ده» . قامت إحدى اليهوديات ، وهى شابة بدت عليها علامات التمرّد وقالت : «وكمان اللى نشرته صحيفة هاتسوفيه - الدكتور إسرائيل بيير(***) اللى اكتشفوه هناك إنه جاسوس . .

(*) اتفاقية لوكسمبورج : بين ألمانيا وإسرائيل وقعت فى ٢٠ سبتمبر ١٩٥٢ تدفع ألمانيا بموجبها ٨٢٠ مليون دولار بدلاً من الرقم الحقيقى المقدر بعد هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية بـ ٦٠٠ مليون دولار فقط رغم أنه لم تكن هناك علاقات أو تبادل دبلوماسى بين البلدين أو حتى تجارى - بعض هذا المبلغ كان فى صورة مواد خام كالحديد والأنابيب والقمح والسكر والآلات الزراعية .

(**) جماعة المتطوعين مجموعة مثقفين وقفوا لحالات الفساد فى ذلك الوقت ١٩٦٢ . . . وهى قضية فساد حقيقية .

(***) كان يشغل منصبًا رفيعًا فى وزارة الدفاع أثناء حرب ١٩٤٨ - وهو عضو بارز فى حزب «الماباى» وأستاذ تاريخ الحروب فى جامعة تل أبيب والمسئول عن كتابة حرب ٤٨ فى وزارة الدفاع .

إزاى عايزنا نروح نقعد هناك فى الفساد ده، يعنى من همّ لهمّ يا قلبى لا تحزن.

بدأت الأصوات تتعالى وسادت الفوضى لبضع دقائق كاد الاجتماع فيها أن يُلغى.. لكن الجميع عادوا إلى مقاعدهم بعد أن همّ عدد كبير منهم بالانصراف وعاد المتحدث يقول: «يا جماعة كل ده مرصود وما نقدرش نمنعه.. بس وجودكم هنا خطر أكبر عليكم.. إحنا عندنا معلومات بتقول إن كل ممتلكاتكم حتتصادر وحتترموا فى السجون.. إلحقوا وبيعوا اللى تقدروا عليه بأى ثمن، لكن ياريت تحتفظوا بالجنيزة، علشان حتنفعنا فى يوم من الأيام.. وبعدين لازم يزيد حجم تبرعاتكم.. وشكرًا».

بدأت الأصوات تتعالى فى القاعة والفوضى تدبُّ فى الصفوف لكن صوت الطرقات عاد مرة أخرى ليطلب الهدوء، والاستماع لهذه المرة لذلك الأصلع الذى يتحدث العبرية بلهجة أشكنازية والذى بدا واثقًا فى حديثه عن عدد اليهود فى العالم.. كل ذلك بالأرقام وبرؤية واثقة حيث استطرد قائلاً:

«أما اليهود فى الدول العربية وغير العربية، الحبشة فيها ١٢ ألف يهودى، المغرب مائتا ألف، وتونس ثمانون ألفا وإيران بَرْضه زيهم وأما العراق ففيها ستة آلاف، ولبنان زيهم، وسوريا خمسة آلاف، واليمن ثلاثة ونص، أما فى مصر، طبعًا إنتو عارفين إنتو أربعين ألفًا من أصل ثلاثة وعشرين مليونًا وأربعمائة وعشرة آلاف مصرى؛ يعنى ٢ فى المائة من الإجمالى، أما مجموع السكان فى إسرائيل لحد سنتين بس، اثنين مليون ومائة وسبعين ألف كلهم يهود ما عدا مائتين وسبعة وثلاثين ألفًا بس غير يهود، طبعًا حاولنا نزيد من

الهجرة على قد ما قدرنا علشان تبقى الأرقام الديموغرافية لصالحنا. . انتم ما عندكوش حل تانى للضغوط والعداء اللى إنتو عايشين فيه هنا، غير الهجرة للوطن. . إسرائيل».

أنهى الرجل حديثه واستعدت المنصة لسماع الأسئلة من المجتمعين حيث قام أحد الجلوس وسأل: «يا ترى يا حضرة اليهودى الروسى، لما أسافر أنا وأسرتى حاقدر أتعامل زيك وآخد حقى فى المناصب الكبيرة اللى بتشيلوها للأشكنازيين بس؟».

قام آخر وقال: «صحيح قصة الراجل اللى اسمه «أدولف إيخمان» اللى حرق أكثر من ٦ ملايين يهودى وهرب إلى البرازيل؟ سا يبينو ليه؟ هل ده له علاقة بالمشاكل الموجودة دلوقتى مع البرازيل؟».

قام آخر وسأل: «مين اللى أمر بعملية «لافون»(*) هل هو بنجاس لافون ولا شيمون بيريز هو ورئيس الأركان «حاييم لاسكوف»، وليه بن جوريون مش عايز يأخذ موقف واضح؟ ليه الغموض فى المواقف دية؟».

حالة من الصمت سادت القاعة للحظات، ريثما دوّن المتحدث على المنصة كل الأسئلة وبدأ بالترجمة للرجلين، اللذين انهمكا فى الرد بصورة قد تبدو مقنعة. . والجميع يُنصت ويسرح بخياله خارج القاعة إلى المستقبل الذى ينتظره.

(*) كانت عملية تخريبية لبعض السفارات الأجنبية فى مصر عام ١٩٥٤ وظلت مستمرة حتى أواسط الستينيات في جدل إعلامى.

الجمعة الثانية من يناير ١٩٦٥ ـ القاهرة

حالة من الهدوء النسبى تنتاب ذلك الميدان الرئيسى فى القاهرة . . حيث باب الحديد، محطة القطار التى تأخذ الناس من العاصمة فى خطوط طويلة إلى الشمال وإلى أقصى الجنوب من مصر . . المترجلون فى هذا الميدان يُمكن بنظرة متفحصة معرفة وجهتهم، من أين وإلى أين سيذهبون، خاصة العسكريين، فأول ما يُلاحظ عليهم إذا كانوا قادمين من وحداتهم العسكرية زيهم غير المهندم، وهم غالبًا لا يحملون حقائب يدوية وأيضًا يعلوهم الإرهاق، أما إذا كانوا قادمين من قراهم أو بلادهم إلى وحداتهم فغالبًا ما يحمل العسكر أكياسًا فيها بعض الأطعمة البيتى ـ وتكون ملابسهم وملامحهم فى أفضل حال .

مع وجود الشرطة العسكرية بوحدة دائمة فى الميدان بالقرب من نهاية خط الترماى إلا أنها لا تستطيع خاصة يوم الجمعة السيطرة على أعداد الجنود والضباط العابرين للميدان والمسافرين فى إجازة اليوم الواحد . .

بعضهم كان يصر على أن يمر أمام تمثال رمسيس الواقف فى شموخ وسط الميدان كأنه حارس لهؤلاء المارّة، مع أن هذا ربما يكلِّفه ضياع هذه الإجازة إذا ما وقع فى أيدى الشرطة العسكرية المتربصة هناك بكل من يلبس الزى العسكرى . . وخاصة فى هذه الأشهر التى يُعانى منها الجيش حالات الاستعداد للمرحلة القصوى الدائمة أو المؤقتة من آن لآخر . .

فى ذلك الميدان وفى يوم الجمعة من كل أسبوع اعتاد لوتز القيام بنزهة بطول شارع رمسيس بسيارته الفارهة الفولكس فاجن .

حيث لا مانع من الوقوف قليلاً، بافتعال عطل ما فى السيارة ليستطيع فى بضع دقائق وضع ملاحظات عامة على حركة العسكريين فى الميدان من حيث العدد والنوع ضباطًا كانوا أو عساكر أو صف جند، ، إنها نزهة أسبوعية تمدُّه بمعلومات مهمة جدًا عن وضع الجيش وحالة الاستعداد فيه . .

* * *

لقد اكتسب لوتز دربة عالية فى ملاحظة الأحداث والتعرف على اتجاهات الرأى العام المصرى، وعلى تحليل المواقف وحتى النكات التى يطلقها رجل الشارع ولم تسلم صفحات الوفيات وكذلك الحوادث من قراءة متفحصة يقوم بها لوتز ويستخرج منها كمًا من المعلومات بحرفية شديدة .

وعند عودة لوتز إلى ڤيلته فى حى الهرم الهادئ وفى ذلك المساء بدت عليه علامات التفكير والاضطراب . . حاولت ڤالترود سؤاله بهدوء مع ملعقة السكر الأولى التى وضعتها له فى كأس الشاى . . لكنه بدا متحفظًا على الرد بإجابة مقتضبة «إنها كارولين من جديد يا ڤالترود . . والليلة سآخذ بشأنها قرارًا» .

فهمت ڤالترود أن تلك المزعجة التى تزوجت عالم المصريات «هينريتش ولتير» عادت لمضايقة لوتز بأسئلتها الغبية لأصدقائه من الضباط والمسئولين وكذلك الخبراء الألمان أثناء الحفلات والسهرات التى يجد لوتز فيها نفسه مضطرًا لدعوتها مع زوجها، لكنها فى الآونة الأخيرة، بدأت تتدخل بشكل مباشر فى حوارات لوتز مع ضيوفه، وخاصة عند الحديث عن الصواريخ أو

الوضع العسكرى وتسأل أسئلة مباشرة عن مواقعها وعدد قواتها . . . ، وعندما تكون ثملة لاحظ لوتز أنها تتحدث اللغة اليِدْية ! ؟(*) .

مع أنها تدَّعى أنها نصف مجرية ونصف ألمانية ، وهى أيضًا بالرغم من سكنها فى الجانب الآخر من القاهرة إلا أنها حرصت على الحصول على عضوية نادى هيليوبوليس الذى يبعد عن سكنها مسافة ساعة بالسيارة ، كل ذلك من أجل مقابلة زوجة كارل كنابفر ، والتى تجد نفسها مضطرة لدعوتها إلى منزلها فى مدينة نصر أحيانًا بالرغم من انزعاج زوجها من هذه الضيفة الثقيلة التى طالما شكا للوتز تصرفاتها ، خاصة يوم أمس عندما أتى كارل كنابفر للوتز فى حالة من الغضب والخوف وشكا له ما قامت به كارولين عندما كانت فى زيارة لزوجته ، وغافلتها وتسللت إلى غرفة مكتبه حيث كانت نافذته مغلقة دائمًا وعندما بحثت السيدة كنابفر فى أرجاء المنزل وجدتها هناك وقد قامت بفتح النافذة والتقاط بعض الصور منها حيث كانت مطلة على وحدة عسكرية هناك .

وعندما سألتها عن ذلك قالت فى تلعثم وارتباك إنها تبحث عن كرة طفلها الصغير . .

لقد أكد كنابفر للوتز بأن كارولين تعمل جاسوسة لإسرائيل وبحكم الصداقة القوية بينه وبين لوتز ، نصحه بتوخى الحذر منها داخل مصر . . وذكر له بأنه يعتزم إبلاغ السلطات المصرية . .

(*) هى لهجة من لهجات اللغة الألمانية تكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية وينطق بها اليهود فى الاتحاد السوفييتى وبلدان أوروبا الوسطى وتُكتب بأحرف عبرية .

في هدوء بالغ قلَّب لوتز ما قاله صديقه الألماني الذي يعمل لدى وزارة الحربية المصرية كمستشار لبرنامج الصواريخ المشترك بين مصر وألمانيا، وبهدوء قام إلى غرفة المكتب وأخرج جهاز اللاسلكي وكانت الساعة قد قاربت الثانية بعد منتصف الليل. وشرع يكتب رسالة عاجلة إلى تل أبيب يطلب فيها باختصار ويقول:

«عاجل جدًا، أوقفوا كارولين بولتر، ضُبطت متلبسة وهي تصور مكتب كنابفر من نافذة حجرة المكتب، كنابفر وافق على ترك الموضوع لي، لن أخبر السلطات أوقفوها، يبدو أنها تعمل لحساب منظمة».

وفي ظهر اليوم التالي قابل لوتز كنابفر فأخبره بأنها سافرت في الصباح الباكر مع طفلها، فوالدتها دخلت المستشفى وطلبت رؤيتها قبل موتها، وفي المساء قام لوتز بضبط جهاز الراديو على الموجة المعتادة وتسلم رسالة تقول:

«شكرًا تم إيقاف ٤٠١ وإجراء اللازم».

* * *

نادي الفروسية بالجزيرة

مرت عدة أسابيع على آخر حفلة من حفلات العزاب حضرها لوتز والتقى فيها بأصدقائه، واليوم سيلتقي بصديقه فريد عثمان، وفي أثناء الطريق إلى النادي كان كل ما يشغل لوتز هو ردّه على طلب فريد عندما كانا في حفلة العزاب الأخيرة حيث طلب منه مراقبة الخبراء الألمان الجدد ومعرفة

ما إذا كانوا مخلصين أم لا ومنهم كارل كنابفر، وما هى إلا دقائق، حيث تقف سيارته أمام النادى، حتى اتجه لوتز إلى تلك الاستراحة الموجودة هناك حيث ينتظر فريد الذى ما إن رآه حتى هبَّ واقفًا وأخذ فى التلفظ بعباراته الشهيرة «يا رستى أيها العجوز. . أيها الجاسوس الحميم. .».

لوتز وهو يصافح عثمان بحرارة هادئة: «اهدأ يا صاحبى لربما سمعك أحدهم وصدّقك. . آه. . آه. . آه».

فريد: «لا عليك تعال اجلس هنا، ما الأخبار؟».

لوتز: «كل شىء على ما يرام».

فريد: «وماذا عن أصدقائنا الجدد؟».

لوتز: «أوه، بشأن طلبك يا فريد لم أنس، لقد قابلت ما يكفى ممن جاءوا فى الأسابيع الماضية، ماذا تريدنى أن أخبرك به عنهم؟».

فريد: «لنبدأ بكارل كنابفر».

لوتز: «لقد أتى فى الدرجة الأولى، وهو من ذاك النوع الذى يسيطر عليه الخجل إلا أنه صارم فى تعاملاته وهو لا يتكلم عن عمله خارج مكتبه».

فريد: «عظيم، وماذا عن رأيه تجاه النظام المصرى؟».

لوتز: «إنه ينتقد نفسه إذا لم يجد ما ينتقده. . ولا يثبت على رأى، وقد لاحظت خلافه على مدى جدِّية من يعملون معه خاصة المصريين فهو دائمًا ما يشكو ذلك لى».

فريد يصمت قليلاً ويقلّب الكلام فى رأسه وفى حركة مفتعلة يوجِّه دفة الحوار إلى الشأن الخاص والأهم المشترك بينه وبين لوتز. . فيقول: «ما أخبار الشمبانيا يا صاح؟».

فهم لوتز أنه نجح فى خلق جو من الشك حول المهندس كارل كنابفر وهو بذلك يضعه تحت المجهر، فالأيام القادمة سيشهد الرجل فيها عدداً من الضغوط والمضايقات بسبب عدم الثقة التى وضعها لوتز بين فريد عثمان رجل الأمن الأول فى المصانع الحربية الخاصة بالصواريخ وكبير الخبراء الألمان.. فكم من المشروعات أهدِرت بسبب عدم الثقة المتبادلة بين الخبراء الأجانب وأصحاب العمل.

وقبل أن يُنهى لوتز ذلك السجال من النكات بينه وبين فريد لم ينس بأن يدعوه لحفل عيد ميلاد زوجته ڤالترود حيث يستعد له لوتز من الآن؛ فهو فى الشهر القادم...

* * *

حفلة عيد الميلاد دخلت يومها الثانى وغداً اليوم الثالث.. قائمة كبيرة من المدعوّين لڤيلا غالب فى الهرم، حيث يُقيم لوتز مع زوجته التى بلغت السنة الثالثة من عقدها الرابع.. كان اليوم الأول مخصصاً لأصدقائهم الضباط المصريين وبالطبع ملىء بالمعلومات خاصة عندما سأل لوتز عشيقة العميد البحْرى عن عدم حضوره، فأجابته: «لقد كان على وشك الحضور لكن استدعاءً بشكل مفاجئ تلقاه من العمل جعله يأخذ حقيبته ويتجه إلى السويس».

أما الليلة الثانية والثالثة فكانت للخبراء الألمان والأصدقاء المهندسين النمساويين.. وأغلبهم متخصص فى بناء الطائرات..

دارت سجالات بينهم، بعد أن شربوا كميات من الوسكى، حول مرحلة الاختبار للطائرات المقاتلة إتش آى ـ ٣٠٠ والتى طالت لمدة ست سنوات وتم إنفاق أكثر من خمسمائة مليون جنيه عليها حيث اتهم المصريون الخبراء

الأجانب بالإهمال، وقام الخبراء من جانبهم بإلقاء اللوم على المصريين، وكلما التقى جمع منهم، كان هذا هو الموضوع الرئيسى، حتى ولو كان فى عيد الميلاد.

الجميع هنا فى هذه الليلة الواعدة بالشراب والسُكر «ستينجل، ڤوجلسانج، برينر، هوفمان، هيرتز. . » لكن أين كنابفر. . لقد اعتذر عن الحضور. . بدأت الموسيقى تنتشر لتداعب أسماع المدعوين. .

الكثير من الطعام والشراب على البوفيه الذى جلس بالقرب منه ستينجل المسئول عن صناعة المحركات. . ووجه يمتقع حمرة بمرور الوقت من كثرة الشراب حيث بدأ يترنح فى جلسته وهو يصرخ بأعلى صوته: «حسنًا لقد استغرق الأمر أطول مما يجب» ووضع الكأس من يده بشدة على البار وقال: «من الطبيعى ما يحدث فلسنا مصنع سيارات أو ألعابًا نارية، إننا نخلق نوعًا جديداً من الطائرات سيخلق ثورة فى مجال حرب الطائرات فى الشرق الأوسط، ولا يستطيع المرء فعل ذلك بين يوم وليلة».

ضحكات ڤوجلسانج تتصاعد فى سخرية قائلاً: «يوم وليلة. . ها!؟ إذن لماذا يتعطل هذا المحرك اللعين فى كل مرة. . ولا يحدث هذا مرة أو مرتين. . أوه آسف أرجوك اشرح ذلك. . !!».

أسند لوتز ظهره إلى البار وتابع ما يحدث من أمرٍ مسل أمامه وأطرق سمعه لذلك الحوار.

ستينجل يصرخ بأعلى صوته: «أنت أحمق، من قال لك أنك مهندس؟ أنت لا تهتم إلا بجدول المرتبات والتوقيعات».

أنت تتحدث كبعض هؤلاء المصريين الذين أضطر للعمل معهم، إن الغرض من مدة الاختبار هو كشف عيوب التركيب ومن ثم إصلاحها وإذا كان لديك قدر قليل من المعرفة لعرفت بأن ذلك يحتاج إلى مئات المرات من التعديلات والتجارب».

ڤوجلسانج: «لن تنال شيئًا من سبِّى وأنا أعرف أنك لست تقنيًا وأنت السبب فى تأخيرنا، ستجد فى المصنع هيكلاً كاملاً للطائرة التى لا ينقصها سوى محركك اللعين».

ونظر لمن فى القاعة وصرخ فيهم قائلاً: «هل من فى المصنع من يعلم ذلك؟».

وبدأ خلال العشرين دقيقة القادمة فى شرح موجز ودقيق عن إجراءات الإنتاج والمعلومات التقنية المضافة.

ذهب لوتز إثر ما قيل إلى الحمام وبدأ فى تدوين كل ما ذُكر أمامه ثم عاد سريعًا وإذا بزوجة ستينجل الشقراء النحيلة تتجه للوتز وتطلب منه قائلة: «من فضلك سيد لوتز لا تعطه المزيد من الشراب فأنت تعلم كيف تسوء حالته عندما يُسرف فى الشراب».

كان ستينجل قد سمعها برغم صوتها الخافت فصرخ فى وجهها وقال: «عليك بنفسك اللعينة، عودى لتنضمى إلى الدجاج ولا تزعجى السيد لوتز وسأريك ما قمت به فى البيت».

ڤوجلسانج يشير بيده ويقول: «سترينْهَا فى البيت!».

فردّ عليه ستينجل: «ماذا تقصد يا ابن الزانية؟» وضرب البار بيده واشتعل

الشجار بينهما وأخذ ڤوجلسانج يصرخ ويقول: «كلنا نعلم بأنك تضرب زوجتك ولكن ماذا تفعل إذا طلب منك ابنك التوقف عن ضربها، ماذا تفعل؟».

ستينجل يأخذ زجاجة من على البار ويكسرها ويتجه إلى عدوه اللدود وهو يصرخ ويقول: «أيها القوّاد الڤينيسى . . سألقنك درسًا فى الأخلاق»، لكن يد برينر تتدخل وتطوّق عنق ستينجل ويقول: «لتصفُّوا حساباتكم فى مكان آخر . . هيا».

ستينجل يصرخ: «ابتعد يا برينر، أنت أيضًا مسئول عن هذا التأخير والإخفاق».

برينر: «ماذا تقصد؟».

ستينجل: «اهدأ لا أقصد الإساءة، لكن هذه مشكلتنا جميعًا إن بقاءنا فى مصر أصبح مهددًا . . إن كنابفر الذى اعتذر عن الحضور اليوم يعيش حالة من الذعر فقد تسلم سكرتيره طردًا انفجر بعد ربع ساعة فى وجهه وهو يشعر الآن بخطر بعد رحيل زوجته.

هوفمان: «للأسف هذا صحيح ففى نفس القسم الذى أرأسه طلب منى مهندسان منذ يوم مضى قبول استقالتهما فى خلال شهر وأنا أبحث عن بديل لهما».

هيرتز: «إن هذا الصيف حرج بالنسبة لنا جميعًا وأشك فى عودة هؤلاء جميعًا من أجازاتهم فى ألمانيا آخر هذا الصيف».

برينر يصيح قائلاً: «ولكن لماذا؟ إنهم يعيشون فى رغد من العيش

يتقاضون رواتبهم التى ضُوعفت ثلاث مرات ويسكنون فى شقق فاخرة ولديهم امتيازات جمركية ـ لا أفهم عقول هؤلاء!».

هيرتز: «بالنسبة لعواجيز مثلنا فهذه أسباب لاستمرارنا هنا أما هؤلاء المهندسون فهم شباب لديهم أفكار مختلفة، لقد أيقنوا بأنه لا مستقبل لهم هنا فالحال متجمد ولا يوجد تقدم وهناك فساد سياسى وخوف مما حدث لكنابفر».

هوفمان: «هذا هراء خائفون من ماذا؟».

هيرتز: «من التحول إلى ضحايا حرب مع إسرائيل».

أطرق لوتز سمعه وأشعل سيجارة ثم بابتسامة هادئة علّق قائلاً: «معك حق لكن يجب أن نقف مع أصدقائنا المصريين».

انفجر الجميع بالضحك وعلّق هوفمان: «فليذهب الجميع إلى الجحيم، لقد أعطونا بما فيه الكفاية، لا ندين لهم بشىء فهناك من البلاد ما تحتاج إلى خبراتنا فى الطيران».

هيرتز يردّ باستهزاء: «من المحتمل أن تجد عملاً فى إسرائيل».

وتتعالى الضحكات ويرد هوفمان: «ولمَ لا؟ أنا مهندس ولست سياسيًا وإذا ما دفعوا لى فلن أتردد أيها اللعين».

برينر: «لقد ضجرت من هذا الحديث. . إننى سأعود إلى المنزل»، وألقى بالكأس الفارغة من يده باتجاه الحائط.

تبادل الجميع عبارات هزلية وانصرفوا فى أقل من ثلاث دقائق.

سارع لوتز بعد التأكد من انصراف الجميع حيث كان آخرهم سمير حنا تادرس وموريس صاحب الإسطبل . . سارع إلى غرفة المكتب العلوية وبدأ فى وضع أحدث تقرير له عما حدث وعن الوضع الحالى لصناعة الطائرات، والذى لا يختلف كثيراً عن وضع الصواريخ .

* * *

فبراير ١٩٦٥ ـ مرسى مطروح

مضت أسابيع ولم يرَ لوتز صديقه الحميم اللواء يوسف العدل الذى أصبح محافظًا لمطروح . . وها هو لوتز يستعد بعد دقائق لمقابلة صديقه فى عزبته، وقد اصطحب معه زوجته ڤالترود ووالديها وصديقه كنابفر . . لقد قضى لوتز فترة طويلة فى قيادة السيارة، والتى كان يتبعها كنابفر بسيارته الخاصة، وعند مدخل العزبة فوجئ الجميع بفرقة من الحرس المسلحين يقفون فى تشكيل بالبنادق بالقرب من البوابة ويحيون الضيوف مع صوت البوق، وظهر اللواء يوسف وهو ينزل درجات السلم مبتسمًا فى وجه ضيوفه مرحبًا بهم . . وبعد تناول الغداء وتبادل عبارات المرح بين الجميع، حاول اللواء يوسف إقناعهم بالبقاء مدة أطول من اليوم الواحد الذى ينوون مكوثه قائلاً : «يا رستى ماذا؟ يوم واحد؟ لدى من وسائل المتعة هنا الكثير، دعنى أردّ لك بعضًا مما أنا مدين لك به، أرجوك، ستستمتع بالخيل وبركوب الجمال . إنك تحتاج على الأقل أسبوعًا أو أسبوعين، كما أن ابنتى حنان تودّ أن تشكرك على السعادة التى تسببت لها فيها» .

بدت الدهشة واضحة على وجه كنابفر ووالدى ڤالترود مما قاله اللواء يوسف الذى قام بدوره فى شرح ذلك قائلاً: «إن لدى ثلاث بنات وكنت أتمنى ولداً لكن هذا عطاء الله، هن جميلات وذكيات، لكن ابنتى حنان الصغرى، والتى تبلغ تسعة عشر عاماً تعانى أنفًا معقوفًا مما سبب لها إحباطًا كبيراً، وهذا أمر محرج للفتاة، لكن صديقى العزيز لوتز، والذى لا أعرف كيف أكافئه وجد لى بروفيسوراً ألمانياً متخصصاً فى التجميل، أجرى عملية ناجحة وموفقة لحنان حيث كانت هذه هدية لوتز لحنان فى عيد ميلادها.. ستروں جميعكم بعد لحظات حنان.. لكن أرجوك يا لوتز ابق معنا أطول فترة ممكنة».

حاول لوتز بعبارات مهذبة رفع الخجل والامتنان عن صديقه وأكد له أنه سيسافر بعد ثلاثة أيام لألمانيا مع والدى ڤالترود بسبب علاجها الستوى هناك..

وقضى الجميع يومين من الحب والإخلاص والضيافة المصرية والمشاهد الخلابة الموجودة فى صحراء مرسى مطروح.. وفى الصباح الباكر ٢٢ فبراير لليوم الثالث انطلقوا عائدين للقاهرة وعند الوصول انحرفت سيارة لوتز فى أحد شوارع الهرم فى اتجاه الڤيلا وأكملت سيارة كنابفر باتجاه منزله فى مدينة نصر، وبعد لحظات توقفت الڤولكس ڤاجن الخاصة بلوتز أمام الڤيلا، وإذا به يرى أربع سيارات مليئة بالرجال الذين يلبسون بزات زرقاء تتوقف وينزلون باتجاه لوتز الذى كان أتم إغلاق سيارته واتجه لباب الڤيلا مع ڤالترود ووالديها..

* * *



وإذا بالرجال يحيطون بلوتز عند الباب وصرخ أحدهم وهو رجل قصير ضخم يلبس نظارة سوداء بالرغم من أن الشمس لم تكن ساقطة ذاك النهار، «هيا اربطوا يديه وأدخلوهم جميعًا إلى الڤيلا قبل أن يلاحظنا الناس».

سُحب لوتز بعد تقييده من قدميه وأدخل الجميع حديقة الڤيلا وأغلق الباب وبدأت حياة جديدة للوتز مع شخصيات لم يكن يحلم بمقابلتها.

* * *

الفصل الثالث

غرة مارس ١٩٦٥ - كوبرى القبة

فى غرفة تحتل الطابق الثانى من مبنى المخابرات العامة جلس على مكتب كبير رجل أصلع متوسط الطول يميل إلى البدانة شيئًا ما، وله شارب كث أسود، بابتسامة عريضة وجه عبارات التهنئة للرائد صلاح قائلاً: «براقو يا صلاح». . .

«أنا قرأت التحقيق بشكل مفصَّل مع لوتز وڤالترود. . . حتى الآن ما قاله كفيل بإعدامه، لكن عايزين نعرف مين من ضباط الموساد اللى كان بيتعامل معاهم، وهل قام بالدور ده لمجرد المال على حد كلامه فى التحقيق؟ أنا مش مقتنع. . . فى نفس الوقت القيادة عايزه نعامله بشكل كويس، وإظهاره للرأى العام وهو بيعترف بعمله كجاسوس وده حيدينا مكاسب على أكثر من مستوى».

الرائد صلاح: «أنا بتابع التحقيق معاه من أول ما قبضنا عليه فى ڤيلته فى الهرم ولحدّ اللحظة مع سمير ناجى، وكيل نيابة أمن الدولة بس لوتز مراوغ، رأى سيادتك نستخدم معاه وسائلنا علشان نعرف التفاصيل اللى بيهرب منها، ولاّ إيه؟».

«هاته لىَّ بعد ساعة»، نطق بها الرجل وأعطى إشارة الانصراف للرائد صلاح الذى اتجه بدوره إلى الدور الأسفل وبعد عشرين سلّمه وفى غرفة صغيرة نوعًا ما، بها مكتب خشبى صغير يجلس عليه سمير ناجى وفى مقابله كرسى صغير، جلس عليه لوتز وضوء البروچيكتور يكاد يخفى ملامحه وقد بانت عليه آثار الإعياء والإرهاق بعد أن قضى أسبوعًا كاملاً فى ضيافة المخابرات المصرية، كانت إستراتيجية لوتز فى اعترافاته التى لم يجد مهربًا منها خاصة بعد أن قرأ فى ملفين كبيرين كل الرسائل التى أرسلها، والرسائل التى استقبلها من إسرائيل الفترة الماضية، وبعد أن كشف سمير ناجى جهاز الإرسال المخبأ فى الميزان الخاص به فى دولاب لوتز وكذلك أقلام التفجير وصابون اللاڤندر شديد الانفجار، بعد كل ذلك كان لوتز يحاول فقط أن يُخفى كونه إسرائيليًا ويهوديًا . .

كان الأمر حتى الآن يبدو منطقيًا أمام سمير ناجى، فدوافع لوتز للتجسس مجرد المال وعقدة الذنب التى أقنع الإسرائيليون لوتز الألمانى النازى أنه سوف يكفِّر عنها بخدماته ومعلوماته لإسرائيل.

سحب الرائد صلاح كرسيًا صغيرًا إلى جانب المكتب، وجلس عليه وبدأ بالحديث بعد أن أشعل سيجارة ونفث دخانها فى الهواء كعادته: «سيد لوتز، هل تود رؤية ڤالترود؟».

لوتز: «أتمنى ذلك».

الرائد صلاح : «هذا حقك لكن عليك أن تساعدنا فى الاعتراف».

لوتز: «لقد قلت لكم كل شىء حتى الآن وليس من مصلحتى أن أكذب . .».



الرائد صلاح : «لقد اعترفت زوجتك بضلوعها فى التجسس وأنها واحدة من أعضاء خليتك» .

لوتز : «هذا هراء! إنها فقط تعلم أننى أقوم بعمل سياسى ما ، وقد طلبت منها عدم سؤالى عنه أبداً ، وقد كانت تفعل ذلك بامتثال» .

الرائد صلاح : « وما يُدريك ربما تكون جاسوسة عليك أنت شخصيّاً؟ » .

لوتز : «مستحيل! كنت سأعرف طيلة هذه المدة ، مستحيل؟ » .

سمير ناجى : «لنحضر ڤالترود ونرى إذن» .

و ما هى إلا دقائق أغلق فيها جهاز البروچيكتور والكاميرا التى تقوم بتسجيل التحقيق وعرض صورة لوتز على جدار آخر بداخل الغرفة بحيث تكون ملامحه أكثر وضوحًا لسمير وصلاح . . ها هى ڤالترود تدخل الغرفة بصحبة أحد الحرَّاس وما إن رأت لوتز حتى ارتمت فى أحضانه وبقيا دقيقة كاملة يتبادلان القبلات والأحضان حتى سمعا صوت سمير الأجشّ وهو يقول: «هيًّا . . لم نأت هنا لنشاهد معًا موعدًا غراميًا، اجلسى بجانبه هنا . . هيًّا».

الرائد صلاح بهدوئه المعهود: «هل ستعترفين الآن سيدة ڤالترود بما أقرَّه السيد لوتز؟ دعينا نكون أصدقاء طيبين معك».

ڤالترود تنفجر من البكاء وتقول بلهجة استهزاء: «أصدقاء طيبون بعد كل ماحدث».

و هنا انتفض لوتز وقال: «سوف أقاضيكم إن كان قد حدث لها أى مكروه».

نظر سمير ناجى للرائد صلاح وضغط على شفتيه ثم قال: «هيا يا لوتز لا تراوغ وأخبر السيدة ڤالترود أن تعترف، هيا».

لوتز: «وماذا بشأن خادمى الذى أسمع صراخه بشكل دائم فى زنزانتى، إنه لا يعرف شيئًا على الإطلاق، إنه مجرد خادم».

سمير يباغته بلهجة حاسمة: «لا تراوغ».

لوتز يتوجه إلى ڤالترود قائلاً: «حبيبتى لا فائدة لقد عرفوا بأننى طيلة المدة الماضية كنت أتجسس لصالح إسرائيل».



وهنا أطرقت ڤالترود للحظات ثم همَّت بالحديث بملامح أكثر هدوءاً، وكأنها كانت طيلة الأيام الماضية ترسم على وجهها أحاسيس وانفعالات مقصودة، وبدأت بالحديث، الذى لم يكن سوى تكرار مختزلاً لبعض ما قاله لوتز.

الرائد صلاح يقف فى نهاية التحقيق ويهمُّ بالانصراف وبعد خطوتين يلتفت لهما قائلاً: «غداً سيكون هناك لقاء تليفزيونى لكما تقومان فيه بالاعتراف بجريمة التخابر وبأنكما نادمان على ذلك، لوتعاونتما معنا سوف يكون لذلك أثر كبير فى طبيعة التعامل معكما بعد ذلك».

انصرف الرائد صلاح من الغرفة، وجاء الحارس وانتشل ڤالترود من مقعدها إلى خارج الغرفة، وبقى لوتز مع سمير الذى كان يتوجس منه خيفة، فسمير على ما يبدو هادئ ولئيم، وهو الذى ضغط على لوتز فى ڤيلته فى الهرم أثناء القبض عليه وأوصله إلى الاعتراف هناك، بعد أن أخرج له جهاز الإرسال المخبأ فى الميزان.. سمير يمارس مع لوتز لعبة العصا والجزرة.. فتارة يمازحه ويقدم له القهوة والسجائر، وتارة يمسك به من قميصه بعنف ويجعل صوته يتسلل إلى أعماق لوتز ليبث الرعب ويكسر مقاومة هذا الأخير لخروج المعلومات منه..

الآن ينظر سمير للوتز بعد أن أطفأ البروچيكتور واقترب منه، وأخذ بقميص لوتز إليه، وقال بصوت يشبه فحيح الأفاعى وبلكنة إنجليزية محترفة: «The Game is Over».

وتابع كلامه بعد أن استدار وعاد إلى حيث يجلس، وأضاء جهاز البروچيكتور من جديد، وأعطى الأمر للكاتب أن يبدأ بالكتابة: «سنبدأ من جديد من الآن وحتى موعدك غداً مع التليفزيون، سأمحو كل شىء من رأسى، وأبدأ معك من جديد...

* * *

كانت الساعة تمام الحادية عشرة صباحًا فى أستديو تليفزيونى لا يبتعد كثيراً عن زنزانة لوتز سوى بضعة أمتار.. وعلى خلفية زرقاء اللون وأمامها طاولة بسيطة وضعت عليها بعض الزهور وحولها ثلاثة كراسى، جلس المذيع فى مواجهة لوتز ووالترود، وبدأ العد التنازلى للتصوير ٣، ٢، ١.



مقدم البرنامج:

سيداتى وسادتى، أهلاً بكم فى هذه الحلقة الخاصة، والتى نقدم فيها إنجازاً جديداً للمخابرات المصرية التى نجحت فى القبض على جاسوسين لإسرائيل، عملاً على إحباط دولتنا والوقوف أمام مشروعاتنا التقدمية ودعم ثورتنا لحقوقنا المشروعة. . .

« السيد لوتز، ماذا تقول للشعب الألمانى؟ كيف كنت تُعَامَلُ من قبل السلطات؟ ».

وفى أداء يدعو للسخرية وحركة مسرحية، استدار قليلاً لوتز قليلاً للكاميرا وقال: «إننى نادم جدًا على ما قمت به، وإننى أدرك الآن فقط أن ما قمت به لقاء المال لا يساوى شيئًا أمام هذه الفضيحة التى ارتكبتها والجرم الذى قمت به، وأنا منذ القبض علىّ لم ألق غير المعاملة الكريمة والقانونية».

وأطرق لوتز هنا قليلاً حيث بدا وكأنه يفكر فى أمر ما، ثم استطرد قائلاً: «إذا كان على الإسرائيليين إرسال جواسيس لمصر فعليهم أن يُرسلوا جواسيس إسرائيليين وليسوا ألمانًا، وليحذر كل الألمان من ذلك فالحرية أثمن بكثير من أموال الإسرائيليين».

واستمرت الأسئلة فى اللقاء التليفزيونى مع ڤالترود، حيث أذيع فى اليوم التالى على تليفزيون الجمهورية العربية المتحدة للعالم كله، وبالطبع كانت أجهزة التسجيل المتابعة ترصد هذا اللقاء الذى استطاع لوتز من خلاله بمكر ودهاء إرسال رسالة للموساد يُعلمهم بما حدث، ويعطيهم المعلومة الأهم.. فهو حتى هذه اللحظة يبدو فى نظر المصريين ألمانيًا فاسدًا، وليس إسرائيليًا يهوديًا...

لقد كانت هذه النقطة تشغل بال سمير ناجى كثيرًا لكن لوتز أثناء التحقيق أخبره بما لا يدع مجالاً للشك بأنه ليس يهوديًا فهو غير مختون، لكن مبدأ الشك الذى يعتمده الرائد صلاح فى عمله كان يُشعره بغير ذلك، إضافة للتقرير المفصَّل الذى أعدَّه الرائد صلاح ورجال المخابرات المصرية المنتشرين فى برلين وباريس، وحتى فى تل أبيب، والذى يؤكد ديانته اليهودية.. لكن صلاح لا يريد أن يُطلع سمير ناجى على ما لديه من معلومات حيث يريد أن تسير الأمور فى مسارها الطبيعى...

* * *

مرّت ثلاث وثلاثون ليلة على لوتز بصحبة سمير ناجى المحقق الذى يخافه لوتز كلّما انفرد به ولا يجد سبيلاً لمراوغته وفى الوقت نفسه كان الرائد صلاح يعدّ لمقابلة مهمة ستجرى بعد لحظات مع الرجل الأول فى المخابرات المصرية والذى كان يتابع كل شىء من مكتبه الذى يرتفع عشرين درجة من درجات السلّم عن زنزانة لوتز قبل ترحيله مساءً إلى سجن القناطر حيث سيقيم هناك هو وڤالترود حتى تتم المحاكمة. . . .

بدت الحياة كأسوأ ما تكون على لوتز وهو معصوب العينين منذ أن خرج من زنزانته وحتى وصوله إلى المكتب حيث أخبره الرائد صلاح بمقابلة شخص لم يذكر اسمه. . لوتز كان يعرف مواقع المكاتب والزنزانة وغيرها من خلال المدة الزمنية التى يقضيها فى السير وكذلك عدد درجات السلم التى ينزلها أو يصعدها. .

يقف الآن لوتز فى مكان ما من غرفة دخلها مع الرائد صلاح منذ لحظات وينتظر أحدهم حتى يرفع العصابة السوداء عن عينيه لينظر بعد ذلك فيرى ذلك الرجل الأصلع، ويسمع الصوت الذى سمعه منذ عدة أيام، لكنه لم يرَ المتحدث حيث كانت العصابة على عينيه، لكنه يراه الآن. . يحاول لوتز تذكر هذا الوجه المألوف له، أوه لقد رآه من قبل فى أحد فنادق القاهرة حيث كان يجلس على طاولة بعيدة وأخبره حينها صديقه اللواء يوسف العدل بأن هذا «صلاح نصر» رئيس المخابرات العامة المصرية. . .

قاطع صوت صلاح نصر أفكار لوتز وتركيزه قائلاً: «أهلاً بك يا لوتز، تفضل بالجلوس».

جلس لوتز على أحد المقاعد الجلدية الموجودة أمام المكتب الأنيق الفاخر،

وتناول سيجارة من علبة سجائر رئيس المخابرات المصرية فى امتنان ثم أشعلها . . .

هناك لحظات من الصمت يتبادل الغرماء فيها الحوار لكن بطريقتهم . . هكذا كانت الدقائق الثلاث التى قضاها لوتز مع الرائد صلاح، وكذلك صلاح نصر رئيس المخابرات العامة المصرية، والذى كسر هذا الصمت ووجّه للوتز قائلاً : «دعنا نجرى هذه الصفقة يا لوتز قبل رحيلك من هنا إلى السجن، أنت تعلم أن والدى زوجتك كبيران فى السن وخاصة حماك فهو مريض ويمكن أن يتعرض لأذى وهو لا يحتمل» .

لوتز : «ما المطلوب يا سيدى؟» .

صلاح نصر : «اعتراف صغير بخط اليد، وطبعًا بلغتك الإنجليزية أنك كنت تريد إلحاق الأذى بالعلماء الألمان من خلال الطرود البريدية التى تعرفها» .

لوتز فى مراوغة يائسة : «أية طرود يا سيدى؟» .

صلاح نصر : «أنت رجل بارع، لا تليق بك هذه المراوغات الساذجة يا لوتز، هيًا احسبها فى عقلك . . ولديك ثلاث دقائق» .

بعد لحظات أعلن لوتز موافقته على ذلك وبدأ فى كتابة الاعتراف . . وسارت الأمور كما هى حتى جاء المساء الذى كان يستدلُّ عليه لوتز وعلى الصباح أيضًا من خلال الطعام الذى كان يرده مع الحارس . . .

صوت الزنزانة وهى تفتح ويدخل سمير ناجى مع الرائد صلاح إلى حيث يجلس لوتز على الأرض، ويقول له الرائد صلاح : «هيّا إلى السيارة التى ستقلّك إلى سجن القناطر أنت وڤالترود . . .

لوتز يقول بسخرية: «إذن حانت الفرصة لمغادرة هذه الزنزانة اللعينة» ويتابع بنظره سمير ناجى الذى ينظر له بهدوء يتسرب إلى أعماق لوتز معه الخوف والرعب الدفين، لكنه سرعان ما ينهض أثناء تلك النظرات المتبادلة ويتجه إلى الباب ليغادر تلك الزنزانة التى أمضى فيها ٣٣ يومًا، وعند الباب وقبل أن يخرج النصف الآخر من جسد لوتز خارج الزنزانة، أمسكت يد سمير ناجى بكتف لوتز وقال له بهدوء مفزع: «ستقابل فى المحكمة؛ فى ساحة القضاء المصرى يا لوتز».

تصاعدت دقات قلب لوتز حتى كادت تخرجه عن صدره وهو يتجه بسرعة، معصوب العينين إلى خارج مبنى المخابرات المصرية فى سيارة السجن وبجانبه جلست ڤالترود فى السيارة معصوبة العينين أيضًا. . فها هما يشمان الهواء البارد، والذى طالما حرما منه طوال الأيام الماضية. . مرت المدة التى قضياها فى السيارة إلى أن وصلا إلى بوابة السجن سريعًا، استطاع لوتز أن يُعطى خلالها ڤالترود بعض المشاعر التى حُرمت منها طويلاً فهى لا تدرى هل سيمتد هذا الحرمان مرة أخرى أم لا.

لكن لوتز أخذ يطمئنها قائلاً: «لا تخافى فحتى الآن، نحن فى أقل الضرر، وقد علمت بأن والديك عادا إلى ألمانيا بعد أن أخلى سبيلهما.

بدأت السرعة فى التراجع تدريجيًا للسيارة التى تقلُّهما، يبدو أنها على البوابة فها هى أصوات بوابة حديدية يسمعها لوتز تُفتح وتنطلق بهما السيارة مرة أخرى لبضعة أمتار. . ينزل لوتز وڤالترود بعد رفع العصابة السوداء عن عيونهما ليريا فضاءً كبيرًا معتمًا. . ويدخلا مكتبا على واجهته كُتبت لوحة صغيرة من الرخام وُضعت فى المقدمة تقول: «اللواء. كرولُس» مأمور سجن القناطر.

رحَّب بعبارات بسيطة ذلك الرجل الذى يضع على كتفيه شارات ذهبية عبارة عن سيفين متقاطعين . . . وفى مقدمة الكاب الذى يلبسه على رأسه مزركشات متشابكة ، وأشار إلى رجلين يجلسان على أريكة فى طرف الغرفة قائلاً : «الديك ضيوف يا لوتز يودون التعرف عليك . . اتجه لوتز فى إعياء شديد تجاههما وصافح الأول الذى أخبره بأنه يُدعى «على منصور» من السفارة الألمانية وهو موكل بالدفاع عنه وهو أحد أبرز المحامين فى محاكم أمن الدولة فى مصر .

أما الآخر فكان يجلس ، لحين نظر إليه لوتز حيث قام بفرقعة كعبيه على طريقة ضباط الجيش الألمان السابقين ووقف وصافح لوتز قائلاً : «أنا «هانزبيتر كراهل أبان» أصدقاؤنا السابقون فى الحرب أوكلونى مهمة الدفاع عنك يا سيد لوتز وطبقًا لتقاليد الجيش الألمانى العريقة ، فلقد وضعت مبلغًا من المال تحت تصرفك هنا . . . سوف نكون إلى جانبك» .

وبإيماءة من لوتز الذى لم يخدم مطلقًا فى الجيش الألمانى ، عرف من أرسل هذا الرجل وتأكد من أن رسالته التى أرسلها للموساد عبر التليفزيون المصرى وصلت إليهم وبنجاح . . .

شكره بالألمانية لوتز وربَّت على يديه حيث استطرد الرجل بصوت خفيض وبألمانية ريفية : «ليفى ، يرسل لك سلامه الحار» .

وهنا اطمأن لوتز وبدت علامات الرضا على وجهه ، ونظر لڤالترود وغمز عينه التى فى مواجهتها بطريقة لم يره أحد من الموجودين فى مكتب مأمور السجن ، الذى طلب بدوره من الحرس اقتياد لوتز وڤالترود ، كلاً منهما إلى زنزانته التى ينتظر فيها حتى يحين موعد المحاكمة .

❊ ❊ ❊

مقهى الصيرفى - الحسينية - القاهرة - ٦ مساءً

«اقرا الحادثة . . . القبض على جاسوس جديد» .

«شبكة من الجواسيس تستهدف العلماء الألمان» .

«اقرا الحادثة . . » .

دوّت هذه العبارات فى الشارع وعلى أسماع الجالسين فى المقهى، وبدأت التعليقات تنطلق من حناجرهم لتختلط بأصوات النراجيل، ولعبة الطاولة التى وضعت على أكثر من مكان . .

«جاسوس جديد بيتقبض عليه أهوه، علشان تعرفوا إن البلد ليها أعداء وفى ناس صاحية وشايفة شغلها» نطق بهذه العبارات كامل أفندى وهو على كرسيه المتحرك الذى لا يُفارقه إلا عند النوم فحسب ردّ عليه صديقه المخلص الذى كان دائم السؤال عليه وعلى أحواله، شحاتة هارون: «على الله مايكنش بيتجسس لصالح إسرائيل برضه، ما هى ملهاش شغلانة غير مصر»، وصاح على البائع وتناول نسخة من الأهرام وبدأ فى قراءة التفاصيل وبدت علامات التعجب على وجهه لكن كامل أفندى صاح فيه قائلاً: «ما تعلّى صوتك يا شحاتة وتسمّعنى، إنت عارف إنى ما بعرفش أقرا زى الأول» .

شحاتة هارون: «اسمع يا سيدى . . . . » .

* * *

كوبرى القبّة ـ ٦:٣٠ مساءً ـ مبنى المخابرات العامة

الهدوء والصمت يملآن غرفة متوسطة الحجم فى الدور الثانى، أثاثها بسيط، سرير للراحة المؤقتة يفصله عن المكتب ستارة صغيرة، وعلى السرير كان الرائد صلاح يمدد جسده المنهك بعد عمل شاق مع ملف «اللوتز» الذى استغرق منه خمس سنوات من العمل الشاق ومن متابعة لسيل من المعلومات والتقارير من خارج مصر وداخلها . . مع صوت طرقات الباب انتفض صلاح على سريره وأخذ مكانه المعتاد على مكتبه وأشار بالدخول قائلاً: «أهلاً بيك يا سمير».

ثم أشار إلى الحارس بالانصراف . . وأخذ سمير موقعه المواجه لصلاح وبدأ بالحديث: «خير يا صلاح بيه؟ عايزين إيه تانى؟ ما خلاص بقه، كل اللى طلبتوه عملته، والفار فى القفص».

قام الرائد صلاح، ودار بهدوء وأشعل سيجارة لسمير حيث قدمها له بنفسه وجلس على الكرسى الثانى أمامه مباشرة وأخذ نفسًا عميقًا وهو ينظر إلى سماء الغرفة، وقال: «عندك قرايب أو إنت متجوز؟».

سمير: «قصدك إيه؟».

صلاح: «سؤالى واضح».

سمير: «أنا مقطوع من شجرة، بس عندى صحاب وأولاد حتتى فى الحسينية، وهمَّه وحشونى . . جدران قهوة الصيرفى . . ريحة الحسينية وأصوات الناس والبيَّاعين، وصوت الراديو، وصوت الست، وطبق الفول من عربية عمّ فرَّاج . .».

قالها سمير وهو يكاد يبكى هذه الأشياء، فهو يعيش كالميت منذ سنوات حيث بدأت كثير من الأحاسيس التى كان يطردها أو يهرب منها تتملّكه هذه المرة، لكن صلاح ألقى به فى عالم آخر من الأحاسيس والمعانى عندما وجَّه نظره إلى عينى سمير وقال بصوت هادئ وودود: «يا سمير مصر كلها أهلك، وهيّ محتاجالك دلوقتى أكثر من أى وقت».

كانت هناك حروف معيَّنة يقشعرُّ لسماعها جسد سمير منذ أن بدأ يعى معنى الكرامة والانتماء ومعنى الحب والجدعنة التى تربَّى عليها فى منطقة الحِسينية حيث عاش هناك صباه بعد أن فقد أبويه منذ نعومة أظافره.

هذه الحروف هى الميم والصاد والرَّاء، حين تلتقى يكون أثرها على سمير كالابن الذى تتعرض أمه للخطر فيستجمع قواه ويحتشد حواسه للدفاع عنها...

هبَّ سمير من مكانه وردّد ما قاله صلاح فى نفسه وكأنه يُناجى شخصًا آخر داخله ثم صرخ فى صلاح: «قولِّى أعمل إيه حالاً وأنا موافق بدون تردد».

قام الرائد صلاح ودار مرة أخرى وعاد إلى كرسيه الدائم على المكتب، وجلس وأشعل سيجارة أخرى ونفث دخانها تجاه النافذة التى هى كل ما يربطه بالخارج منذ عدة أيام، ثم تناول ملفًّا أزرق بجانب الملف الأسود الذى كان يحوى كل شىء عن لوتز، وقال لسمير: «انس كل اللى فات وركِّز معايا فى اللى حقوله لك، فاكر شوكولاته خادم لوتز»، أومأ سمير برأسه

قائلاً «طبعًا وده يتنسى» وهنا ابتسم الرائد صلاح وقال: «طيب اسمع بقه يا سيدى». .

* * *

قاعة المحكمة - السابع والعشرون من شهر يوليو لعام ١٩٦٥ - القاهرة

احتياطات أمنية مشددة، الرَّشاشات الموجَّهة لمبنى المحكمة على أسطح البنايات المواجهة. . عدد من الضباط والعساكر المدججين بالسلاح يحيطون بالعربة التى ينزل على سلالمها الخلفية «لوتز وڤالترود وكيسو».

إنه اليوم الأول من الثلاثة والثلاثين يومًا فى محاكمة هذه القضية، أحدث قضايا التخابر التى اعتاد النائب سمير ناجى التحقيق فيها وامتلك خبرة من خلالها وأنفًا تتوصل إلى ما هو مخبأ تحت الجلد.

اصطفَّت عدسات التصوير الصحفية ومراسلو وكالات الأنباء الأجنبية على الجانب الآخر المواجه للقفص، والذى يطل من خلاله على القاعة لوتز وڤالترود وكيسو، الذى تورَّط فى عدد من التقارير الاقتصادية التى كان يرسلها إلى ألمانيا من خلال مؤسسة مانيسمان التى كان يرأس فرعها هنا فى القاهرة، يعطى بعضها للوتز على سبيل الصداقة العمياء.

بدأ القضاة الثلاثة الذين يرأسهم المستشار فهمى البدوى فى استعداد تام. . . القاضى الأول يراجع قائمة الأسماء التى طالتها هذه القضية، والتى

تزيد على المائة وعشرين اسمًا من أصدقاء لوتز وكل من تعامل معهم أثناء سنواته الخمس، وبالطبع اللواء يوسف العدل . . الذى نُكِّل به أشد التنكيل حيث أقيل بشكل مفاجئ من منصبه كمحافظ وعُزل وطُرد من الشرطة ـ رغم ثبوت جهله بحقيقة لوتز وثبوت دوافعه الحسنة فى خدماته التى قدَّمها بدافع الصداقة والمنفعة أيضًا للوتز .

لكن المفاجأة كانت بتأجيل المحاكمة لمدة شهر آخر ، هكذا أعلن القاضى بعد عدة طرقات وانفض الجمع وعاد لوتز وڤالترود وكيسو كلٌّ لزنزانته فى سجن القناطر .

* * *

و بعد شهر ، حضر الجميع فى الموعد المحدد وفى نفس المكان وبعد أن أخذ كلٌّ موقعه وبدا التوتر على وجه لوتز وڤالترود، وبدأ القاضى يتكلم بعد أن طرق عدة طرقات على المنصَّة وطلب الهدوء من الصحافة والمراسلين وقال: «أين السيد لوتز؟»

فقام لوتز من خلف القضبان قائلاً: «نعم أنا هو سيدى القاضى».

القاضى: «بعد الاطلاع على ما جرى من تحقيق بشأن ما نُسب إليك فإن المحكمة توجه لك التهم التالية :

١ ـ التآمر بالقيام بالتجسس لصالح بلد عدو .

٢ ـ الاستمرار فى التجسس لصالح بلد عدو .

٣ـ التآمر لتقويض وإضعاف أمن الجمهورية العربية المتحدة وقواتها المسلحة.

٤ ـ الإصرار على متابعة عمليات التجسس بهدف إضعاف أمن الجمهورية العربية المتحدة وقواتها المسلحة.

٥ ـ ارتكاب أعمال غير قانونية بتحريض من بلد عدو ولمصلحة نفس البلد في حربه مع الجمهورية العربية المتحدة وحيازة مواد متفجرة خطيرة.

٦ ـ القيام بإرسال خطابات تهديد لجنسيات أجنبية تعمل لدى الحكومة المصرية.

٧ـ إرسال خطابات تحتوى على مواد متفجرة لجنسيات أجنبية تعمل لدى الجمهورية العربية المتحدة.

٨ـ التسبب في إلحاق إصابات بالغة لأفراد يعملون لدى الحكومة المصرية من جنسيات أجنبية ومصرية أيضًا.

٩ـ الشروع في قتل جنسيات أجنبية ومصرية أيضًا باستخدام مواد متفجرة خطرة.

١٠ ـ حيازة المفرقعات.

واستطرد القاضي قائلاً: «هل تسلمت نسخة من الاتهامات الموجهة إليك؟ وهل قمت بقراءتها وفهمت هذه التهم العشر الموجهة إليك؟».

لوتز: «نعم يا سيادة القاضي»؛ قالها بالإنجليزية التي دار معظم الاستجواب بها كلغة مشتركة.

SCHEDULES

We xmit daily at 0420 G.M.T. (Summer) or at 0520 G.M.T. (Winter) on freq 6505 (G)
We listen to you daily at 0400 G.M.T (Summer) or at 0500 G.M.T. (Winter) on freq 6560 (A)
and at 1100 G.M.T. (Summer) or at 1200 G.M.T. (Winter) on freq 6560 (A)

EMERGENCY

In addition to the A/M schedule we listen to you also at 1245 G.M.T. (Summer) or at 1345 (Winter) on freq 6560 (A)

LIST OF FREQUENCIES

OURS	CALL SIGNS (Fixed)	YOURS
5320 (E)	A L P	6560 (A)
6406 (F)	G X J	6680 (B)
6505 (G)	D V A	8255 (C)
7210 (H)	W R Z	8590 (D)

YOUR CALL SIGN : 2 ltrs = date. 3rd ltr = strength. 4th ltr = How many msgs for xmsn.
YOUR First GR – 2 ltrs = NR. 3 ltrs = Page. Second GR – Dummy. Third GR – 2 ltrs = Rows.
3rd ltr = Line. 2 last ltrs = GR. Same 3 GRS must be rpted at the end of msg (different ltrs).
OUR First GR – Dummy. Second GR – 3 ltrs = NR. 4th ltr = Strength. 5th ltr = rptn last figure of NR.
N O T E = In case you do not hear us on freq (G), ask to change over to another freq (Fm the list).

القاضى : «ما هو ردُك؟ هل تجد نفسك مذنبًا؟» .

لوتز : «أجد نفسى مذنبًا فى الاتهامات الستة الأولى وغير مذنب فى الأربعة الباقية» .

وهنا انتفض المراسلون والصحفيون الأقرب فى وسيلة لاتصال بصحفهم لإبلاغهم بهذا الاعتراف حيث كان ذلك الشغل الشاغل للرأى العام المصرى والعالمى وبما سيعكسه من أثر على علاقة مصر السياسية بألمانيا الغربية التى لم تكن فى أفضل حال . . . لكن الطرقات الخشبية تُعيد الهدوء مرة أخرى للقاعة ، واستمرت نفس الأسئلة ونفس الإجابات من لوتز وبعد

أن تمّ الاتفاق على عدم ذكر أسماء الضباط إلا فى قاعات المحاكمة السرية . . .

وبدأت الأدلة فى الظهور، فها هو جهاز الإرسال السرى اللاسلكى، وبدأ لوتز يشرح للقضاة كيفية عمله هو ودفتر الشفرات وهنا يصرخ سمير ناجى «دون تفاصيل يا لوتز».

ويؤكد القاضى رئيس الجلسة: «لو سمحت دون تفاصيل، جاوب فقط على الأسئلة واستبق هذه التفاصيل فى الجلسات السرّية فهناك صحافة ووكالات أنباء موجودة فى القاعة».

وهنا لوّح سمير ناجى بورقة فى يده قائلاً: «قبل ذلك يا سيادة القاضى أريد أن أقدّم لعدالتكم دليلاً جديداً».

القاضى: «اتفضل يا سمير».

سمير: «هذا خطاب وصلنى من شخص ما من ألمانيا لا أستطيع ذكر اسمه وهو يخصُّ المتهم لوتز. . وسوف أقرأ عليكم ترجمة له بالعربية».

الخطاب مؤرّخ بـ ١٢ يوليو ١٩٦٥

«لقد ناقشنا مع البروفيسور بيلز منذ أسابيع ما سمعناه عن قضية لوتز وهو بالإضافة لجنسيته الألمانية فإنه يحمل الجنسية الإسرائيلية، وقد علمنا أنه وُلد فى مانهايم ١٩٣١ وفى عام ١٩٣٣

هاجر مع والدته إلى فلسطين وقد خدم هناك فى الجيش الإسرائيلى . . . » .

وهنا صرخ لوتز بهستريا : «هراء . . هذا كذب فى كذب ، إنها لعبة جديدة من الادعاء . .

قاطعه القاضى بطرقاته قائلاً : «اسكت ولا تتحدث إلا عند السماح لك . استمر يا سمير» .

واستطرد سمير : «لقد علمنا بوصول مسئول إسرائيلى رفيع المستوى إلى هامبورج منذ بضعة أيام فى محاولة لمنع نشر هذه المعلومات فى الصحف وخاصة فى صحيفة «ديرشيرنزاس» والتى وافق رئيس تحريرها على عدم نشر ما قام به الصحفى «ڤولڤجانج لوهدى» من جمعه لمعلومات عن لوتز ، بهدف إخفاء ماضى لوتز وخاصة جنسيته . . . سيدى القاضى قد تكون هذه المعلومات معروفة لديكم لكن من واجبى ذكرها أمام لوتز حتى يعترف بأسماء من قاموا بإرسال طرود البريد المتفجرة للبروفيسور بيلز ومساعديه» .

وهنا ربت لوتز على يد ڤالترود بقوة وطلب منها أن تتماسك ولا تتظاهر بحقيقة مشاعرها تجاه الموقف المتأزِّم ، وقام بتصنُّع الابتسامة متمتمًا لڤالترود : «إذا صدَّقوا هذا الكلام ، فإنها النهاية» .

وهنا طلب محامى الدفاع على منصور الكلام قائلاً : «يا سيادة القاضى . . إنها إشاعة ، وإذا كان ذلك صحيحًا فلترسل المحكمة فى سؤال من أرسل هذا الخطاب شخصيًا وعليه أن يُقسم على صحة ما يقول» .

القاضى: «ربما لا نستطيع أن نُظهره أمامكم لكن على أية حال ترغب المحكمة فى أن تسأل المتهم بهذا الشأن، يا سيد لوتز هل فهمت فحوى هذا الخطاب؟».

لوتز: «ليس بالضبط، فأنا لا أتقن العربية، لكن اسمح لى أن ألقِ نظرة على النسخة الأصلية المكتوبة بالألمانية».

وهنا صرَّح سمير ناجى: «عدا التوقيع يا سيادة القاضى، فلقد وعدت المخبر بأن يكون اسمه سريًّا للغاية».

وهنا قام القاضى بطى التوقيع إلى خلف الورقة وسمح للوتز بقراءة الخطاب وبعد لحظات قال لوتز: «هذا كذب فى كذب، أعرف أن المستشار القانونى لمجموعة بيلز هو الدكتور ألفريد سيدل المكتوب اسمه هنا إلى أعلى الصفحة، الحقيقة الوحيدة فى هذا الخطاب أننى مولود فى مانهايم والباقى كذب».

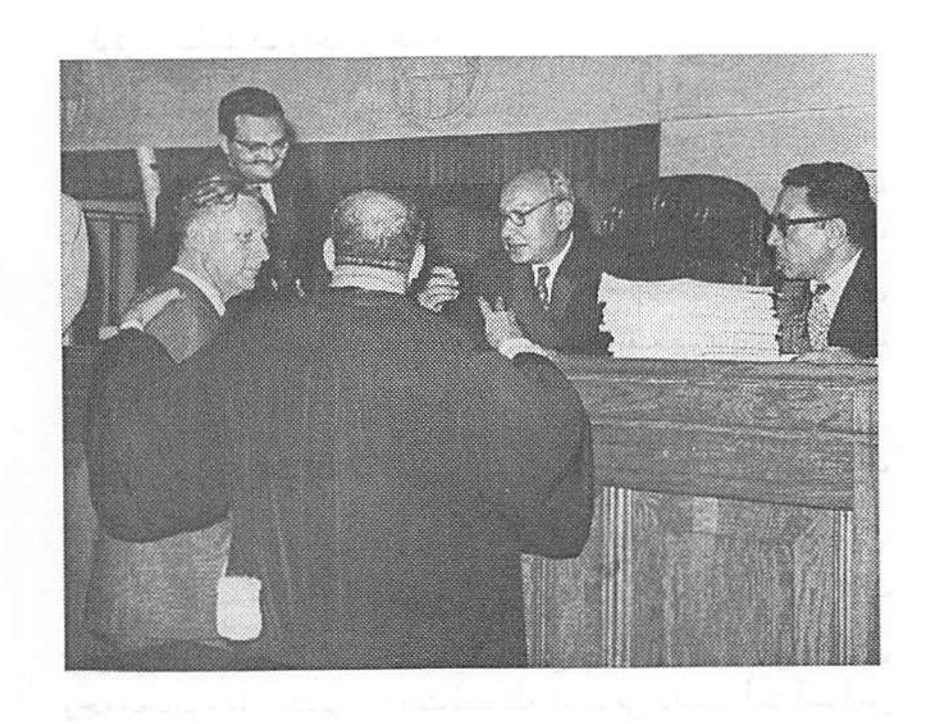
القاضى: «هل ذهبت إلى إسرائيل ولو مرة واحدة؟».

لوتز: «نعم كانت مرة واحدة ولمدة ستة أيام فى بداية ١٩٦٣، كان ذلك بعد مقابلتى لچوزيف فى باريس الذى طلب منى السفر لإسرائيل لمقابلة رجل يُدعى «بِ رومى يَر» كان لقاءً عاديًا وسط طعام عشاء.. أسئلة عادية من ذلك النوع، ما الأحوال فى مصر، من هم أصدقاؤك؟».

القاضى: «استمر.. وماذا فعلت خلال الأيام الأخرى؟».

لوتز: «ذهبت فى سياحة لعدة أماكن مع رودى».

القاضى: «هل زرت حيفا؟».



لوتز : «نعم . كانت زيارة سريعة» .

القاضى : «هل حصلت على الجنسية الإسرائيلية هناك؟» .

لوتز : «بالطبع لا» .

القاضى : «وما هى مصلحة هؤلاء فى الكذب عليك؟» .

لوتز : «إنهم يريدوننى أن أشنق» .

القاضى : «من هم؟» .

لوتز : «سأذكرهم واحدًا واحدًا».

وهنا قاطع الادّعاء بطلب إحالة ذلك لجلسة سرية . . .

تحولت المحاكمة إلى جلسة سرية وأثناء توجه القضاة مع لوتز وسمير إلى قاعة أخرى، اتجه على منصور محامى لوتز إلى هذا الأخير وطلب منه أن يتحدّث معه بشأن هذا الخطاب لكن لوتز ردّ عليه متجهمًا : «حسنًا اسمعنى يا منصور، لماذا لا تتحرك لماذا لا تخبر القضاة وتقنعهم بأن هذا الخطاب ملفّق؟!».

على منصور : «بالطبع سأفعل، لكننى بصفتى محاميك أريد أن أعرف الحقيقة».

هزّ لوتز رأسه متمتمًا : «يا لك من نجس محتال ذى وجهين، لقد أوقعك سمير ناجى فى مصيدته». وهنا وصل الجميع إلى الغرفة، وصرخ لوتز فى وجه محاميه على منصور : «قلت لك كله كذب فى كذب، أنت أسوأ من سمير ناجى».

ودخل لوتز الغرفة، وأخذ مكانه على طاولة مستديرة مع باقى القضاة وبحضور سمير ناجى الذى قدّم للوتز كأسًا من الليمون البارد، وبدأ القضاة فى خلع الجواكت مع ربطات العنق والتخفف فى ذلك الجو الحار . . . وبدأت الجلسة السرية.

* * *

برلين - ١٥ أغسطس ١٩٦٥

فى حانة قديمة كانت دقات الساعة فيها تعلن تمام السادسة مساءً حيث جلس على طاولة كبيرة رجل فى منتصف الخمسينيات من عمره يلبس قبعة، ويضع خلفه معطفًا كبيرًا قد خلعه، وعلّقه على ظهر كرسيه ووضع كوفيَّة بعد أن قام بطيِّها على الطاولة أمامه. . بدا واجمًا وعلامات أحداث شاقة مر بها فى عمره قد تركت بصمتها على ملامحه، خاصة تلك الندبة أسفل ذقنه. . وما هى إلا لحظات حتى دخل ثلاثة رجال بأحجام وأعمار متشابهة وجلسوا على نفس الطاولة بعد أن تبادلوا التحية المعتادة لضباط الجيش الألمانى. . «الموت لهتلر».

بدا التوتر والقلق على وجوه الجميع وقال أحدهم: «بالتأكيد قرأتم عدد «الديرشبيجل» اليوم. . لقد نال منا ذلك اللوتز اللعين».

أجابه الرجل ذو القبعة: «صديقنا هانز هل تتذكرونه - كان فى الفرقة الثانية مشاة. . إنه يعيش الآن فى كولون شرقى ألمانيا وهو بعد ربع ساعة من الآن سيصل. . يبدو أن لديه أخبار عن ذلك اللوتز. . لننتظره ونشرب نخب نجاحنا وحياتنا السرية التى نعيشها الآن».

قلةٌ هم من استطاعوا البقاء فى ألمانيا الشرقية أو حتى الغربية من ضباط الجيش النازى وقياداته، خاصة الخبراء فى مجال صناعة الطائرات أو الصواريخ أو الأسلحة البيولوچية. . ومنهم من استطاع الهرب والعمل فى الدول الصديقة فى الشرق الأوسط أو فى أمريكا اللاتينية خوفًا من ماضيه الدامى. . حيث كانت محاكمات «نورمبرج» تقضى عليهم الواحد تلو الآخر.

ومن لم يُفلح فى السفر، استطاع التخفى والعيش فى الريف الألمانى بعد أن ساعدته الأقدار فى استخراج شهادة الوفاة أو فى سقوط اسمه من قائمة المطلوبين للعدالة، بعد دفع رشوة كبيرة للمحققين. . .

ها هى ربع الساعة تمرُّ، وها هو باب الحانة يُفتح على مصراعيه ليدخل رجل بدت عليه علامات السفر وآثار المطر واضحة على معطفه الجلدى الذى كان يلبسه. . وقف أمامهم فى آخر الطاولة ورفع يده بالتحية لهم «الموت لهتلر»، ردَّ الجميع عليه وجلسوا جميعًا ومضت بضع دقائق فى عبارات متبادلة عن ذكريات الحرب وتلك المواقف التى يبكيها المحاربون القدامى، وجاءت سيرة لوتز، ونظر الجميع لصديقهم هانز ليسمعوا آخر الأخبار. . .

هانز: «يا رفاق. . إن مدينة كولون أصبحت الآن مقرّا جديدًا للعمليات السرية الإسرائيلية، لقد استطاع أحدهم بنفس الحيل القذرة التى تعوَّدوا عليها، الحيلولة دون نشر أخبار الجاسوس لوتز فى جريدة «دير شتين» الأسبوعية. . وها هى الأخبار التى كان من المنتظر أن تُنشر. . اسمعوا». «إنه إسرائيلى قذر، هاجر مع أمه فى عام ١٩٣٣ حيث عاشا معًا حتى عام ١٩٤٨ عندما تأسست الدولة الإسرائيلية. . وخدم هناك فى الجيش الإسرائيلى وكان برتبة ملازم ثان».

وهنا بدأت الأصوات ترتفع: «أوه. . لقد خدعنا».

ويردُّ أحدهم: «إن معظم الرُّتب العليا النازية لم تبق فى ألمانيا هرب من هرب وحوكم من حوكم وانتحر من انتحر، لكن ذلك اللعين كان يتنقل بحرية وبثقة».

رجلٌ آخر يقول بصوت عال: «ذلك اللعين، إنه لا يتكلم الألمانية بلكنة رهينلاند حيث وُلدْ ولكنته الإنجليزية لا تشبه الألمانى عندما يتحدثها، الآن فهمت، لقد خدعنا».

هانز: «لقد نال من بعض رجال بيلز رفيقنا، خبير محرك الطائرات.. لكننى أرسلت له هدية إلى هناك إلى مصر حيث يُحاكم الآن.. إنه خطاب كفيل بإرساله إلى حبل المشنقة».

أحدهم: «لكن برأيك يا هانز لماذا يسعى رفاقه الإسرائيليون فى حجب نشر مثل هذه المعلومات هنا فى ألمانيا».

هانز: «إنهم يحاولون إلصاق التهمة بنا لإفساد علاقاتنا بأصدقائنا المصريين، ليبدأ الشك فى كل من هو ألمانى هناك أما العصفور الثانى الذى سيصطاده هؤلاء الخبثاء هو إبعاد لوتز عن كونه إسرائيليا.. لربما حُكم عليه بالسجن المؤبد بدلاً من الشنق وهنا تبدأ عملية المساومة أو تهريبه، ولن يُعدم هؤلاء الأشقياء الوسيلة لذلك».

ساد الصمت والغضب الحاضرين وهنا بدأت موسيقى الرايخ تعلو فى الحانة، وبدأ جو آخر يسود المكان واختلطت الأصوات العالية مع الرقص مع الشراب وهرب الجميع من ذلك الجحيم الذى أصبحوا يعيشون فيه منذ عدة سنوات وبدأت كلمات الأغنية الشهيرة ترتفع فى سماء الحانة والتى كان يرددها هؤلاء فى طريقة حماسية فى سنوات الجيش النازى فيما مضى..

* * *

١٦ أغسطس ـ العاشرة صباحًا ـ دار القضاء العالى ـ القاهرة

وقف جميع من فى قاعة المحكمة بمن فيهم لوتز وفالترود وكيسو فى القفص، النائب العام سمير ناجى احتل مكانه فى الجهة اليسرى للمنصة، محاميا الدفاع المصرى على منصور والألمانى كراهل أبان ضمن الجلوس داخل القاعة، وهناك مجموعة من الطلبة من مدرسة السعيدية الثانوية تتابع وقائع وجلسات المحاكمة منذ بدأت فى الشهر الماضى، عدسات الصحافة ووكالات الأنباء فى الجهة المقابلة فى الخلف لترصد ردود أفعال لوتز ومن معه . . .

عدة طرقات . . أشار القاضى المستشار فهمى البدوى للحضور جميعًا بالجلوس معلنًا بداية يوم جديد من أيام محاكمة لوتز . .

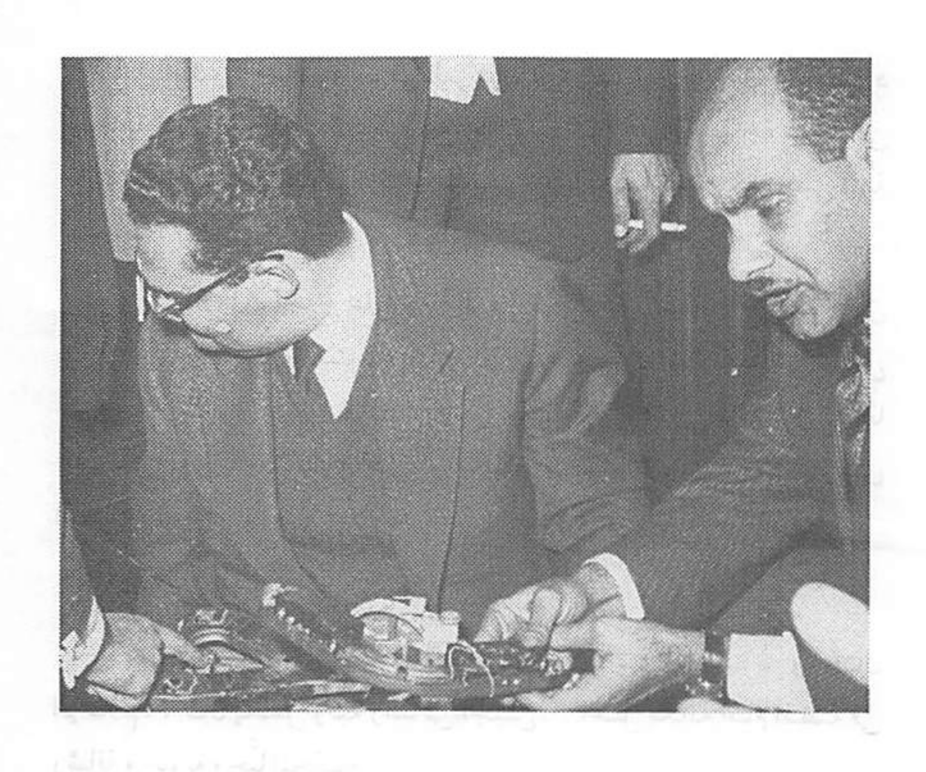
«الشاهد التالى»

نطق بذلك رئيس المحكمة، وهنا ظهر أمام المنصة، ضابط فى الجيش، أدى التحية العسكرية وبدأ فى شرح مدى وطريقة عمل جهاز الإرسال الخاص بلوتز حيث كان يخدم فى سلاح الإشارة بالقوات المسلحة .

«الشاهد التالى»

أخذ مكانه أمام المنصة، هو الآخر ضابط بدأ فى شرح طريقة فك الشيفرة وما جاء فى رسائل لوتز من معلومات .

«الشاهد التالى»



بدأ فى وضع المتفجرات التى عُثر عليها فى حوزة لوتز فى شكل قطع صابون اللاڤندر أو أقلام صغيرة أو أغلفة خطابات بريدية .

«الشاهد التالى»

هذه المرة مواطن عادى يظهر من بين الصفوف ويقول : «أيوه يا فندم . . أنا كامل أحمد على الشهير بكامل أفندى» .

القاضى : «قول شهادتك يا كامل أفندى» .

كامل أفندى: «أنا موظف فى البريد - فرع العتبة. . فيوم بوزِّع الطرود البريدية كالعادة، فلفت انتباهى طرد مكتوب عليه عنوان خواجة ساكن فى مدينة نصر، وطبقًا للتعليمات يا فندم. . وهنا قاطعه صوت القاضى: أيَّة تعليمات؟».

ظهرت علامات الحرج على وجه الرجل لكن عبارة سمير ناجى التى نطق بها فى أذنىّ القاضى رفعت عنه حرج الإجابة، بعد أن أشار القاضى لكامل أفندى بالاستمرار فى الشهادة. . وسرد القصة حتى انتهى قائلاً: «و ها أنا أقف كما ترى يا سيادة القاضى أمامكم وقد فقدت عينى اليسرى ويدى اليمنى».

«الشاهد التالى»

ومع ظهوره بدأ من فى القاعة فى الانصراف من الحاضرين ورجال الإعلام. . كان يحمل رتبة رائد فى الجيش. . احتل مكانه أمام المنصة فى رشاقة وحيوية وحيًا المحكمة.

القاضى: «ما هى مهمتك؟».

الرائد: «أنا أمثل وزارة الحربية يا فندم».

القاضى: «ما هى إثباتاتك فى هذه القضية ودلائلك؟».

الرائد: «مهمتى كانت قراءة وتحليل المعلومات الموجودة فى الرسائل التى بعثها أو استقبلها لوتز».

القاضى: «وإيه النتيجة؟».

الرائد: «أغلب الرسائل يا فندم تحتوى على معلومات سرية وسرية للغاية متعلقة بالأمور العسكرية والسياسية وتقييمى لهذه المعلومات خاصة العسكرية أن ٩٩٪ منها صحيحة يا فندم».

القاضى: «ما مدى الضرر الذى سببته هذه المعلومات للبلد؟».

الرائد: «من الصعب الحكم بدقة على مدى الضرر لكن على أية حال الضرر كبير جداً يا فندم ولا يمكن تخيُّله».

وهنا نظر لوتز لمحاميه على منصور متعجبًا وهو يقول لڤالترود: «لماذا لم يعترض هذا المحامى اللعين هذا الشاهد!».

ڤالترود: «هل تريد منه أن يقلل درجتين أو ثلاث؟ لا توجد هناك فائدة».

وارتفع صوت القاضى متسائلاً: «يا سمير هل بقى هناك شهود؟».

سمير ناجى: «لا يافندم لكن أستأذنك أننى سوف أبدأ فى تلخيص القضية للادعاء غداً صباحًا».

القاضى «ماذا عن الشهود الألمان الموجودين فى القائمة؟».

سمير: «لن يأتى أحدٌ منهم فقد أرسلوا خطابات من ألمانيا بعد أن عادوا إليها يقولون فيها بأن ضغوطًا تمنعهم من المجىء».

القاضى: «إذن سنكتفى بما قدم من الشهود، تؤجل الجلسة إلى الساعة التاسعة صباح الغد».

«رُفعت الجلسة»

دوَّى الصوت فى القاعة وانخفض الجميع ومضت الساعات فى بطء شديد على لوتز وڤالترود وصاحبهما فرانز كيسو، ولكنها مضت سريعة على سمير ناجى الذى لم تذق عيناه النوم حيث بات منهمكًا فى كتابة ملخص القضية بأدبياته المعروفة وأدائه المسرحى الذى اشتهر به فى قضايا التخابر الماضية.

* * *

١٧ أغسطس ١٩٦٥ - دار القضاء العالى - القاهرة

يبدو أنه يوم من الأيام المشهودة.. فها هى العربات المصفحة أمام مبنى المحكمة وها هم نفس القناصة أعلى العمارات المتاخمة للمحكمة وها هم عشرات الضباط والجند المدججين بالسلاح والذين يحيطون بلوتز وڤالترود وكيسو، وهم يصعدون درجات السلم الخارجية لتقترب ساعة الصفر...

بدا سمير ناجى وكيل نيابة أمن الدولة من وراء الحجب للجمهور الحاضر وعيناه تبرقان بريق النصر وخطواته تتقدم نحو موقع الادعاء، ويأخذ الإذن لبداية مرافعته فى أحدث قضية من قضايا التخابر التى مرَّت عليه حتى الآن...

«سيدى القاضى، حضرات السادة المستشارين:

من أعلى صعيد الخيانة، ومن ذروة قمم الغدر ومن أحلك متاهات الضلال، جئنا اليوم بهؤلاء الأشخاص الثلاثة الماثلة... نماذج عز علينا أن نجد لها فى تاريخنا مثيلاً وسيمضى بنا تاريخ طويل حتى تتكرر تلك

الصور . . . إن عادت البشرية أدراجها لتجسِّد الخيانة والغدر والضلال ففى اعتقادى أنها لن تجد نموذجًا خيرًا من لوتز . . . آية ذلك أن صفوة السَّفاحين المنتخبين للغدر فى العالم أجمع والمتمثلين فى صهاينة إسرائيل أبت قمتهم، وهى المخابرات الإسرائيلية، إلا أن تتشرف بدعوة لوتز لما قام به من إثم ولما سأذكره من أدلة وخلاصة لما ورد فى أكثر من ألف وثمانمائة صفحة من التحقيق المستفيض مع هؤلاء . . .».

وشرع سمير ناجى وكأنه شيشرون يقف من جديد فى ردائه أمام جموع اليونانيين . . بحركاته المسرحية ولغته الفصيحة وكلماته المكتنزة اللاذعة يشرح ويلخص . . وعلامات القلق تتصاعد على وجه لوتز وڤالترود وكيسو . . ولا يزال صوت سمير يزلزل القاعة ويخطف أسماع وأبصار الحضور ويجتذب عقول وأفئدة المنصَّة . . حتى وصل إلى قوله :

«تقرَّب إلى مجموعة من العلماء الألمان موهمًا إياهم بالصداقة . . آمنه الرجال . . وما إن تبدو للوتز حقيقة وأهمية ما يعملون لأجله، حتى انطلق يبعث لمنظمته بكل المعلومات حتى نوافذ مسكنهم ذكر لهم لونها . . لتهتز موجات الأثير بينه وبين تل أبيب حاملة مخطط الغدر وسفك الدماء . . »، وهنا وقف لوتز على قدميه ممسكًا بقضبان القفص وهو يصرخ صرخة مكتومة . . لو نطق بها كادت أن تصمَّ الحاضرين . . وتقف ڤالترود وتعانق لوتز وعيناها مملوءتان بالخوف والرعب . . أما كيسو فقدماه لم تُسعفاه للوقوف، وبدأت قطرات بوله تسيل على الأرض، معلنة فرارها من جسد يملؤه الفزع . . .

وهنا وصل سمير ناجى إلى قوله: «وهكذا هى أخلاق الصهاينة!. هكذا تمضى قيمهم متمسكين بما نادى به البروتوكول الأول من بروتوكولات حكماء صهيون «إن جواز المرور فى الدنيا هو القوة والكذب والادعاء مضيفين إليه العهر والدعارة»، وها هى المتهمة الثانية. . تلك الرقطاء الناعمة معسولة الهوى مدلهمة فى حب الإثم، متبتلة فى عشق الهوان، لا محبة لديها لوطن ولا قيمة عندها لأهل، ولا لشىء إلا لتستمر فى صلواتها لإله الخيانة والضلال فى هيكل الحرام حارقة له الشرف بخوراً . . والمُثل والقيم أريجًا. . اسمعوا لإجابتها إذ تُسأل عن داعيها للاستمرار معه بعد أن كشف لها ما يقوم به من غدر لمواطنيها. . » . . .

وهنا بدأت ترمى ڤالترود نفسها بقوة داخل القفص من اليمين إلى اليسار كنمرة أصابها الجنون، وتستمر الكلمات فى الكشف. .

القلوب الحاضرة تغلى وتكاد تقفز من الصدور لتقتصَّ ممن فى داخل القفص. . .

وهى الأنفاس يلتقطها سمير ناجى ويمسح عرقه المتصبب ويستأنف شرحه وتحليله وضع القرائن والأركان المادية والمعنوية لجرائمهم العشر المنسوبة إليهم حتى وصل إلى المادة ٧٧ ج وهى جريمة التخابر لمصلحة دولة معادية للحصول على معلومات حربية، وهنا، وفى براعة استهلال، قال سمير ناجى:

«سيدى القاضى. . حضرات السادة المستشارين. . الركن المادى لهذه الجريمة هو التخابر ويراد به التفاهم فى مختلف صوره، سواءٌ حصل ذلك شفاهة أو كتابة، صريحًا أم رمزًا، مباشرة أو بالواسطة. . وليس بلازم أن

يتكرر التخابر، بل يكفى لتمام الجريمة فعل واحد، ويحصل التخابر مع الدولة الأجنبية، أو مع شخص يعمل لمصلحتها، ولو لم تكن له صفة رسمية فى علاقته بتلك الدولة.

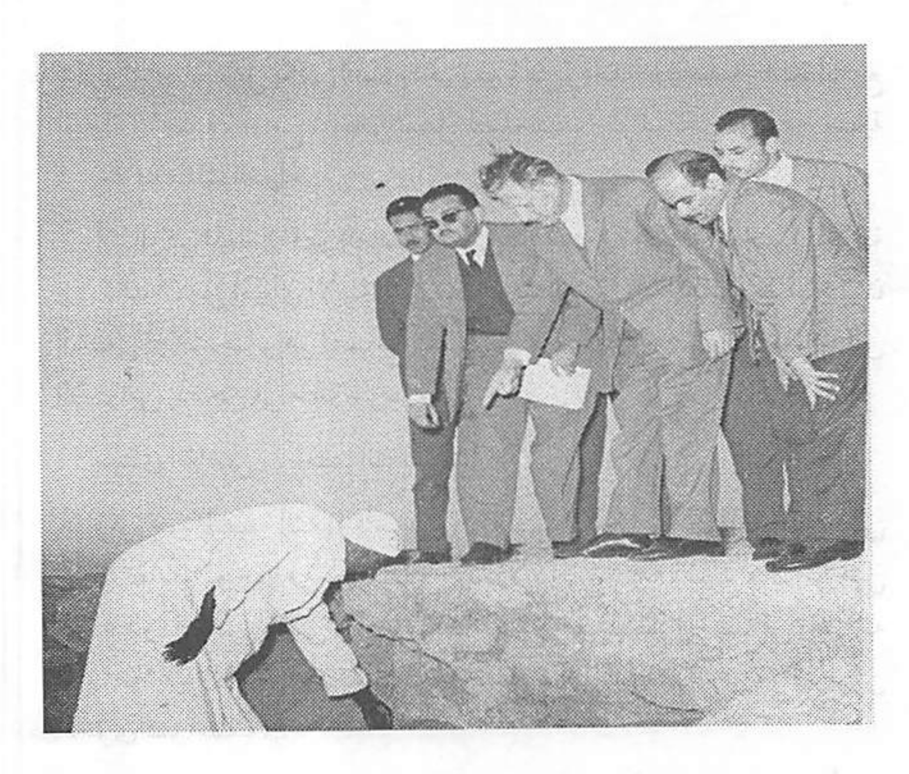
أما الركن المعنوى فهو القصد الجنائى من معاونة الدولة الأجنبية المعادية ولا شك أن من أقوى الأدلة التى تُساق دليلاً على هذا القصد أن يكون السعى أو التخابر هو لصالح إسرائيل مما يدل بذاته على قصد الجانى الإجرامى إذ نحن فى حالة حرب معها . . .

سيدى القاضى . . حضرات المستشارين :

وفى حق المتهمة الثانية فأمرها واضح فهى قد أقرَّت بأن المعلومات التى كانت تقاسم زوجها فى جمعها لن تهم إلا دولة معادية لمصر، وأن إسرائيل هى عدوة مصر الأولى . . . وما كانت مرافقتها لزوجها فى رحلاته الاستطلاعية إلا سعيًا وتخابرًا يكتمل به الركن المادى فضلاً عن توافر الركن المعنوى كما أسلفنا . . .

سيدى القاضى . . حضرات المستشارين . . . وأخذ سمير ناجى يُلوح بحقيبة صغيرة فى الهواء، ليراها جميع من فى القاعة، خاصة لوتز، وهنا جثا هذا الأخير على ركبتيه وقال بصوت مقتول لڤالترود : «لقد انتهينا، لقد وجدها هذا الثعلب».

وبابتسامة من سمير ناجى استمر قائلاً : «هذا هو دليل الجريمة السابعة وهى استعمال المفرقعات، والتى ينكرها لوتز وزوجته، فلقد قام بدفنها فى الصحراء عند مكان مميز حتى يستطيعا العودة وأخذ ما فيها من متفجرات وقتما شاءا أثناء رحلاتهما المتكررة إلى الإسكندرية بالطريق الصحراوى».



«سيدى القاضى . . لقد وصلت إلى النهاية من بعد طول مطاف» . . .

وهنا قاطعه القاضى قائلاً: «يا سيد سمير سنرفع الجلسة لبضع دقائق للراحة».

انتفض الجميع من لهيبين؛ لهيب الجو الحار، فنحن فى عز أغسطس، ولهيب المرافعة العصماء، بكلماتها التى تشبه القذائف، والتى كانت تصل، عبر الأثير، مباشرة لتل أبيب . . وتابعها كبار الشخصيات . . .

* * *

مضت دقائق الاستراحة وعاد كلٌّ إلى مكانه وها هو سمير ناجى يمر أمام القفص ويرسل ابتساماته إلى لوتز وڤالترود قائلاً بالإنجليزية وبصوت خافت: «Good Luck» ثم يمضى إلى مكانه وتبدأ الطرقات ثم تبدأ كلمات الادعاء . . .

«سيدى القاضى . . حضرات المستشارين :

إن لوتز وإن ابتغى بنا سوءًا، ربما كان هناك مجال لرحمته، إن كان قد رعى صوت الأم فى جوفه . . أما وقد وأد هذا الصوت وسفك دماء بنيها ورمى الدولة التى استضافته بأحجاره ومفرقعاته لقاء مال هو دينه وقبلته وعَلَمُهُ ولواؤه . . فأظنه قد صار فى مقام تجب فيه القسوة؛ لأن الباعث الذى تحرك على هديه مجرَّدٌ من اعتبارات الشرف . . .

أما زوجته المتهمة الثانية ڤالترود، ، فعلَّتها أنها تحبه، تحبه أكثر مما تحب مواطنيها . . تحبه على علم منها بإجرامه وفُجره . .

أتلك محبة؟ أيرضى الحب أن يُنسب إلى ما هو شر وإثم؟ الحب جمال لا ينسب إلا للخير . . من الحرام أن يوصف ما بينهما بأنه الحب، ليصفوه بأى وصف غريزى . . ولكن حرام، أن يصِفُوه بأى وصف وجدانى . . فالوجدان لديها قد احترق، وأعدماه . .

نفس ركبت على الشر، فانطلقت تبحث لها عن أليف، وفى غمرة ضلالتها وفى حلكة سواد طريقها وجدت من هو أقتم سوادًا منها . . .

إن سُمِّى الإثم حبًا فأى فضل للبراءة؟

و إن سُمِّى الدنس حبًا فأى فضل للطهارة؟

و إن سُمِّى الغدر حبّا فأى فضل للصفاء؟

و إن سُمِّيت الخيانة حبّا فأى فضل للوفاء؟

إن ذكَّروكم بالرحمة، فذكروهم بالضحايا. . .

بحق نور تلك المقل التى أطفأ فيها نور الحياة. .

وبحق هؤلاء الذين تركوهم أجسادًا متحركة بلا حياة. . أسألكم القصاص. . أسألكم القصاص. . لا باسم الضحايا فحسب. . ولكن باسم الوطن ومقدساته. .

باسم وطنكم الذى أنبتكم ونشَّأكم ورواكم حتى صرتم قضاته. .

القصاص ولا حياة لهذا الوطن إلا بالقصاص. .

أما من حركهما وبعث بهما إلى هذه الديار ليثخنا فيها كل هذه الجراح. . فلهم يومهم وستشهد تل أبيب محاكمتهم كما شهدت من قبل نورمبرج محاكمة أعداء الإنسانية ومشوهيها. .

لست بالحالم ولا بالمحلق فى آفاق الخيال. . .

إن محاكمات تل أبيب آتية لا ريب فيها. . إنها ليست نبوءة عرَّاف ولا دجال. . إنما هى حقيقة يُحتِّمها الحق والتاريخ. . كل ما أسأل الله فيه أن يمتد بنا الأجل جميعًا لنشهد هذه المحاكمات».

وهنا تزامن التصفيق الحاد من القاعة التى باتت على قلب رجل واحد مع عدسات الصحف ومراسلى الوكالات الأجنبية الذين يلتقطون صورًا لأداء

سمير ناجي وردود أفعال وشحوب لوتز وڤالترود وكيسو الذى لم يخاطبه سمير ناجى فى مرافعته المطوّلة . . .

عادت الطرقات من جديد لتعيد الحضور إلى رشدهم ، فأعينُ الطلبة شاخصة إلى رموز القاعة بعباءاتهم ، أكثر من عاصمة تتابع وقائع الجلسات وفى انتظار الحكم، احتمالات قطع العلاقات مع ألمانيا الغربية باتت قوية . .

وهنا ارتفع صوت القاضى قائلاً : «يؤجل الحكم يومين اثنين لإعداد الالتماس، رفعت الجلسة» .

وبدأت فرق الحراسة فى محاصرة القفص الذى كانت تتدافع أمامه عدسات التصوير الصحفى لتختلس صورة قريبة للوتز ولوالترود معًا . . .

وبدأ سمير ناجى يشق الصفوف فى اتجاه الباب الخلفى مارّا بالقفص وبابتسامته المعتادة ألقى عليهما التحية مكرراً عبارته : «أرجو أن يحالفكما الحظ» .

* * *

٢٠ أغسطس ـ سجن القناطر ـ القاهرة

فى حبسه الانفرادى، جلس لوتز يعدُّ الثوانى والدقائق التى باتت تفصله عن اليوم الأخير فى محاكمته . . شريط الذكريات لا يكاد يتوقف فى عقل

لوتز حتى يعود للعمل مرة أخرى . . تارة يتذكر لحظات السعادة مع زوجته ڤالترود فى نزهاتهم تحت أشعة الشمس المصرية بخيولهم العربية الأصيلة . . وتارة يتذكر أصدقاءه الضباط الذين ذكر أسماءهم فى اعترافاته التى بلغت ألفًا وثمانمائة صفحة لدى المدعى العام خاصة صديقه اللواء يوسف العدل الذى تسبب فى أذاه رغم أن هذا الأخير قدَّم له خدماته بدافع الصداقة والامتنان لمساعدات لوتز المتكررة له . . .

صوتان يتجاذبان عقله الآن، الأمل والتوق للحرية حتى ولو كانت النتيجة الأشغال الشاقة المؤبدة، والخوف من تحقق الحلم الذى طالما كان يطارده فيما مضى حيث مجموعة من النازيين الذين يلبسون زيَّهم المعروف يدورون حول لوتز المُلقَى على سرير وهو عار وقد بدأ كل واحد منهم فى تعذيبه بآلة يدوية من آلات التعذيب فى القرن الخامس عشر وهو ما سيحققه الحكم بالإعدام .

لكن صورة سمير ناجى تعود مرة أخرى للوتز فى الزنزانة لتقض مضجعه وتُعيده إلى الواقع حيث الجو الحار والعرق المتصبب والصمت الرهيب والظلام الدامس والانتظار، فما هى إلا ساعات تفصله عن المشهد الأخير فى محاكمته هو وڤالترود وفرانز كيسو . . وصوته الدفين يردد « ماذا سيفعله بى هؤلاء الفراعين؟ أم ماذا ستفعل بى السماء؟» .

ڤالترود فى نفس الليلة حالكة الظلام . . تتقلب على سريرها الذى يكاد يقصم ظهرها على غير ما اعتادت فى حياتها الماضية من الأسرَّة الوثيرة . . شريط ذكرياتها كلما توقف، عاد ليدور مرة أخرى . . ستة أشهر فى الحبس الانفرادى مضت على هذا المنوال وصورة سمير ناجى لا تفارقها . . خاصة

عندما تصل لتلك النقطة التى ذكرها سمير ناجى فى آخر يوم من المحاكمة، عندما قال: «إنه من خلال تعاملى مع قضايا التخابر لأعوام كثيرة مضت، فإننى أؤكد أن أى نوع من العلاقات أو ما شابه؛ الزواج أو الطلاق أو الحمل أو الحب أو حتى الكراهية، فى أى جهاز أمن لا يتم إلا بأمر معطى وحسب خطة موضوعة. . ولا يوجد زواج بين الجواسيس إلا إذا كانت هناك موافقة معطاة من السلطة العليا. . ».

العرق يتصبب منها. . ويداها تلتفَّان حول رقبتها فى مشهد أقرب لبروفة الإعدام. . والإحساس بحبل المشنقة الغليظ. . ثم يعود شريط الذكريات ليعمل مرة أخرى وكلمات سمير ناجى هى هى، «ولأذكركم بقضية الجاسوس الذى قبضنا عليه مؤخراً والمسمى بـ: چون ليون توماس وزوجته كيتى، والذى كان يتجسس لصالح إسرائيل، والذى تم إعدامه وزوجته التى حكم عليها بالإعدام غيابيًا. . ، لقد وافقت منظمة الموساد على زواج لوتز بڤالترود وفتحت لها حسابًا فى البنك الألمانى بمبلغ ١٥ ألف دولار. . ڤالترود كانت تعرف، كما أقر لوتز بإرساله اللاسلكى السرِّى. . وكانت تصاحبه فى كل أسفاره، خاصة فى تلك التى كانت تستهدف القواعد العسكرية المصرية، وهى التى اخترعت مسألة أنها تعانى ورمًا دماغيًا لخلق عذر بالسفر كل ستة أشهر للوتز ومقابلته لضابط المخابرات الإسرائيلية فى الخارج. . سيدى القاضى، لقد كانت ڤالترود تساعد لوتز حتى فى جمع المعلومات عن قواعد الصواريخ السرية، والمطارات العسكرية، والمهابط والطرق الجديدة، والتقارير اليومية عن اتجاهات الرأى العام، وحرب اليمن والخبراء الألمان. . ».

وهنا توقف شريط الذاكرة وأطرقت ڤالترود برأسها على سريرها ليتدلّى، فى تجسيد لإحساس النهاية التى بات يفصلها عنها ساعات قليلة فى الصباح الباكر.

* * *

الساعة العاشرة صباحًا ـ ٢١ أغسطس ـ القاهرة

يومٌ فاصل فى حياة لوتز وڤالترود وكيسو، حيث كان ثلاثتهم فى قفص الاتهام، فاليوم هو يوم النطق بالحكم فى القضية التى باتت الشغل الشاغل للمصريين ودولة أخرى بأكملها لا تبتعد كثيرًا عن مصر . . .

القضاء المصرى يعيش اليوم لحظة عظيمة كما عبَّر بذلك سمير ناجى لأحد المراسلين الأجانب الذى وقف إلى جوار عشرات المراسلين وآلات التصوير المحاطة بحرس يرتدون البزات السوداء ويختلط فيها من هو ضابط بمن هو جندى بمن هو تابع للمباحث العامة فى زيه المدنى . .

قاعة المحكمة ممتلئة بالحضور . . وها هو الباب الصغير يُفتح بشكل رسمى حيث يؤدى إلى غرفة القضاة، ليظهر منه القضاة مع دوى كلمة «انتباه» فى القاعة .

ها هو المستشار فهمى البدوى بردائه الأسود المعتاد وشارته الخضراء . . وفى نظرة بانورامية ألقاها فهمى البدوى قبل أن يستقر على مقعده فوق

المنصة، وبجانبه المستشار أحمد جمال الدين الشربينى، والمستشار محمود كامل عطيفة . .

وها هو سمير ناجى يحتل موقعه المميز كادعاء فى زيّه المعهود ونظارته السوداء السميكة التى لا تفارقه ووشاحه المنسدل على جنبه.

كلمة انتباه تدوى مرة أخرى فى القاعة . . ويقف عندها لوتز على قدميه المرتعشتين وإلى جانبه وقفت ڤالترود وكيسو وأطرقا السمع داخل القفص.

وفى الصف الأمامى جلس القنصل العام الألمانى وعدد من الصحفيين العالميين وممثلو شركة مانيسمان وكذلك محامى الدفاع على منصور وكراهل وعدد من رجال الأعمال الألمان وعدد من ممثلى جمعيات حقوق الإنسان منهم شاب ألمانى كان يزور لوتز فى السجن ويمدّه بالسجائر والمجلات . . .

طرق القاضى بمطرقته

«فُتحت الجلسة، ليلزم الجميع أماكنهم، ستُعلن المحكمة الآن الحكم فى قضية السيد/ يوهان ڤولڤجانج لوتز وڤالترود كلارا مارتا وفرانز كيسو».

وهنا نظرت ڤالترود للوتز حيث كانت شاحبة الوجه . . ربت لوتز على يديها قائلاً: «حاولى التماسك مهما حدث، لا تمنحى هؤلاء المصريين المشهد الذى يريدونه» . . .

القاضى: «سيد لوتز».

لوتز: «نعم سيدى».

القاضى: «لقد وجدتك المحكمة أنك مذنب فى التهم المنسوبة إليك بالاستمرار والإصرار على التجسس والتخريب لصالح إسرائيل ضد الجمهورية العربية المتحدة وقد حكمت عليك المحكمة بعقوبة الموت».

وهنا صرخ جميع من فى القاعة وتعالت أصواتهم.. وعادت الطرقات مرة أخرى ليستكمل القاضى كلامه: «لكن نظرًا لما قامت المحكمة بوضعه فى الحسبان مما وضّحه محامى دفاعك من تعاون نسبى مع المحققين وأنك قمت بما قمت لأجل المال وكذلك لما لألمانيا من روابط معنا، فإننا نحكم عليك بالسجن خمسة عشر عاما الأشغال الشاقة وغرامة قدرها ٣٢٥١٩ مارك ألمانى ومصادرة كل الأجهزة التى كانت فى حوزتك ويُصدَّق على الحكم من قِبل رئيس الجمهورية».

وهنا ساد شعور فى القاعة بالاستهجان.. أى حُكم غير الشنق يشفى غليل هؤلاء الناس والرأى العام الذى تابع خلال الأشهر الماضية، وتم تعبئته بشكل حماسى تجاه لوتز، والآن ها هو يأخذ حكمًا آخر.

القاضى: «سيدة ڤالترود كلارا مارتا».

ڤالترود: «نعم سيدى القاضى..»، قالتها وخيط رفيع من الأمل بدا واضحًا على وجهها بعد سماعها لحكم لوتز الذى أمسكت بيده.

القاضى: «لم تجدك المحكمة مذنبة فى التهم المنسوبة لك بالتجسس والتخريب لكن المحكمة تجدك مذنبة فى التهم البسيطة من مساعدة وتحريض

لزوجك فى نشاطاته الإجرامية الموجهة للجمهورية العربية المتحدة وعليها فقد حكمت المحكمة عليك بعشر سنوات سجن وغرامة قدرها ٧٠٠٠٠ مارك ألمانى ويُصدق على الحكم من قبل رئيس الجمهورية».

وهنا ضغطت ڤالترود على يد لوتز والثقة تملؤها، ونادى القاضى على كيسو بالألمانية ثم قال بالعربية: «بعد النظر بدقة والأخذ فى الاعتبار البراهين التى قُدمت ضدك تجدك المحكمة بأنك غير مذنب بأى منها حيث كانت مراسلاتك عليها تقارير لمعلومات اقتصادية عادية نُشر أغلبها فى صحف ألمانية».

وصرخ القاضى فى الجميع: «رُفعت الجلسة».

وبدأ الحرس فى الالتفاف حول الثلاثة داخل القفص عند خروجهم منه مشكلين حاجزًا بينهم وبين عدسات التصوير والجالية الألمانية الحاضرة، وبدأت الهتافات داخل القاعة، ومشى الجميع فى صف واحد عبر السلالم الواقعة خلف المحكمة.. حيث سيارة السجن وعدد من العربات المصفحة المصاحبة والمحيطة بهذه السيارة التى يصعد درجاتها لوتز ويُلقى نظرة على مجموعة من الفضوليين والصحفيين الذين يصرخون.. يا لوتز يا لوتز.. ما هو شعورك.. ومع ابتسامة صغيرة من لوتز وتحية بيده فى الهواء بعثها لهؤلاء، انطلقت السيارة والحرس المرافق فى سرعته إلى حيث سيقضى لوتز أيامه القادمة هو وڤالترود، بين جدران السجن مع عدد من الشخصيات الكبيرة التى سيصادفها هناك وربما عدد من الأصدقاء أيضًا.

مساء ٢١ أغسطس ١٩٦٥ ـ مبنى المخابرات الحربية ـ حلمية الزيتون

حالة من النشاط فى ذلك المبنى رغم ساعات الليل المتأخر . . . رتب عسكرية تتحرك فى حزم . . جميعهم يرتدون ملابس مدنية لا تدل على رتبهم العسكرية إلا أن الجميع يتحرك فى نطاق ضيق عبر الطوابق الثلاثة الموجودة فى قلب الحى السكنى المعروف . . .

دقات الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل . . بدأ الاجتماع المهم وبحضور قادة الأفرع . . ومجموعة من شرائط السينما ٣٥ ملم التى تربض على طاولة الاجتماعات فى المقدمة مع آلة العرض . . بدأ أول شريط فى العرض وانهمك جميع الضباط فى المشاهدة . . وفى يد كل منهم ورقة وقلم لتدوين الملاحظات .

وهكذا استمر العرض حتى انتهت الأفلام الخمسة التى كانت عبارة عن لقطات لمنشآت عسكرية ، وحفلات ، وصور لبعض الوثائق المهمة باللغة الألمانية واللغة الإنجليزية وكذلك العربية . . قامت بالتقاطها ڤالترود عبر سنواتها الخمس التى قضتها إلى الآن فى مصر مع لوتز الذى شهدت القاهرة اليوم محاكمته علنًا أمام أعين العامة . .

أضىء مصباح قاعة الاجتماعات وبدأ رئيس الجهاز الحديث وهو فى غاية الحنق والتوتر ، «طبعًا كارثة كبيرة بكل المقاييس ، اللى عنده تعليق يقوله قبل ما أتكلم» ، نطق بهذه الكلمات رئيس المخابرات الحربية وهو رجل ذو ملامح حادة يحمل بين حاجبيه تفاصيل حياة مليئة بالأهوال وذكاؤه يكاد يقفز من عينيه .

عـمـيـد: «يا فندم إحنا فى خـلال السنوات السبع اللى فـاتت وإحنا فى حرب باردة مع إسرائيل. . أهم ملمح فيهـا كـمية الجـواسيس اللى بيتـقبض عليهم، واللى لسًّا إحنا متابعينهم وحنقبض عليهم فى القريب العاجل وا هو لوتز آخر فأر سقط فى المصيدة حتى الآن».

رائد: «هذا تقرير كامل ومفصَّل عن حجم المعلومات ونوعها إللى حصل عليها لوتز، متضمن الرسائل المشفرة سواء استقبالاً أو إرسالاً. . طبعًا زى ما سيادتك كلفتنى، أنا حضرت كل جلسات المحاكمة وقدمت شهادتى كخبير وممثل لوزارة الدفاع أمام القضاء».

القـائد: «الجـزء الأهم هـو الجـاى. . عـايز منكم وضع خطة تحـرك زمنيـة لتغيير المواقع العسكرية والخرائط على مستوى وزارة الدفاع بالكامل وخاصة قواعد الصواريخ. . لأن احتمـال وصـول معلومات دقيقـة للعدو أكبر بكتير من المتوقع أو المستنتج.

الخطة تكون جاهزة خلال أسبوع لعرضها على السيـد وزيرالحربية ومن ثم السيد رئيس الجمهورية.

الطلب الثانى: وضع كـافة القيادات من رتبة عـميد فصاعد تحت الرقابة ورفع تقارير شهرية عنهم. . أصدقائهم. . حفلاتهم. . مكان وجودهم أثناء إجازاتهم واحتكاكهم بالمدنيين وخصوصًا لو أجانب».

العميد: «عُلم وينفَّذ يا فندم».

الرائد: «عُلم وينفَّذ يا فندم».

القائد: «انصراف للجميع ما عدا النقيب خيرت، عايزك ما تمشيش».

انصرف الجميع بهدوء، حتى الفنِّى الذى يقوم بعرض الأفلام.. وأصبحت القاعة فى صمت...

القائد: «تعال يا خيرت، اقعد هنا قدامى».

النقيب خيرت: «تمام يا فندم.. تقرير الرأى العام الخارجى جاهز وتقرير الرأى العام الداخلى جاهز».

القائد: «أنا عايز منك حاجة تانية، كل الرُّتب المتورطة فى قضية لوتز، تتأكد بنفسك من وقوع الجزاءات وتطبيق قرارات المحاكم التأديبية اللى حتتعمل لهم خلال الأيام الجايَّة..

حاسس يا خيرت إن فى مصيبة كبيرة حتحصل لمصر الأيام الجاية لو ما فتَّحناش عنينا بشكل كفاية.. إحنا مهتمين بالروح المعنوية والدعاية أكثر من الواقع».

النقيب خيرت: «يا فندم أنا خايف من استدراجنا لطلب رفع قوات حفظ السلام الأجنبية من سيناء.. الإذاعات العربية والتصريحات مش سايبانه وبتعايرنا».

القائد: «أمَّال فين صوت العرب وأحمد سعيد.. إنت مش على اتصال دائم معاهم؟».

نقيب خيرت: «ده قائم يا فندم طوال الوقت.. لكن...».

القائد: «لكن إيه؟ اتكلِّم يا خيرت؟».

نقيب خيرت : «استأذن سيادتك . . أقولك كل حاجة لكن بعد أسبوع . . لما أتأكد منها» .

القائد يحرِّك رأسه بهدوء : «خذ وقتك . . وزى ما علمتك ـ الهدوء والدقة ومحدش فوق الشبهات» .

قام النقيب خيرت وأدَّى التحية العسكرية وانصرف ومعه مجموعة من الملفات . . وبعد أن تأكد القائد من خلو القاعة ، رفع سماعة التليفون الأحمر قائلاً : «إدينى يا بنى الرائد صلاح . . المخابرات العامة» .

لحظات وكان الرائد صلاح على الخط ويرد بترحاب شديد وبعد تبادل عبارات الاطمئنان قال القائد : «بقولَّك إيه يا صلاح . . الراجل الخواجة اللى اسمه لوتز ده أخباره إيه؟» .

الرائد صلاح : «حيقعد شوية فى سجن القناطر لحد ما يصدَّق رئيس الجمهورية على الحكم وبعدين يروح طُرة» .

القائد : «عايزين نعرف أخباره فى السجن» .

الرائد صلاح يقهقه ضاحكًا ويقول : «اطمن يا فندم اللى عايزه حيحصل وموضوع فى الاعتبار اللى أبعد من السجن كمان» .

القائد يردّ على الضحك بضحك أعلى : «عارف والله يا فندم ، رجَّالة صلاح بيه نصر ، ما بيفوتوش حاجة ، الله ينوَّر يا فندم» .

وعادت المكالمة لإيقاعها الهادئ ثم انتهت . .

* * *

أكتوبر ١٩٦٥ - سجن القناطر

سجن النساء مقابل سجن الرجال . . هناك امتيازات حصل عليها لوتز خلال الأيام الماضية منها زيارة ڤالترود له ساعة واحدة كل صباح، زيارة القس البروتستانتي الألماني صاحب اللسان الحلو للوتز للتخفيف عنه كل أسبوع حيث كان يمد لوتز ببعض الكتب والمجلات وكذلك السجائر . . أما القنصل الألماني د. جيجز فكان في كل زيارة يقوم بها للوتز كأنه يقتطع قطعة لحم من جسده . . فهو رجل فظ بطبعه، متململ حتى في واجبات عمله. زيارة واحدة هي التي قام بها حتى الآن للوتز، صافحه فيها بفتور كأنه لم يُشاهده من قبل رغم الحفلات التي كانا قد تقابلا فيها في الماضي . .

الحال تغيرت بالنسبة للوتز الأيام الماضية . . بعد حياة الرغد والشهرة هو الآن في السجن المؤقت ينتظر تصديق رئيس الجمهورية على حكمه . . هو الآن لا يشعر إلا بقلق طفيف . . فطبقًا للقانون المصري الذي يُعطي لرئيس الجمهورية صلاحية تنفيذ الحكم الصادر أو تخفيفه أو حتى منح عفو نهائي لكنه لا يستطيع الزيادة في الحكم . . وبالتالي لوتز مطمئن إلى أن حبل المشنقة أصبح بعيدًا عنه كل البعد، إلا أنه يخاف أن يُوضع له سم أو يتعرض للتعذيب، فهو في السجن الذي طالما سمع عنه الكثير .

زنزانة لوتز متران في مترين، تعلوها نافذة صغيرة ذات قضبان سميكة، يقضي فيها ٢٢ ساعة ونصف ما بين نائم أو قارئ أما الساعة والنصف المتبقية فهي موزّعة ما بين رؤية ڤالترود، والمشي بجانب سور السجن وبصحبة الحرّاس المدججين بالسلاح، الحديث مع السجناء ممنوع، الزنازين شديدة القسوة على السجناء الذين يفترشون بطاطين مهترئة على الأرض، فالأثاث

والأسرةّ شيء من الرفاهية لا يحظى به إلا قلّة، منهم لوتز، هناك صفيحة فى زاوية الزنزانة لقضاء الحاجة وأخرى مملوءة بالماء، يقوم بتنظيف زنزانة لوتز أحد السجناء بأمر من الرقيب المسئول عن العنبر، والذى كان لوتز يُلاحظ بعد كل عملية تنظيف اختفاء علب السجائر أو بعض الجوارب التى سُمح للوتز الاحتفاظ بها وببقية ملابسه على غير العادة والقانون.

هناك صوتٌ خلف النافذة أعلى الزنزانة ينادى لوتز من آن لآخر: «يا خواجة.. خواجة لوتز».

إنه صوت سجين عرف لوتز فيما بعد أنه محمد مكّى، مسئول كبير فى الأعراف الملكية قبل الثورة، قُبض عليه وهو يقوم بتهريب طائرة محمَّلة بسبائك ذهبية من ممتلكات الأسرة الملكية إلى الملك فاروق فى إيطاليا.. قضى حتى الآن ١٣ عامًا من حكم عليه بالمؤبد.

ها هو الصوت يُعاود مرة أخرى.. «خواجة لوتز».

لوتز: «أوه.. أهلاً بك من جديد يا محمد.. إيه الأخبار؟».

محمد مكّى: «النهار ده وصل التصديق على حكمك وحينقلوك إلى سجن طرة قريّب، والله كانت صحبه طيبة يا خواجة».

لوتز: «وماذا عن زوجتى ڤالترود؟».

محمد مكّى: «لقد صدق على حكمها أيضًا لكنها ستبقى فى سجن النساء هنا فى القناطر لكن على أية حال سجن طرة ده سمعته زى الزفت بس حتقابل واحد هناك اسمه ڤيكتور، حايساعدك وابقى سلّملى عليه».

لوتز: «من هو ڤيكتور هذا؟».

محمد مكّى: «ده جاسوس إسرائيلى، واخد مؤبد وبقاله ١١ سنه وهو تقريبًا اللى بيدير سجن طرة بفلوسه وسجائره وعلاقاته وكمان حسب الأقدمية فى السجن ودى حاجة مهمة جدًا. . سلام مؤقت لأن الحارس النجس شكله جاى. . سلام يا خواجة».

ها هو الصمت يعود مرة أخرى فى زنزانة لوتز مع الأخبار السيئة، فهو لن يستطيع رؤية ڤالترود كما كان. . وأخذ لوتز يحكُّ جبينه بيده اليسرى محاولاً تذكر من يكون ڤيكتور هذا. . «هل يا ترى هو ڤيكتور ليڤى أحد المتورطين فى قضية لاڤون؟ كيف تكون شخصية هذا الرجل؟ هل أكشف له عن هويَّتى؟ وأسئلة كثيرة دارت فى رأس لوتز لكنه فى النهاية حسم أمره وقال بشكل منولوجى: «فى النهاية ليكن ما يكون. . هو زميل فى عالم الجاسوسية وإسرائيلى مثلى».

وصمت لوتز على صمته، وأغلق عينيه منتظرًا طلوع الصباح والسجن الجديد».

فى مكتب مدير سجن القناطر جلس لوتز مع ڤالترود لوداعها حيث أخلى الضابط مدير السجن مكتبه كما هى العادة دائمًا لمثل هذه المواقف الإنسانية. .

لوتز: «لا تقلقى. . سأكون فى حال أفضل فى طرة فهناك أصدقاؤنا».

ڤالترود: «هل تثق فى أنهم لن يتركونا؟».

لوتز : «نعم يا عزيزتى . . ما سأفتقده هو رؤيتك وكذلك قراءة ما تكتبينه على ورق السجائر وتخبئينه فى قعر علبة السجائر ، آه آه آه . هيا يا عزيزتى ابتسمى حتى يمر الوقت بسرعة» .

وطبع قبلة على فمها دامت لدقيقة كاملة ربما كانت لتمتد لولا دخول الحارس المفاجئ واقتياده للوتز مكبلاً فى أغلاله ، حيث أعطاه الحارس بنطلونًا وفانلة طويلة الأكمام خضراء مصنوعة من الخيش ، ليرتديها لوتز قبل صعوده سيارة السجن التى ستنطلق إلى طرة ، جميع السجناء فى الصيف والشتاء ، وأثناء المطر وحتى تحت أشعة الشمس المحرقة لا يلبسون الأحذية بل يسمح لمن يمتلك حذاء أن يبقى معه وعدا ذلك يبقى السجين عارى القدمين . .

ربت مدير السجن على كتف لوتز قائلاً : «شكلك أحسن فى البدلة الخضراء ، هناك فى طره يمكن تلاقى هدوم أحسن » .

صافح لوتز مدير السجن بعد أن ابتسم معقبًا على ما سمعه ، ثم انطلق مع الحارس إلى السيارة وإلى سجن طره سيئ السمعة .



٥

الفصل الرابع

سجن طرة ـ نوفمبر ـ ١٩٦٥

فى ذلك الطريق اعتاد لوتز أن يسير فيه بسيارته الفولكس فاجن وهو يستمتع بالنخيل السامق الموجود على ضفتى النيل حيث مياهه التى تلمع تحت أشعة الشمس ونسائم الصيف التى كانت تداعب شعر فالترود وهى تجلس إلى جانبه فى السيارة . . لطالما مرَّ لوتز من هذا الطريق وكان يُلقى نظرة على أسوار ذاك المكان سيئ السمعة غير آبه به، لكن ها هى الأقدار . . لوتز الآن داخل هذه الأسوار يحمل رقم ٣٨٨ ـ حُكم عليه بالسجن خمسة عشر عامًا كاملة .

يوم فى هذا السجن كألف يوم خارجه . . حياة مختلفة تمامًا بدت للوتز منذ اللحظة الأولى، السيجارة لها مفعول السحر على السجناء، بها يمكنك أن تحصل على أصدقاء، معلومات، سخَّان ماء للشاى والقهوة، سلك معدنى لتوصيل الكهرباء، بطانية إضافية من أحد السجناء وقليل منهم ربما يقبل كنس أو مسح زنزانتك لقاء سيجارتين أو أكثر، هكذا قرأ لوتز المشهد منذ الساعات الأولى له هنا، وبالطبع ليس من الصعب على جاسوس وصل

بذكاء إلى شخصيات مهمة فى الجيش والشرطة والحكومة فى أقل من ستة أعوام أن يصل إلى أصدقاء جدد فى عالم أقل رحابة من العالم الخارجى، على الأقل لتحسين ظروف المعيشة الجديدة. دارت كل هذه الأحاسيس والأفكار فى رأس لوتز المستلقى على بطانية مهترئة فى زنزانته الجديدة، والتى تفوح منها رائحة البول وكأنها جحر للثعالب، وبعد لحظة واحدة انتفض جسده مرة واحدة فى الهواء وأخذ يحك رقبته بقوة وينظر ليده ليرى «بقَّة» كبيرة الحجم بدا أنها ارتوت من دمه بعد ظمأ طويل.

دقق لوتز فى البطانية ثم فى الجدران على ضوء عود ثقاب فإذا به يكتشف أنه يعيش وسط غابة من البق الجائع. وشعر لوتز بإعجاب شديد بأسلوب البق فى التعامل مع الإنسان.. لا ينتبه له الإنسان أنه يُشرب من دمه إلا بعد الانتهاء من أخذ الحصة كاملة، بعدها يشعر المرء بوخز وبرغبة فى الحك.. تمامًا كما يفعل الجاسوس فى أى مجتمع، فلا ينتبه له إلا بعد فوات الأوان... وها هو لوتز يشرب من نفس الكأس على طريقة الطبيعة.

وقع أقدام تقترب من الزنزانة ولوتز ينظر إلى الباب فى ترقُّب، وإذ بالباب يُفتح ليظهر منه الحارس.. كانت الساعة تقترب من السابعة مساءً.

«نمت ولا إيه يا خواجة؟ قوم انتباه علشان الضابط النوبتجى بيعدِّى على الزنازين».

لم يكترث لوتز بما سمعه وبقى جالسًا يتابع النظر فى البق وما هى إلا لحظات وسمع صوت الضابط يصرخ فيه: «ألم يُعلمك الحارس بقدومى أيها السجين المستجدّ؟. قف».

نظر لوتز بهدوء للضابط وقام فى تباطؤ قائلاً بسخرية: «هل هى زيارة خاصة؟ أنا لا أحب الزيارات المتأخرة فى هذا الوقت».

الضابط يرمقه بنظرة اشمئزاز ويقول له: «فى السجن هناك زيارات من نوع آخر، عليك أن تدعو الله ألا تكون من نصيبك». قالها وضرب الباب بقدمه فى استدارة مرنة وانصرف وتبعه الحارس، وبقى صدى العبارة يرن فى أذنى لوتز مع صوت القفل الحديدى والسلاسل والمزلاج، وشعور فى داخله وكأنه فى قلب المحيط.

وما هى إلا دقائق حتى كسر ذلك الصوتُ الصمتَ المحيط بلوتز.. إنه قادم من أعلى هذه المرة حيث نافذة صغيرة.. بحجم كرة القدم.. «يا خواجة.. يا خواجة لوتز».

وقف لوتز واقترب من النافذة بحذر قائلاً: «من أنت؟ وماذا تريد؟».

«أنا من طرف السيد ڤيكتور. لقد أعطانى علبة السجائر هذه لك، وهو يرسل لك تحياته ويطلب منك الصبر حتى صباح الغد وسيكون كل شىء على ما يرام».

لوتز: «من هو ڤيكتور؟».

باغته الرجل بقوله: «يبدو أنه مهتم بك كثيراً، ولا يفعل ذلك إلا مع الإسرائيليين مثله، هل أنت إسرائيلى؟».

لوتز: «لا أنا ألمانى».

الرجل: «لكنك جاسوس تعمل لصالحهم، لا يهم.. هل تريد كوبًا من الشاى الدافئ؟».

لوتز بتعجب وشغف: «وكيف السبيل إلى ذلك؟».

الرجل: «انظر إلى علبة الصفيح التى تنزل تدريجيًا من النافذة.. هل تراها؟».

لوتز: «نعم. ها هى».

الرجل: «انتبه حتى لا يقع عليك الشاى، حاول التقاطها لأن الخيط قصير».

لوتز: «يا للنعيم سجائر بلمونت وشاى ساخن.. أريد الآن عاهرة، هل يستطيع السيد ڤيكتور توفيرها لى؟».

الرجل يقهقه ضاحكًا: «غدًا سيوفر لك ڤيكتور كل ما تريد، إلى اللقاء».

انصرف الرجل تاركًا لوتز فى حالة حيرة شديدة، لتتأكد ظنونه حول هذا الشخص.. إنه ڤيكتور ليڤى أحد عملاء الموساد المتورطين فى قضية «لاڤون»، وهو يمضى عامه الحادى عشر فى السجن لكن أين الشخصان الآخران المتورطان معه؟ ما يذكره لوتز أن «مارسيل مينيو» كانت مع ڤالترود فى سجن القناطر كما أخبرته بذلك.

تنهّد لوتز بهدوء بعد أن شرب الشاى الذى أصبح المتبقى منه باردًا بفعل علبة الصفيح وبفعل البرد القارص ليلاً داخل الزنزانة.. لوّح لوتز بيده

لتستقر علبة الصفيح بما فيها فى زاوية الزنزانة فى قاع علبة الصفيح المليئة بالبول المعتَّق منذ كان آخر سجين فى الزنزانة، وأطرق رأسه ومالت به الدنيا إلى عالم الراحة إلى النوم.

* * *

٣٠ ديسمبر - بيونس آيرس - الأرجنتين - وزارة الدفاع

فى مكتب كبير احتل الدور الثالث فى مبنى وزارة الدفاع الأرجنتينية جلس طاقم السكرتارية الذين بدا عليهم التحضير للقاء مهم وحاسم..

عدد من الوثائق يضعها أحدهم فى ملف أزرق، والآخر يقوم بتجهيز آلة عرض سينمائية مع ثلاث علب شرائط أفلام.. وثالث يقوم بالاتفاق مع مترجم من العربية، على طريقة وسرعة الترجمة.. أما الرابع فهو يجهز آلة التسجيل الصوتى لكل ما سيدور فى تلك القاعة التى سيجتمع فيها وزير الدفاع الأرجنتينى السيد «أورتيجا آليخاندرو» بضيوفه العرب..

بعد دقائق قليلة وأمام مدخل المبنى استقرت سيارة سوداء اللون معلَّق على طرف مقدمتها علم الجمهورية العربية المتحدة.. باب السيارة يُفتح وينزل منه رجلان أحدهما مدنى والآخر بملابس عسكرية، يصعدان إلى المبنى فى خطوات سريعة وحاسمة.. وبعد دقيقتين استقر فى نفس المكان

سيارة أخرى لها نفس اللون وعلى طرفها كان علم العراق، ونزل منها رجلان أيضًا أحدهما مدنى والآخر بملابسه العسكرية، سلكا نفس الطريق إلى الداخل حتى استقر الجميع فى القاعة المعدَّة للاجتماع . .

وبدأت لحظات الصمت وتبادل النظرات والهمهمات كلٌّ مع مساعديه، بدأ الحديث وزير الدفاع الأرچنتينى : قائلا «أهلاً بضيوفنا الأعزاء، شركائنا فى الكفاح ضد الاستعمار والقوى المعتدية» .

بدأ المترجم الأرچنتينى فى ترجمة كل ما يقوله وزيره إلى العربية والعكس إلى الإسپانية، كل ما يقوله الرجل الأول على اليمين الذى يرتدى بزة زرقاء وربطة عنق حمراء، وقد استقر أمامه على الطاولة علم الجمهورية العربية المتحدة، والذى قال : سيد «آليخاندرو»، الرئيس ناصر حمَّلنى سلامه الخاص لك ولكل شركاء التحرر فى الأرچنتين . . ونحن نتطلع إلى التعاون العسكرى فى هذا المشروع المشترك معكم ومع أشقائنا فى العراق . .

أومأ الضيف الذى استقر علم العراق أمامه على الطاولة قائلاً : «بكل تأكيد سيد «آليخاندرو» فالمصلحة واحدة وأنا بصفتى سفيراً للعراق لديكم أحمل كامل الصلاحيات أنا والسيد عبد الرحمن عارف فى إقامة هذا الاتفاق معكم ومع الجانب المصرى .

وزير الدفاع الأرچنتينى يُعطى الإشارة لبدء عرض الفيلم التسجيلى المصوَّر ويبدأ فى التعليق عليه : «إن الصواريخ تحقق هدفًا مزدوجًا فهى تصد

الطائرات المعادية وفى الوقت نفسه تصنع نوعًا من الدعاية السياسية وتعطى بريقًا خاصًا للزعماء . .

هذه أول صورة لصواريخ الكوندور[٣]. فى تلك المساحة يتم وضع الاحتياجات اللازمة للبدء فى هذا المشروع . . ».

السفير المصرى : «إنكم تحلمون بأن تكون الأرجنتين القوة الضاربة فى أمريكا اللاتينية كلها، خاصة ضد إنجلترا . . فلديكم مشكلة جزر الفوكلاند ونحن نوافق على أن نكون ضابط الاتصالات فى هذا المشروع» .

السفير العراقى : «لقد كنا نبحث عن طرف ثالث معنا ومع الأرجنتين حتى لا يجذب الانتباه لأعدائنا ولا لأعداء الأرجنتين لذلك وقع اختيارنا عليكم أيها المصريون» .

هنا يرمق الرجل العسكرى الجالس بجانب السفير المصرى الذى لم يكن إلا شمس بدران الرجل ذو النفوذ والجبروت فى مكتب المشير عامر، والذى علّق بالإسبانية وبطريقة أدهشت الجميع وكل من كان فى القاعة قائلاً : «حسنًا شيء مقابل شيء . . الأرجنتين تقدم شبكة اتصالاتها الأوروبية وخبراتها التكنولوجية، والعراق بموارده المالية اللازمة، ونحن نقدم التمويه والحماية لهذا المشروع وإذا أحببتم، نقدم الأرض والمكان الآمن البعيد عن أى شبهات أو شكوك . .

(٣) مشروع حقيقى تم فيما بعد فى مطلع الثمانينيات وكان للمشير أبو غزالة دوره الكبير فيه .

وزير الدفاع الأرجنتينى يوجه تعليقًا للسفير المصرى: «برغم مشاكلكم المثارة حول مشروع القاهر والظافر.. فهناك قلق أمريكى إسرائيلى شديد منكم ولكننا وجدنا مصر خير شريك فى هذا المشروع.. ونعلم أن لديكم الخبرات الوطنية التى تعمل وتدرس فى هذا المجال إلى جانب الخبراء الألمان.. إن الزعيم ناصر بالفعل يستحق الإعجاب..

بدا على الجميع أمارات الرضا والحماس.. وبدأت وثائق مشروع الكندور تُوزَّع على الجانبين المصرى والعراقى، ثم تبادل الجميع توقيع بروتوكول التعاون وانصرفوا بهدوء.

* * *

التاسعة مساءً - مقر السفارة المصرية فى بيونس آيرس

«حتى ولو لم يُنفَّذ هذا المشروع الآن فإنه نواة لعمل جيد معهم خلال السنوات القادمة»، قالها السفير المصرى لشمس بدران وهو يضع أمامه كوبًا من الشاى فى اجتماعهم المغلق الذى اقتصر عليهما فى أعلى غرفة فى مبنى السفارة، حيث عادة ما يلجأ لها السفير فى اجتماعاته السرية المهمة ليضمن عدم وقوعها تحت طائلة أجهزة التنصُّت الاستخباراتية.

أومأ شمس برأسه قائلاً: «كلامك صحيح وهوَّه المتوقع لأن المشروع ده حيتكلف مليارات والعراقيين لسَّا عندهم مشاكل مع شركات البترول اللى

واخده امتيازات التنقيب . . صحيح مصلحتهم معانا خاصة وأنهم فى أى وقت ممكن يقعوا فى حرب مع إيران، وهوّه ده الضمان الوحيد لينا معهم».

السفير : «إنت مسافر إمتى؟».

شمس : «بكره فى طيارة ٥ مساءً».

السفير : «قبل سفرك حيكون عندك ملف كامل بالموقف السياسى للأرجنتين والسيناريوهات المحتملة مع دول الجوار ومع إنجلترا».

شمس : «أشكرك يا سعادة السفير واسمح لى أبقى فى الغرفة دى لحد ما أمشى علشان عندى اجتماع مع الملحق العسكرى . . وعايز أضمن سريته وأمانته».

السفير : «طبعًا يا شمس بيه، أنا سامع أخبار حلوة عنك بإن منصب وزير الحربية حيكون من نصيبك الفترة الجاية».

شمس بتأفف : «الشائعات بتضر حتى ولو كانت صحيحة، من فضلك؟!!».

تصافحا وانصرف السفير، فيما انهمك الوزير فى قراءة أوراق مشروع الكوندور والصور المصاحبة ووضع الملاحظات بالقلم الأحمر فى ورقة منفصلة، وهو بين الحين والحين يشرد ببصره وتفكيره إلى مكان آخر ومشروع آخر لا يختلف كثيرًا عن الكوندور وفى رأسه أسئلة كثيرة عن الخبراء الألمان الثلاثة الذين قدَّموا اعتذارهم لوزارة الدفاع عن الاستمرار فى

تجاربهم فى مشروع «القاهر والظافر»، ويحاول أن يعثر على بدلاءَ بنفس الخبرة التى يتمتع بها هؤلاء، خاصة فى مجال الأبحاث الجرثومية».

* * *

يناير ١٩٦٦ ـ سجن طرة

صفعة قوية تنزل على وجه الحارس الذى مال برأسه على جدار الزنزانة مستجيبًا لسلطان النوم ولحالة التعب التى لا تفارق أحدًا من حراس هذا السجن..

«قوم يا عسكرى.. مش لابس بيادتك ليه فى رجلك، ومش معلّق الآيش ليه زى الناس.. وكمان نايم.. افتح الزنزانة».

كان هذا الصراخ كفيلا بإيقاظ لوتز من نومه.. الساعة الرابعة ليلاً.. وما هى إلا لحظة وصوت المزلاج يُفتح وكشافات الحراس المرافقين للرائد النوبتچى مسلّطة على وجه لوتز وبدأ الصمت للحظات يهيمن على الجميع.. ثم انطلق صوت الرائد: «اقلع يا سى لوتز».

لوتز ينظر بتعجب للرائد قائلاً فى سخرية: «هل هى حفلة شواذ».

الرائد: «ده إجراء مفاجئ ودائم يا لوتز، نحن نجرى تفتيشًا كاملاً، هكذا التعليمات.. اخلع هيا».

لوتز يرد بتهكم: «هلاً وجهتم هذه الاحتياطيات والدقة إلى الجبهة فهى تحتاجها هذه الأيام والأيام القادمة».

الرائد: «ماذا تقصد.. يا خواجة».

لوتز: «لا تستمع كثيراً إلى الراديو، لا بد أن يكون لك مصادرك الخاصة كرجل عسكرى».

الرائد بملامح هادئة: «سوف نقضى عليكم يا حثالة ونرميكم فى البحر، أنا واثق من إنك إسرائيلى ولست ألمانيًا أيها المخادع».

وبسرعة انصرف بعد أن أتمَّ التفتيش.. وعاد لوتز هادئا صامتًا فى زنزانته وكأنه لم يتأثر بما قاله الضابط وهو يتساءل: «لقد أمضيت الآن الفترة الكافية لأكون على دراية بما يحدث فى هذا السجن، ترى من هو الشخص المناسب لأرشوه من أجل الحصول على بعض المعلومات، لكن لسوء الحظ نفدت سجائرى وهى العملة المستخدمة داخل السجن».

هز لوتز رأسه بهذا المنولوج ووضع رأسه على وسادته وهو يفكر فى لقائه غداً بـ «ڤيكتور ليڤى» الذى أصبح صديقًا حميمًا ومصدراً للقوة وللسجائر أيضًا.

* * *

داخل السجن فى وردية الليل عادةً ما يأتى عبد الله عمارة، مدير السجن ليشرف بنفسه على درجة الانضباط فى السجن.. فهو يعتقد أنه لا بد

للسجن من أن يترك أثره النفسى على السجين ليحدِّث الناس به فيما بعد ويتأكدوا من قسوة هذا المكان .

وها هى ساعات الصبح تبدأ بعد ليلة من ليالى القهر مرت على جابر المقيم فى زنزانة مجاورة للوتز، وها هو يحاول النهوض بصعوبة كبيرة . .

«يلا يا جابر وراك شغل كتير النهاردة، الحقنى عند الخواجة لوتز»، قالها فتُّوح، السجين الفظ الضخم الذى يسكن الزنزانة المجاورة لجابر، شتَّان بين الزنزانتين .

جابر برأس منخفضة وممتثلة : «حاضر يا باشا» .

وصلا إلى أول محطة فى عمل اليوم، إلى لوتز فى زنزانته المفتُّوحة؛ فعادة ما تُفتح الزنازين ساعة واحدة فى الصباح للنظافة، ودخلا واستقبلهما لوتز بالترحيب .

فتُّوح : «أخبارك إيه يا خواجة؟» .

لوتز : «معقول!» .

فتُّوح يشير إلى جابر : «يلا نضَّف زنزانة الخواجة علشان يوجب معاك»، ويصمت فتُّوح لحظة ويعلِّق على جابر : «إيه ده ياحمار الخيشة المعفنة دى؟» .

جابر قائلاً : «معلش يا باشا والله مالقتش ميه أغسلها» .

فتُّوح يدور نصف دورة حول جابر وبمكر ولهجة آمرة : «أنا شايف إن قميصك ينفع بدل الحتَّة المعفنة دى» .

جابر، يتلعثم فى كلامه وهو يقول: «بس يا باشا . . ».

فتُّوح: إنت مابتسمعش ولاّ إيه؟».

و اندفع فتُّوح نحو جابر وحمله ووضع نصفه على السرير ومزّق بعنف ثياب جابر حتى الداخلية والأخير فى حالة استسلام وصراخ بلسانه: «خلاص . . خلاص . . ارحمنى حرام عليك، كفاية».

ومع اختراق أصابع فتوح لمؤخرة جابر، صرخ الأخير صرخة مدويّة . . وعاشت الزنزانة لحظات من الصمت ولوتز يشاهد فى ترقب ما يحدث أمامه ولم ينطق بحرف واحد. ووسط بكاء جابر الذى تحول إلى نحيب بدأ بمسح وتنظيف زنزانة لوتز بقميصه الممزق وبروحه المغتصبة وبجسده السّليب.

فى السجن قوى وضعيف وغنى وفقير . . السجناء جميعهم رجال وهى كارثة بيولوچية؛ لذلك يتعلم بعضهم الشذوذ الجنسى فى الخفاء، وهنا بدا وقع أقدام الحرس يتصاعد ومع اقترابهم أسرع فتوح ولوتز بالجلوس كأن شيئا لم يكن، بعد أن همس فى أذن جابر «لو اتكلمت مش حاعتقك»؛ اقتحم الحرس الزنزانة وفى ثوان اكتشف قائدهم ما حدث، فصرخ فى فتوح قائلا: « مافيش فايدة فيك أنا حذرتك قبل كده لكن اظاهر إنك لازم تتربى وتعرف إنها مش فوضى «ثم صرخ فى الحرس «هاتوووه».

❊ ❊ ❊

في ساحة السجن وتحت أعين الحرَّاس المدججين بالسلاح أعلى الأسوار صافح لوتز ڤيكتور ليڤي بحرارة حيث لم يتقابلا منذ خمسة أيام، وتساءل لوتز عن اختفاء ليڤي طوال هذه المدة!

أجابه «ليڤي»: «كنت أعدُّ مفاجأة لك طال انتظارك لها يا لوتز».

لوتز: «أوه! منذ زمن وحياتي عادية، أرجوك ما هي؟».

أخذ «ليڤي» بيد لوتز وسارا إلى حيث الكانتين لاحتساء بعض الشاي الأسود المغلي للمرة المائة وأسندا ظهريهما إلى شجرة في أقصى الساحة وهمس «ليڤي» ببعض الكلمات، فتهللت أسارير لوتز على إثرها.. وما هي إلا بضع دقائق حتى انصرفا وحالة من الترقب والانتظار تعتري لوتز لتلك الليلة الواعدة.

القاهرة ـ ١٥ سبتمبر ١٩٦٦ ـ كوبرى القبة

وقع أقدام مجموعة من كبار الضباط متجهة إلى قاعة الاجتماعات، الجميع متأهب وفي حالة من الحماس والثقة.

نياشين على الصدور، بيادات سوداء لامعة، صدور منتفخة بالهواء استقر الجميع على طاولة امتدت بطول القاعة، بدأ الحديث من أعلى رتبة في القاعة، والذي لم يكن سوى المشير عبد الحكيم عامر، القائد العام للقوات المسلحة المصرية، سبقه عرض لفيلم تسجيلي لعرض عسكري لوحدة خاصة

وبعض الصور لبعض الأسلحة والتعديلات التى تمت عليها . . وصور أخرى لاختبار سلاح كيماوى جديد على بعض الحيوانات حيث تذوب جلودهم مع انتشار رذاذ تلك المادة الصمغية على أجسادهم .

انتهى عرض الفيلم وأضيئت المصابيح وبدأ المشير فى الكلام :

«شكرًا سيادة اللواء مدكور على كل اللى شفناه فى الفيلم ، طبعًا القيادة السياسية لازم تشوف ده علشان تتأكد من جدية العمل وعدم التهاون مع عنصر الوقت ، وقبل ما أسمعكم عايز أؤكد على أهمية حشد الرأى العام وتعبئة جبهة داخلية مساندة لأولادنا على الجبهة» .

أحد القادة : «سيادة المشير لازم نحط فى اعتبارنا واقع التدريب اللى احنا محتاجينه وهو التدريب القتالى مش بس التدريبات الدفاعية وعلى مستوى الوحدات الصغرى والكبرى .

المشير باهتمام : «نعمل مناورة مشتركة مع الروس أو الألمان» .

قائد آخر : «يا فندم إحنا مش ناقصين تأليب الرأى العام العالمى علينا أكتر من كده ، وبعدين وجود أفضل عناصرنا فى اليمن عامل أزمة ، ده ثلث القوات البرية هناك» .

المشير : «وده فى حدّ ذاته عاملّنا أزمة مالية كبيرة جدًا ، أنا معاكم» .

قائد السلاح الجوى يقلّب الكلام فى رأسه معترضًا على ملاحظات المشير التى لا تهتم إلا بالمال والميزانيات فحسب ، لكنه تغلّب على صمته وقال :

«بالنسبة لينا، إحنا محتاجين مطارات جديدة وملاجئ ودُشم لتلافى الهجمات المفاجئة، ومحتاجين كمان زيادة ساعات الطيران اللى قلّت علشان تقليص الميزانية اللى نصها رايح على تجارب المحركات الجديدة والخبراء الألمان، أنا عايز زيادة فى الميزانية».

المشير: «أد إيه يعنى؟ ما أنا مخصص لكم تلت ميزانية الوزارة السنة دى عايز إيه تانى ؟».

بهدوء ينظر متابعًا تعليقات قادة الأسلحة ثم إلى المشير، الذى لاحظ نظراته فقال له: «عايز تقول حاجة يا شمس؟».

بامتعاض ردَّ شمس: «كل اللى عايز أقوله موجود فى التقرير يافندم اللى سلِّمته لك «ثم نظر إلى المجتمعين واستطرد قائلا «وكل واحد يلمّ نفسه ويلم الضباط الصغيّرين بتوعه».

تبادل الجميع النظرات والهمهمات فى حين استمر شمس فى توبيخه قائلاً: «قلولهم يبطلوا التجاوزات، وإلا كل واحد حيتعاقب عقاب شديد.. أنا عندى أسماء متورطة وبالصور، خاصة عندك يا سيادة اللواء»، ونظر إلى الرتبة الجالسة أمامه حيث أسرع الرجل بالرد: «إزاى يا شمس بيه ده كلام أنا أرفضه».

المشير فى محاولة لغلق الموضوع: «الحاجات الصغيرة دى مش عايزين نقف عندها، ، لو كان ضابط صغير حصلت منه أى تجاوزات ولا حاجة ده موضوع عرضى ومش عايز رطرطة كلام، خلصنا».

أرجع النظر إلى المشير وقال : «الرأى العام الداخلى قلق من صفقة طيارات «السكاى هوك» الأمريكية لإسرائيل، لكن كله تحت السيطرة وأنا عيِّنت ضابط اتصال موجود فى الإذاعة، وكمان برنامج أحمد سعيد «أكاذيب تكشفها حقائق»[٤] بيقوم بدور كبير حتى خارج حدود مصر».

المشير : «بالمناسبة ابعت لأحمد سعيد بكرة، الرَّيس عايزه الساعة ١١ الصبح» وصمت لحظة ثم أكمل «وأنا بقدم لك التهنئة يا شمس».

كانت هذه التهنئة بمناسبة تعيين شمس بدران ابن دفعة ٤٨ الحربية التى حُضِّرت فى الفالوجا حيث اقترب هناك من جمال وعبد الحكيم وحصل شمس بدران بعد ذلك على نياشين وأوسمة وولاء الضباط على كافة الرُّتب، ها هو يُصبح وزير الحربية وها هو قرار التكليف أمام الجميع.

استطرد المشير : «قبل ما أختم اجتماعنا عايز آخذ رأيكم فى حاجة؟».

بفكَّر فيها من فترة، بفكَّر فى سحب قوات حفظ السلام الدولية وإغلاق الخليج علشان أربِّى الجماعة السعوديين اللى مش فاهمين حاجة وبيلسِّنوا وبس، مش عايز ردّ دلوقت، بعدين، اتفضلوا».

الجميع فى حالة صمت للحظات قبل انصرافهم لتبقى القاعة خالية ما عدا شمس والمشير الذى توجه بسؤال شمس « ما قرأتش هيكل امبارح؟».

---

(٤) برنامج كان يقدمه ويكتبه الإعلامى الكبير أحمد سعيد وكان يحظى بشعبية جارفة.

وقع الكلام على أذن شمس كالصاعقة وتسمَّرت ملامحه للحظات فيما أكمل المشير بعد ابتسامة ماكرة: «خد بالك، ومبروك عليك الوزارة».

انصرف شمس بهدوء وبقى المشير وحده فى القاعة ليعيش لحظات من التفكير والتأمل، أشعل خلالها سيجارا، أهداه إياه جيفارا الذى كان ضيفًا على الرئيس جمال منذ بضعة أيام، وبدأ يُقلِّب فى مجموعة التقارير الملقاة أمامه بهدوء وتفكير عميق.

* * *

أكثر من مائة فرد، بعضهم يجلس القرفصاء والآخرون يمشون جيئة وذهابًا بملابسهم الزرقاء البالية وأقدامهم المغبَّرة، ما عدا قلة قليلة محافظة إلى حد ما على هندامها، الجميع يحدِّق فى لوتز الذى كان فى طريقه نحو مبنى المستشفى حيث وقف أمام الباب وتحت شجرة توت كبيرة مع فتُّوح الشاذ يتبادلان الكلام الخافت حتى خرج من المبنى جندى بدرجة عريِّف أراد اقتياد لوتز للداخل لكن يد فتُّوح أمسكت بذراع العريِّف وقال له: «روح إنت وزور صاحبك العريِّف عند بوابة السجن وأنا حبقى مع الخواجة لوتز هنا لحد ما ترجع».

العريِّف بتعجُّب قائلاً: «إنت بتقول إيه!! أنا عندى أمر آخد الخواجة لمكتب الدكتور بسرعة».

فتُّوح: «لأ الدكتور مشغول دلوقت، حتستنى شوية».

العرِّيف: «وانت إيش عرَّفك؟».

فتُّوح يجيبه بنفاد صبر: «يا ابن الجاهلة انت ما بتفهمش ازاى تسلك أمورك؟! لما أقول لك الدكتور مشغول، يبقى مشغول، خُد السيجارتين دول ليك ولصاحبك وتعالى بعد عشر دقايق، فاهم؟».

أومأ العرِّيف برأسه وذهب فيما نظر لوتز لفتُّوح متسائلاً عما حدث فأجابه فتُّوح بأن شخصًا ما يريد رؤيته، وما هى إلا لحظات حتى ظهر خلف شجرة التوتة ڤيكتور ليڤى ببشرته الفاتحة وشعره الأسود وما إن تصافحا حتى تركهما فتُّوح.

وبدأ الحديث ليڤى: «اسمع يا لوتز سوف تقابل الضابط رئيس الأركان ويدعى الدكتور فريد، حاول أن تجعله يحتفظ بك فى المستشفى لعدة أيام، قل له إنك مصاب وتعانى آلامًا فى الظهر وحاذر منه؛ لأنه متذبذب ومزاجى».

لوتز: «شكرًا على كل ما تفعله من أجلى، إنك تتمتع بنفوذ هنا!».

ليڤى: «لا تستهن بأحد عشر عامًا قضيتها من عمرى هنا فى السجن، كن حذرًا هيًا، شالووم».

تصافحا فى نفس الوقت الذى عاد فيه العرِّيف واقتاد لوتز لداخل المستشفى المكونة من دور واحد وصعدا ثلاث درجات إلى حيث الشُّرفة الواسعة حيث كان هناك أربعة رجال فى بدل سوداء مدنية يدخنون ويحتسون القهوة عندها أشار العرِّيف للوتز بلزوم مكانه ثم تقدَّم العرِّيف

إليهم وتبادلوا الكلام والنظرات إلى حيث يقف لوتز الذى عاد له العرِّيف سريعًا ليقتاده إلى المكتب الخاص بكبير الأطباء.

شاهد لوتز رجلاً أصلع الرأس، فى أواخر الخمسينيات يجلس على مكتب كبير ويضع فى فمه حامل سيجارة فارغ ورجلٌ آخر يقف إلى جانبه يعلِّق سماعة الكشف حول رقبته.

خاطب الرجل الأصلع لوتز قائلاً: «أنا الدكتور فريد، وأنت لوتز أليس كذلك؟؟!! ونظر إلى لوتز وهز رأسه فى تأفف قائلاً: «أهذا كل ما تملك من ملابس؟!».

لوتز: «وهو حتى لا يحمى من البرد».

فريد: «هل أنت بصحة جيدة؟ هل تعانى شيئًا؟».

لوتز يقوم بحك جلده ويقول: «أشعر ببعض الإعياء فأنا فى الماضى كنت أعالَج من المرارة وأنا الآن مضطر للنوم على أرضية حجرية والبرد القارص يكاد يصلِّب ظهرى».

فريد: «وفى تصورك ماذا عساى أن أفعل؟!».

لوتز: «أوه.. لا أعلم. فأنت الطبيب، ربما أحتاج إلى أن أبقى فى المستشفى بعض الوقت وأنام على سرير وألقى عناية هنا».

نظر الطبيب الآخر إلى لوتز وقال بالعربية: «الراجل ده بيعرف يتكلم عربى ولاَّ لأه؟».

فأشار فريد برأسه قائلاً: «لا أعتقد».

وأردف قائلاً: «من العار علينا معاملته بهذه الطريقة، ليس عندى مانع من أن أحجزه فى المستشفى لفترة قصيرة، لكن الإدارة ممكن تعمل لى مشكلة، إنت عارف التافهين دول علطول بيتهموا الواحد بالمحسوبية».

وقام برفع سماعة التليفون وقال للطرف الآخر:

«صباح الخير. دكتور كمال أنا الدكتور فريد.. عندى السجين الألمانى.. طبعًا إنت عارف أنا بتكلم عن مين؟ صحته مش كويسة وأنا بفكر أحجزه عندى، بس إنت عارف.. «أيوه».. يبقى فى الحاله دى.. «أيوه بالتأكيد».. شكرًا يا دكتور.. مع السلامة».

نظر الدكتور فريد وهز كتفيه وقال بالعربية للطبيب الآخر: «كنت عارف إن الراجل ده خطير ولا زم يبقى تحت الحراسة الخاصة ولازم نأخذ الإذن الأول من الإدارة» ثم نظر للوتز وخاطبه بالإنجليزية قائلاً: «آسف يا لوتز.. خذ هذه الورقة فيها بعض الدواء المؤقت.. وحاول الاتصال بقنصل بلادكم لربما استطاع مساعدتك».

طأطأ لوتز برأسه وأمسك العريِّف بذراعه وعادا إلى حيث جاءا».

* * *

فى السجن هناك زنزانة لفرد واحد وهناك زنزانة نفس المساحة لخمسة عشر فردًا ينامون بالدور ويجلسون بالداخل القرفصاء على بلاطة أو بلاطة

ونصف وسط رائحة كريهة. . لكن لوتز بفضل وضعه كسجين سياسى ألمانى كان يتمتع ببعض الامتيازات، كان آخرها هذا الصباح، فهو يجلس مع فتُّوح والعشماوى. . يأكلون بيضًا بالبسطرمة مع البطاطس المقلية والفول. . فها هو السجين والسجَّان يأكلان من طبق واحد داخل السجن. . فعشماوى الذى اعتاد الإفطار مع لوتز وإمتاعه بقصص الشنق التى يقوم بها مرتين أو ثلاث أسبوعيّا يُعرب له عن استمتاعه بهذه اللعبة ويقول: «إنه أمر مسلّ؛ البعض يكونون متأدبين والبعض الآخر منهارين ولا يستجمعون قواهم للمشى»، ومع اللقمة الكبيرة التى علق ربعها فى شاربه استطرد: «هذا الصباح تقيّأ السجين قبل أن ألف الحبل حول رقبته فغمرنى بسائل لعين، ليتك كنت مكانه يا خواجة»، قالها وأطلق ضحكة صفراء.

لوتز بعربية ركيكة: «لا داعِ لهذه الأمنية يا عشماوى، خذ هذه السيجارة أحسن».

انتهى الجميع من الإفطار وقام فتُّوح يعرض على لوتز نزهة إلى الزنزانة الأخيرة التى فيها المشاهير طبعًا؛ سجناء سياسيون، وافق لوتز بامتنان حيث كان يحب دائمًا الذهاب هناك ومقابلة الهضيبى الإخوانى المعروف، وكذلك مصطفى أمين الصحفى الشهير، وكذلك النقيب أحمد لطفى من البحْرية الذى حُكم عليه بـ: خمسة وعشرين عامًا بتهمة التجسس لصالح المخابرات البريطانية، وقد حُكم على أبيه من قبله بالإعدام لنفس التهمة، لوتز يجد فى هذه المقابلات نوعًا آخر من العمل، فهو يعرف أسرارًا جديدة وأحوالاً لأوضاع البلد الذى يوشك على الكارثة، بينما تبقى موضوعات لوتز مع

ليفى أكثر أهمية خاصة حينما يتبادلان الحديث عن المحاجر التى تبعد ثلاثة أميال عن السجن، والتى ذهب ليفى إليها مع رفاقه اليهود لمدة ثلاثة أعوام متواصلة فى عمل يقصم الظهر.

الأقدمية مهمة للسجين من أجل الراحة، بعد مضى ثلاث سنوات ينتقل السجين من الدرجة الثالثة إلى الثانية حيث يعمل فى إحدى ورش العمل داخل مبنى السجن، وبعد مضى ست سنوات يتم ترقيته إلى سجين من الدرجة الأولى حيث لا يقوم بعمل شىء ويُعطى امتيازات منها خطابات إضافية، بعض الأثاث فى زنزانته ومزيد من المال للحصول على طعام من الكانتين، وهو يتقاضى فى هذه الدرجة عشرة جنيهات. . لوتز تم وضعه بعد بضعة أشهر داخل السجن فى زنزانة درجة أولى بفضل جهود ليفى وقد ساعده فى ذلك مدير السجن الذى كان يعشق السجائر الأمريكية والشوكولاتة السويسرية.

وفى زنزانة لوتز الآن كُتب ومجلات وراديو صغير ومولد كهربائى للشاى والقهوة بالإضافة لخادم، هو أحد السجناء بأجر ستة سجائر يومية.

لم يكن السجناء بمعزل عما يدور فى الخارج من أخبار وإشاعات عن الحرب المنتظرة فى أية لحظة، مشاعر العداء والكراهية تزداد داخل السجون لليهود كما هى فى الخارج حتى إن الحراس الذين كانت تربطهم بلوتز علاقات نفعية أصبحوا فى شدة الخوف أن يراهم أحد وهم يقفون أو يتحدثون معه، لكن حتى الآن وبرغم مرور قرابة العامين للوتز فى السجن

لم يعرف أحد أنه يهودى، حتى أصدقاؤه اليهود داخل السجن، يعرفون فقط أنه مجرد ضابط ألمانى تم تجنيده من قبل الموساد ثم قاده مصيره العاثر إلى زنزانة خمس نجوم داخل سجن طره. . فى ليلة من ليالى العمر التى لا ينساها لوتز، كانت ليلة الكريسماس حيث اجتمع بأصدقائه اليهود؛ روبرت داسا وفيليب ناتهانسون وطبعًا أقدمهم وأكثرهم خبرة فى السجن ڤيكتور ليڤى، وكان الحوار السائد بينهم بالإنجليزية حول السياسة الإسرائيلية، وفى لحظة احتدام الخلاف بينهم، قال روبرت لليڤى بالعبرية: «لا تتوقع بأن يفهم هذا الألمانى حقيقة المشاعر الإسرائيلية كما نحسها نحن» وهنا نظر لوتز بحدة إليهما وقال بالعبرية: «أيها الحمقى. . أنا إسرائيلى مثلكم. . أنا الرائد زئيف جور أريا»(٥) وساد الصمت للحظات ثم انطلقت الضحكات وزادت الحميمية بينهم. . لكن برغم الصداقة التى هوَّنت على لوتز حياة السجن البغيضة إلا أنها لم تعوضه عن ڤالترود التى كانت لا تحظى بما يحظى به هو فى السجن من صداقات وكان هذا سببًا فى كراهية لوتز للقنصل الألمانى الذى تجاهل واجبه تجاهها.

حياة لوتز داخل السجن لا تخلو من المغامرة. . فقد قرر هو وأصدقاؤه اليهود حفر ممر تحت الأرض ليتمكنوا من الهرب إلى خارج السجن وبعدها يتدبر بعض الأصدقاء فى الخارج أمرهم من إحضار جوازات السفر وتهريبهم على ظهر باخرة ما. فيليب وڤيكتور كانا متحمسين أكثر من غيرهما لهذه الطريقة التى تحتاج لتنفيذها إلى بعض الملابس المدنية وتوقيت يكون فى

(٥) Ze'ev Gur-Ari وهو الاسم الحقيقى للوتز.

وضح النهـار، إلا أن روبرت داسا كـان متـحفظًا على هذه الفكرة؛ لأنه قد أمضى أربعة عشر عامًا ولم يبق له إلا القليل، وبرغم ذلك فقد كان شغوفًا بمتابعة الحفر كل يوم مع أصدقائه، إلا أن لوتز يعلّق دائمًا على هذه الطريقة بأنها سوف تنجح بنسبة خمسين بالمائة فى أفضل حـالاتها، ، مما كان يُشعر ليـفى بالحـزن والأسى، فـهى سـبيله الوحـيـد فى الخروج من هذا العـالم الأبدى.

وازداد الأمر تعقـيداً بالنسبة للوتز عندما قطعت مصر علاقاتها بألمانيا الغربية بسبب موقفها المؤيد لإسرائيل بالإضافة لما فعله مواطنها لوتز من تجسس لصالح إسرائيل، أصبح التفتيش شبه يومى للوتز ومتعلقاته وبدأت الضغوط تزداد عليه عندما أصبح الجميع حتى السجناء خائفين من التعامل معه.

الصحافة المصرية تعكس كل يوم الاستعدادات للحرب وتعبئ المشاعر ضد إسرائيل والغرب حتى إن أحد السجناء قام برسم كاريكاتورى على جدران السجن ليهودى تُركل مؤخرته بحذاء جندى مصرى حتى الموت، الراديو يُطلق بصوت عال داخل ساحات السجن ليسمع السجناء الموسيقى العسكرية والخطابات الحماسية والتعليقات السياسية خاصة أحمد سعيد الذى كان صوته يمثل صداعًا ورعبًا للوتز ورفاقه اليهود داخل السجن وها هى الحرب قاب قوسين أو أدنى من الاشتعال، وبدأت إشاعة تسرى بين السجناء أنه عند قيام الحرب سيُطلق سراح كل السجناء ما عدا السجناء السياسيين حيث سيُطلق عليهم النار فى زنازينهم.

٥ يونية ١٩٦٧ ـ سجن طرة

صافرات الإنذار تنطلق لتحذر من وقوع غارة جوية الساعة الثامنة والنصف، جميع السجناء يتريَّضون فى ساحة السجن ما عدا لوتز الذى انطلق إلى خلف نافذة الزنزانة محاولاً مشاهدة ما يحدث فى هذه الغارة ومن أى جهة قادمة، لكنه وجد الحياة هادئة خارج السِجن على الطريق الموصل إلى حُلْوان، وفجأة التفت فى ذعر عندما اقتحم أحد السجناء عليه الزنزانة واتجه نحوه وهو يهتف بالسباب والشتائم: «حاموتكم يا ولاد الكلب يا خونة يا!!!!!».

تفادى لوتز الرجل الذى سرعان ما دخل الحراس وألقوا القبض عليه، وماهى إلا لحظات حتى دخل أحدهم مرة أخرى على لوتز الزنزانة، لكنه هذه المرة صديقه فتُّوح، قائلاً: «هل سمعت التفجيرات؟».

لوتز: «لم أسمع شيئًا، هل بدأت الحرب؟».

فتُّوح: «أنا لا أمزح هناك ثلاثة أو أربعة تفجيرات»، وقطع كلامه صوت الموسيقى العسكرية عبر مكبرات الصوت فى ساحات السجن ثم بدأ البيان بصوت المذيع: «إليكم هذا النبأ الهام.. قامت طائرات العدو الصهيونى تعاضدها قاذفات القنابل الأمريكية بمهاجمة عدد محدود من الأهداف قرب العاصمة ولم تسبب إلا أضرارًا طفيفة، وقد تمكن الطيارون المصريون من إصابة معظم هؤلاء الجبناء، وأمر قائدنا المحبوب جمال عبد الناصر من فوره باحتلال شامل للأراضى الفلسطينية، حيث تمكنت قواتنا المسلحة بالفعل من

اختراق العمق وصولاً إلى الأقاليم التابعة لما يُدعى بدولة إسرائيل، والتى ستُمحى من وجه الأرض فى بضعة أيام، فالحرب المقدسة قد أعلنت، واستُلَّ سيف الإسلام وسنوافيكم بالبلاغات الرسمية الصادرة فى الفترات الفاصلة كل ساعة طوال اليوم».

ثم بدأت الموسيقى العسكرية تعزف السلام الوطنى.

وبعد ساعة من الصمت المطبق على لوتز، الذى تحجَّر فى مكانه واقفًا أمام النافذة بدأت إذاعة البيان التالى «تتقدم الفرق العسكرية المصرية المدرَّعة بسرعة داخل الأراضى المحتلة وقد احتلت بالفعل بلدات وقرى كثيرة وقد جُهِّزت بعض المدرعات فى مقدمة الفرق العسكرية بمكبرات صوت حيث يصدر منها الأوامر إلى الأهالى اليهود بلزوم منازلهم وإخلاء الشوارع وقد استقبل عرب فلسطين الذين أجبروا على أن يعيشوا تحت الاستعباد الصهيونى لسنين، استقبلوا بترحاب وحماسة ورقص فى الشوارع وكثير منهم يبكى من السعادة، وقد حوصرت مجموعة كبيرة من الجيش والمدرعات الإسرائيلية ويتم الآن تدميرهم بالكامل وقد أسقطت فى الساعتين الأوليين من اندلاع الحرب أكثر من ثمانى طائرات حربية إسرائيلية، ويستمر سقوطهم من السماء كأوراق جافة تقع عن شجرة ميتة، وغداً بإذن الله سوف يُصلى جنودنا العشاء فى تل أبيب».

تقلصت أمعاء لوتز من الاضطراب والقلق وبدأ ألف سؤال يدور فى رأسه، لكن صوت مدير السجن الأجش لم يمهله، فها هو يُسمع عبر

مكبرات الصوت يقول: «أيها الضباط والجنود والسجناء ـ إخوانى!! إن هذا اليوم لهو يوم عظيم فى تاريخ الشعب المصرى ويوم عظيم فى تاريخ جمهوريتنا ولأمتنا العربية، حيث أعلن العدو الحرب علينا وقبلنا التحدى وقد تمكن جيشنا المنتصر من أجزاء كبيرة من فلسطين ولن يطول الوقت على طرد آخر يهودى من وطننا العربى، ابتهجوا يا إخوانى وأنا واثق من شعوركم!! اليوم تلاشت الفروق بين الضابط والحارس والسجين، لأن بلدنا تعيش الحرب وهذا المكان يمثل مسئولية كبيرة علينا جميعًا حيث كل منا له دوره فى تحقيق النصر السريع والنهائى وأنا أتوقع من جميع السجناء ممن حصلوا على شهادات صحية من الطبيب بأن يتبرعوا بالدم لجنودنا عند خط النار وسوف نقلل ساعات العمل فى المحاجر والورش؛ لأننا فى حاجة إلى الضباط والحراس لإدارة معسكر سجناء الحرب حيث تم أسر الآلاف من الجنود الإسرائيليين من بينهم ثلاثمائة طيار، وأرجو أن تعرفوا بأنه لن يكون هناك زيارات حتى تنتهى حالة الطوارئ هذه وسوف يكون هناك تعتيم كامل فى المساء، فلا مصابيح ولا نيران».

بدأ لوتز يمشى فى الزنزانة ذهابًا وإيابًا.. تجربته العسكرية والاستخباراتية علَّمته ألا يُخدع فى التصريحات الرسمية ولا البيانات ولا فيما تكتبه الصحف أو تذيعه المحطات حتى ولو كانت البى بى سى أو صوت أمريكا اللتين كان لوتز يستمع إليهما دائمًا، لكن لوتز بدأ يقلب الكلام فى رأسه.. فلو أن عشرة فى المائة من هذا الكلام وهو الحد المعقول حدث بالفعل، فإسرائيل تعيش فى موقف حرج للغاية، لكن كيف يحدث هذا؟ فالخرائط

التى سلمها لوتز والمعلومات التى بعث بها، خاصة الأخيرة، كلها تدور حول مكان الانفجارات الثلاثة التى وقعت صباح اليوم. . عقله يكاد يجن، ماذا يفعل؟ من يصدق؟ هو لا يملك فى هذه اللحظة الراهنة إلا تحليل كل ما سمعه طوال اليوم والانتظار حتى الصباح لمقابلة صديقه مصطفى أمين الصحفى الجاسوس.

وفى صباح اليوم التالى اتجه لوتز إلى زنزانة مصطفى أمين ليجد عدداً من السجناء السياسيين هناك لنفس السبب. . ولم يُكمل تحية مصطفى حيث بادره بالسؤال، هل ما سمعناه هذا صحيح فى نشرات الأخبار، فأجابه مصطفى: «ده إعلام وقت الحروب، يعنى كله كدب». . واتجه مصطفى أمين نحو الراديو ووضعه بين السجناء وبدءوا فى سماع البيان الجديد الذى كان بمثابة إعلان لرغبة الرئيس جمال عبد الناصر فى التنحى عن منصبه، وما إن انتهى البيان حتى أغلق مصطفى الراديو وساد صمت طويل قطعه لوتز بسؤال مصطفى: «ماذا ترى فى تنحى ناصر؟

مصطفى أمين: «إنها كذبة، هو قال ذلك لعصابته المطيعة فى البرلمان، فهو يريدهم فقط أن يرجونه ويلتفون حوله ليظل فى منصبه وأراهنك على أى شىء تريده يا لوتز إنهم يجهزون الآن لمظاهرة تأييدية. . والشاحنات الآن تحمل عشرات الفلاحين وعمال المصانع للقيام بهذه المظاهرة نظير خمسة جنيهات لكل فرد، يركضون فى الشوارع، ومن ثم يبدأ عقل القطيع فى العمل. . وعندها سيصغى ناصر لرغبة الشعب».

لوتز بدأ يعلق على كلام مصطفى فى حين اتجه أحد السجناء بسؤال لوتز قائلاً: «قولى يا خواجة وانت راجل صاحب خبرة، يعنى إيه خط دفاع تانى اللى جه فى البيان؟».

لوتز: «يعنى ببساطة قناة السويس».

السجين: «أو ببساطة حدود القاهرة وده معناه أن الإسرائيليين سيصلون إلى هنا ويقومون بقتل الضباط والجنود وإطلاق سراحنا واحتلال القاهرة».

لوتز بسخرية: «لا تكن مغفلاً يا رجل عاصمة كالقاهرة تحتاج لضعفى سكان إسرائيل الثلاثة ملايين لاحتلالها فقط... هذا مستحيل»، ساد الصمت والهمهمات المكان وانصرف الجميع إلى زنازينهم.. وعاش لوتز الأيام التالية فى ترقب وانتظار فى ظل قلة الطعام والنظافة وتردى الحالة الصحية حيث أصاب جلده الطفح وكان على وشك الهلاك.

* * *

٢٧ يونية ١٩٦٧ ـ القاهرة

الحياة هادئة فى الشوارع، المواطنون فى حالة غليان، رءوسهم مطأطأة للأسفل، لا يكاد يظهر أى عسكرى بزيه الرسمى فى الشوارع حتى يتعرض للسباب والشتائم وفى بعض الأحيان للاعتداء.

أصوات النراجيل تختلط فى المقاهى بصوت الراديوهات التى تنبعث منها الموسيقى العسكرية والبيانات والأخبار التى أصبح الناس يشكُّون فى صحتها بنسبة تسعة وتسعين وتسع من عشرة فى المائة ومع كل هذا، من يُضبط متلبسًا بأى إهانة أو تعليق سياسى ضد الحكومة يُودع فى المعتقل أو تُنصب له العروسة فى الشارع ليُجلد أمام أهل الحى أو القرية.

أخبار فى الصحف عن خلافات المشير عبد الحكيم عامر مع الرئيس جمال عبد الناصر ، القبض على مجموعة من الضباط يخططون للانقلاب، أخبار عن اعتقال صلاح نصر رئيس المخابرات ومعاونيه وخاصة حسَّان عليش، حيث ألقى اللوم عليهم فى هذه الهزيمة والنكسة التى جسدوها فى تقاريرهم على أنها انتصار فى اللحظات الأولى، وكذلك استخدموا المال العام فى أغراضهم الشخصية واعتقلوا وعذبوا المدنيين، مانشتات صحفية لأسماء كبار معاونى شمس بدران وزير الحربية، منهم صفوت الروبى، وإيداعهم فى السجن، الأحوال مقلوبة؛ من كان فى القمة أصبح الآن وراء القضبان وهكذا يعيش المجتمع لحظة الانكسار والهزيمة، والعشرات يفكِّرون فى الهجرة.

«سيد لوتز لك زيارة، هيا انهض» قالها الحارس وهو يقف على أعتاب الزنزانة منتظرًا لوتز لاصطحابه.. ويصل لوتز لمكتب مدير السجن وتنفجر أساريره عندما وقعت عيناه على كراهل أربان، المحامى، والصديق.

مقهى الصيرفى ـ ٢٨ يونية ـ القاهرة

الحياة فى المقاهى أكثر نموذج يجسد الحياة وحركة الناس فى مصر، لقاءات عابرة تحددها المصادفة فحسب بين مرتادى المقهى، خاصة هذه الأيام عقب النكسة. الكل يبحث عن منفعته المباشرة وكسب رزقه.. كما لو أن الجميع تنازل عن حُلم مشترك وهدف موحَّد اجتمعوا طيلة السنوات الماضية من أجله، لكن زبائن المقهى أصبحوا أكثر جرأة فى نقد الواقع والحديث بحرية دون خوف من المرشدين، فكامل أفندى بعد إصابته الأخيرة أصبح مقعداً، لا يرى فى المقهى إلا يوم السبت فقط ويُساعده فى النزول للمقهى صديقه شحاتة أفندى، وها هما يدخلان المقهى على نداء القهوجى «وسِّع يا بنى انت وهوّه لعمك كامل وسى شحاتة» حيث استقبلا من الجميع بابتسامة ورضى وجلس كامل أفندى فى تباطؤ ومع زفرة ملؤها الحزن والهم قال: «إيه الأيام اللى احنا عايشنها دى يا سى شحاتة؟».

ونظر شحاتة لكامل وقلَّب بصره فى أرجاء المقهى كأنما يحاول أن يهرب من الإجابة لكنه عبثًا حاول.. فقال: «شدة وتزول عن البلد يا كامل يا خويا».

كامل أفندى ينادى على القهوجى متسائلاً عن باقى الوجوه التى اعتاد أن يراها فى المقهى خاصة المهندس الشاب الذى كان يقرأ الجرنال كل يوم فى هذا الوقت وكذلك الأستاذ مفيد المدرس المساعد فى الجامعة وسرور الساعاتى، الجميع قد أتم أوراقه للهجرة، هذا ما أكده القهوجى، لكنه لم

يكن على علم أين اختفى على الدُّهل ، الجدع والفتوة ابن الحارة الذى اختفى منذ عدة سنوات ، والذى ما زال طيب الذكر فى مقهى الصيرفى وعند الناس ، والذى كان يحل مشاكلهم ويستنجدون به فى الملمّات .

مع نزول الطلبات أمام كامل أفندى وشحاتة ووسط أنفاس النراجيل وأصوات النرد ولعلعة عبد الوهاب من خلال المذياع منشداً «أخى جاوز الظالمون المدى . . » ، تساءل شحاتة هارون بتعجب «أنا مش قادر أصدق اللى بقراه فى الصحف ، تصور يا كامل أفندى يا خويا كل ده يحصل! بقى اللواء عبد العزيز مصطفى محافظ البحر الأحمر ، والفريق محمد صدقى محمود قائد القوات الجوية ، واللواء عبد الرحمن فهمى واللواء حمزة البسيونى مدير السجن الحربى ، كل دول يتسجنوا» .

كامل أفندى : «خليك دقيق شوية ، دول تم إحالتهم للاستيداع والأخير هرب» .

شحاتة هارون : «بس ده بيقولك كلهم ليهم تسجيلات تليفونية تُدينهم» .

كامل أفندى : «كمان نسيت المقدم «أحمد عبد الله» اللى كان قائد الانقلاب المدبر مع المشير ضد الرئيس جمال ، الجرنال نشر فى مقال هيكل نص المكالمة التليفونية وهوَّ بيقول للمشير : «إحنا ولادك يا سيادة المشير» .

شحاتة هارون : «أنا قرأت خمسة وخمسين اسم متهم فى قضية الانقلاب ده» ، دى حاجة تمخول الرأس» .

واستمر الجميع فى استحضار قراءاته عن الواقع وعن البلد وعن الوطن الذى ينزف .

* * *

كوبرى القبة ـ غرة أغسطس ١٩٦٧

الأعصاب مشدودة، لا أحد فوق القانون، الواحد تلو الواحد يُستدعى للتحقيق معه فى قضايا الفساد والانحراف . . ووسط هذا المشهد المشحون بقى عدد من الضباط المسئولين عن العمل الخارجى للجهاز خارج حدود الجمهورية العربية المتحدة ، مستمرين فى أداء عملهم بإخلاص وإتقان، ، هذا هو الفارق بين من يعمل من أجل وطن ومن يعمل من أجل رضى فرد أو مسئول .

الرائد صلاح الذى اعتاد الجلوس أمام النافذة خلف مكتبه وهو ينفث دخان سيجارته بعد أن أتم استعراض ملف أزرق كبير، ها هو يستدير بكرسيه ويقف فى حزم ويمسك بالملف ويهم بالمغادرة، وإذا بالباب يُفتح ويدخل ثلاثة من معاونيه . . «كله تمام يا فندم» قالها الثلاثة وانطلقوا خلف الرائد صلاح الذى كان على موعد مع الرجل الأول فى الدولة .

* * *

هناك قضايا من الحساسية بمكان أن لا يعطى فيها قرار إلا رئيس الدولة خاصة فى وقت الحروب . . وها هو الرائد صلاح الآن فى مكتب الرئيس

جمال فى بيته بمنشية البكرى وعلى الطاولة الصغيرة أمامه الملف الأزرق الذى لم يكن سوى مشروع مبادلة الأسرى المصريين بالسجناء اليهود والجاسوس الألمانى لوتز.

بعد دقائق من مطالعة الرئيس جمال الملف بالكامل، رفع رأسه وقال: «نسبة نجاح الموضوع ده اد إيه يا صلاح؟».

الرائد صلاح: «مائة بالمائة بإذن الله يا ريس».

الرئيس جمال: «دول خمسة آلاف جندى وتسعة لواءات يا صلاح، عارف الدعاية اللى حتكسبها إسرائيل فى مقايضة العدد الكبير ده بعشرة إسرائيليين بس، منهم الجاسوس لوتز، أد إيه؟».

الرائد صلاح: «عارف يا فندم. بس عارف زى ما سيادتك عارف إن رجالة مصر حيرجعولها تانى وكمان طُعم كبير إحنا محضرينه للعدو خلال السنوات الجاية حيستوى هناك على أرضهم».

الرئيس جمال: «نجاح الطعم ده حيعتمد على سريته يا صلاح».

وبنظرة الواثق يومئ صلاح برأسه قائلاً: «ربنا معانا يا فندم، دم شهدائنا مش حيروح هدر، الجاسوس لوتز الألمانى إحنا عارفين حقيقته وأصله إيه وحجم الكارثة اللى اتسببها لمصر فى النكسة اللى احنا عايشنها دى».

الرئيس جمال: «بس إنت حترجعه سليم تانى لإسرائيل وحيُعامل هناك على إنه بطل؟».

الرائد صلاح: «حيرجع وترجع معاه أفلامه اللى صورها لأهم وحداتنا ومواقع الصواريخ وحنديله الانطباع اللى هوّ عايزه عنا، وبعد كده حننتقل للمرحلة «ب» الموضَّحة لسيادتك فى الملف الأزرق اللى قدام سيادتك».

الرئيس جمال: «ربنا معاك يا صلاح. . ومش مهم الناس تقول ايه دلوقت، المهم حيقولوا إيه بعدين لما يعرفوا الحقيقة، نفِّذ».

* * *

بعد أسبوعين حالة من النشاط يشهدها لوتز هذا الصباح فى زنزانته، خاصة مع صوت المزلاج والسلاسل وهى تُفتح ودخول أحد الضباط ومعه الحرس وبصحبتهم ليفى، الذى اتجه للوتز وعانقه بحرارة قائلاً: «لقد صدر التقرير الطبى الخاص بك اليوم يا لوتز، مبروك، عندك سرطان لا علاج له وعيوب خِلقية فى القلب خطيرة ويؤكد التقرير أنك لن تعيش سوى ثلاثة أشهر».

لوتز بتعجب: «يا للهول! ماذا يعنى هذا؟».

ليفى: «يعنى إطلاق سراحك لأسباب طبية» قالها ليفى ونظر للضابط والحرس بتشفٍّ وشماتة.

وهنا وبلهجة حاسمة قال الضابط للوتز: «أمامك عشر دقائق لحمل ما تجده مهمّاً؛ لأنك ستغادر السجن. . خلاص يا خواجة».

لوتز بسعادة غامرة: «أحقّا. . ولكن ماذا عن ڤالترود زوجتى».

الضابط : «إنها فى انتظارك فى مكتب مدير السجن ، ، هيّا» .

امتدت يد مدير السجن عبد الله عماره لمصافحة لوتز قائلاً : «مبروك يا لوتز ، إنت الآن حر وڤالترود . . سوف تغادر السجن هذا المساء إلى ألمانيا ، وقبل ذلك سيصطحبك الحرس إلى مكتب مدير الرواتب لتأخذ أموالك وتستبدل بملابسك هذا الزى الذى كم تمنيت أن تبقى به أكثر من ذلك عندنا ، لكنها الأقدار» قالها مدير السجن وانصرف بسرعة من مكتبه كما لو كان لا يريد أن يسمع أية ردود من لوتز الذى عاش لحظة من السعادة كان ينتظرها هو وڤالترود منذ زمن طويل . . كلمة تتكون من حرفين . . «حرّ» . . عندما يسمعها الإنسان العادى يشعر بمنتهى الرضا ، لكن عندما يسمعها السجين فربما تخرج روحه ساعتها من الفرحة . . لم ينس لوتز أن يودِّع أصدقاءه السجناء الذين عرفهم فى السجن ، فها هو الهضيبى رجل الإخوان يعانقه بحرارة ويقول له : «دعنا نتمنى لك الحظ الجيد يا لوتز ، أنت رجل جيد ، بارك الله فيك وحفظك» فى حين لم يتوقع لوتز هذه الكلمات من شخص كهذا .

وها هو الصحفى مصطفى أمين يصافحه قائلاً : «لا بد أن تقوم بالكتابة وإخبار العالم عما يحدث فى السجون المصرية» .

و أخيراً ها هو ليڤى يعانق لوتز ويقوم بهندَمَة قميصه وربطة عنقه قائلاً : «لا تغضب من روبرت وفيليب فلم يكن مسموحًا بمغادرتهما الزنزانة ، دعنى أتمنى لك السعادة» .

لوتز : «لقد طمأننى مدير السجن أنكم ستلحقون بى ، ما هى إلا أيام» .

وفى سعادة تعانقا وصعد لوتز العربة الخاصة بنقله برفقة ڤالترود إلى المطار مع عدد من الحرس الذين حاول لوتز بنجاح مقايضتهم ، جنيهًا واحدًا على كل قيد يفكوه عنه وعن ڤالترود معللاً ذلك بأنه ليس من اللائق أن يدخل المطار بقيود فى يده ، قبلَ الحرس ذلك بعد نقاش دار بينهم ، حسمه كبيرهم بقوله بسخرية : «إنتو خايفين من إيه ، هوّ هيهرب؟» .

فى مطار القاهرة وفى قاعة المغادرة اقترب رجل فى ملابس مدنية وقام مرافقو لوتز بتحيته حيث بدا عليه أنه من البوليس السرى ، ، قال للحرس : «تقدروا ترجعوا دلوقت والسيد لوتز والسيدة ڤالترود معايا» ، ثم استدار فى اتجاههما قائلاً : «مساء الخير ، سوف تظلاَّن بصحبتى حتى إقلاع الطائرة ، اتبعونى من فضلكما» .

سار الرجل وخلفه لوتز وڤالترود ، وكل الأبواب والممرات تُفتح له ، جمارك وجوازات . . حتى وصلوا إلى صالة الترانزيت وهنا استدار الرجل لهما وقال : «أمام الإقلاع خمس عشرة ساعة ، يمكنكما التجوال بحرية هنا ، هناك مطعم فى الدور العلوى ومحال فى السوق الحرة ، لكن دون التخاطب مع أحد حتى أضمن لكما مغادرة هادئة دون مشاكل» .

لم ينته آخر حرف فى كلام هذا الرجل وإذا بلوتز بفزع وهلع شديدين لرجل ظهر من الخلف ومعه رجل آخر ، ، لوتز يعرف هذا الرجل جيداً إنه من قام بالقبض عليه عند ڤيلته فى الهرم وهو من أوصله إلى السجن

بتحقيقاته ومرافعته التى حفظها لوتز عن ظهر قلب، إنه سمير ناجى وكيل نيابة أمن الدولة، هذا الرجل البدين ذو النظارة السوداء والصوت الذى يشبه فحيح الأفاعى. . انتفض جسد لوتز وهو يصرخ متلعثمًا «ماذا تريد منى يا رجل؟».

يضحك سمير وبنفس نبرة الصوت التى يقشعر جسد لوتز لها يرد عليه قائلاً: «جئت أودِّعك يا سيد لوتز أنت وزوجتك ڤالترود، سامحنى. . طوال هذه المدة لم أزرك فى السجن، لقد كنت مشغولاً».

لوتز: «أشكرك على عدم زيارتك يا رجل، هل تريد منى الآن شيئًا؟».

سمير: «لا، لا شىء. لدىّ بعض الأشياء الخاصة بك، يبدو أنك نسيتها» وأعطى الإشارة لمرافقه الذى قدم للوتز حقيبة كبيرة نوعًا ما، بها قلمه الحبر ومحفظته والكاميرا السينمائية الخاصة بڤالترود وتسع لفات سينمائية غير محمضة».

وهنا نظر لوتز لمحتويات الحقيبة وللفَّات السينمائية غير المحمضة وهو يكاد لا يصدق نفسه.

* * *

لوتز وڤالترود الآن على باب الطائرة التابعة لشركة اللوفتهانزا وقد تسلما من الرجل المرافق لهما جوازى سفرهما، ولم يُفارق الرجل مكانه على أرض المطار حيث تابعه لوتز بنظرة عبر النافذة، حتى تحركت الطائرة وعندها تنفس لوتز وڤالترود بعمق وتبادلا قبلة دامت للحظات، حيث توقفت مع

توقف الطائرة عن الحركة فى المدرَّج، بقلق وتوتر شديد تبادل لوتز الكلام الصامت مع ڤالترود بنظريهما . . لم يستطع أن يتحدث، لقد شُلَّ لسانه ولم يُعلق حتى سمع قائد الطائرة عبر أجهزة النداء داخل الطائرة يقول: «بعض الشكليات البسيطة وسوف نقلع خلال دقائق» اتجهت ڤالترود بالسؤال للوتز قائلاً: «هذه طائرة ألمانية ونحن وَفْقَ القانون على أرض ألمانية».

جاوبها لوتز متظاهرا بالثقة فيما تقوله : «بالطبع يا عزيزتى».

ومرَّت عشرون دقيقة هى الأطول فى حياة لوتز حتى عادت الروح لمحركات الطائرة ثم بدأت فى الصعود إلى أعلى إلى السماء وإلى الهواء وهنا أمسك لوتز بيد ڤالترود وقال: «الآن فقط أشعر بالحرية!!».

* * *

٣٠ مارس ١٩٧٣ - تل أبيب

٣ ، ٢ ، ١ ، اتفضل. قالها المخرج ليبدأ جينجز الحلقة الأخيرة فى برنامجه الوثائقى الذى استغرق حوالى الأشهر الثلاثة لإتمام التصوير.

«سيداتى سادتى. . أهلاً بكم من جديد إلى الحلقة الأخيرة من قصة سيد الجواسيس، جاسوس الشمبانيا، يوهان ڤولفجانج لوتز. سيد لوتز كيف تشعر الآن بعد كل ما مضى من أحداث؟».

لوتز: «الراحة والاستقرار والنصر».

جينجز: «ما هى الشخصية الأكثر إثارة بالنسبة لك فى كل ما مضى؟».

لوتز: «ذاك البدين ذو النظارة السوداء، المدعو سمير ناجى».

جينجز: «كيف ترى الوضع السياسى الراهن والعسكرى لإسرائيل ومصر؟».

لوتز: «مطمئن بدرجة كبيرة، فالموساد يستطيع أن يعرف ما سيحدث فى أى مكان فضلاً عن إسرائيل قبل سنة من الآن».

جينجز: «ماذا عن أصدقائك الآخرين؟».

لوتز: «الجميع تزوج وأنجب، روبرت داسا يدرس العلوم الشرقية الآن، وفيليب ناتهانسون أصبح مصوراً فوتوغرافيًا فرانز كيسو لا يزال يعمل فى المؤسسة الألمانية فى مانيسمان بالخارج وجيرهارد بوتش قد اختفى تمامًا لكن سمعت أنه يعمل فى السفارة الألمانية فى واشنطن أما والدا ڤالترود فهما الأكثر معاناة، والدها يعانى السكر ووالدتها تعانى مرضًا فى الرئة والقلب وهما يعيشان الآن فى هيلبورن بجنوب ألمانيا فى منزلهما الريفى حيث يحتجبان عن عدسات الصحف والمحطات التليفزيونية الطامعة فى أى لقاء معهما، نزولاً عند رغبتى أنا».

جينجز: «وماذا عن المصريين هناك فى مصر؟».

لوتز: «أغلبهم تم القبض عليهم ومنهم من أحيل للتقاعد».

جينجز: «هل بسبب عملهم معك؟».

لوتز: «عليّ أن أكون منصفًا، لقد استخدمتهم دون اتفاق أو معرفة لهم بحقيقتى، لكن السلطات تعاملت معهم على أنهم مهملون حيث كانوا غير حذرين فى حديثهم وفى علاقاتهم بالأجانب، بالإضافة لقبولهم هداياى الكثيرة، والتى اعتبرتها السلطات هناك رشوة».

جينجز: «وماذا عن الخبراء الألمان هناك؟».

لوتز يقول فى ثقة: «لقد رحل الجميع تقريبًا وتم إحلالهم بروس، ولا أعتقد أن شيئًا ما سيُنتج من تلك الطائرات أو الصواريخ».

جينجز: «فى النهاية هل تود قول شيء ما؟».

لوتز: «إن الدور الذى أديته لعدة أعوام فى القاهرة كان معركة ضمن حرب التجسس.. المعركة الصامتة خلف الأضواء حيث كانت فى منتهى الصعوبة ودائمًا نتائجها ليست سارة، لكنها وظيفة دائمة ولا بد أن يقوم بها شخص ما».

جينجز: «لكنك لم تعلّق كثيرًا على سؤالى حول الوضع السياسى والعسكرى لبلدك مع مصر الآن؟».

لوتز: «ربما أشعر بأن أمرًا ما سيحدث فذلك الرجل الذى يثيرنا دائمًا عندما أسمع تحركاته أو خطبه فى الإذاعة وهو من نوعية ذلك البدين سمير ناجى، لكننى مطمئن لأجهزتنا كما قلت لك».

جينجز : «سيد لوتز شكرًا جزيلاً لك على هذه الفرصة» .

«STOP»

قــالهــا المخــرج ، وانفض الجــمع داخل منزل لوتز ، وعــادت الكراسى والأشياء لمكانها ، وإذا بلوتز بشكل مفاجئ يصرخ فى خادمه صرُّوف : «ماذا تفـعل هناك ، ألـم أقل لك إن هذه الساعة مكـانها ليس هنا وعليك أن تنقلـها إلى هناك؟» .

بامتثال يرد صرُّوف : «حاضر يا سيدى ، أنا آسف» قالها وأخذ يتمتم بصوت خافت : «دم شهدائنا مش هيروح هدر ! ! يا لوتز الكلب» .

* * *



عبد الله سيد عبد العزيز يسرى

مذيع بقناة النيل الثقافية

التليفزيون المصرى

E mail:Yousri74 2003@hotmail.com